

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

روائع المناجاة

شرح المناجاة الشعبانية ومناجاة المريدين



دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

إعداد: محمد رضا غياثي كرماني
ترجمة: عباس نور الدين

روائع المناجاة

شرح المناجاة الشعبانية ومناجاة المريدين

روائع المناجاة

شرح المناجاة الشعبانية ومناجاة المريدين

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

إعداد

السيد محمد رضا غياثي كرماني

ترجمة

السيّد عبّاس نور الدين

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-119-4

[٢٠١٨م - ١٤٣٩هـ]



دار المعـارف الحكميـة
Dar Al maaref Alhikmiah

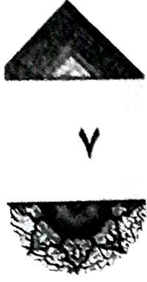
العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org

تصميم
زينب ن ترمس

إخراج فني
ماجد مصطفى

طباعة
DBOUK
0096113336218
info@dboukart.com


بسم الله الرحمن الرحيم



الفهرس

كلمة الناشر

يسرّنا أن نضع بين يدي القارئ الكريم الكتاب السابع من سلسلة الأعمال الكاملة لآية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، والتي يعمل دار المعارف الحكمية على إصدارها تباعًا، وهو كتاب **روائع المناجاة**.

سنكون في هذا الكتاب مع وقفةٍ تأمليةٍ مع موضوعة المناجاة، التي شكّلت مصدرًا أساسيًا من مصادر تشكيل الوعي الديني عند الإنسان المؤمن، وعاملًا مركزيًا من عوامل تحديد أُطر العلاقة بينه وبين ربّه، وذلك لما تمثّله المناجاة من مستند يقدّم حال المعصوم ومقاله في إزاء تخاطبه مع الله سبحانه وتعالى.

وعلى وجه التخصيص، فإننا سنكون مع «المناجاة الشعبانية» و«مناجاة المريدين»، حيث يقدّم الكتاب مجموعة دروس للمؤلف حفظه الله، قدم فيها بشكل متسلسل شرحًا للمناجاة الشعبانية، ومجموعة أخرى قدمها في شرح مناجاة المريدين.

نأمل لهذا الكتاب أن يكون معينًا للسائرين من المؤمنين على درب الحبيب، ورافدًا لهم في حركتهم، من خلال ما يقدمه من المعارف العالية المرتبطة بسير الإنسان وسلوكه إلى الله، راجين من الله القبول والتوفيق.

والحمد لله أولاً وآخراً



المناجاة الشعبانية

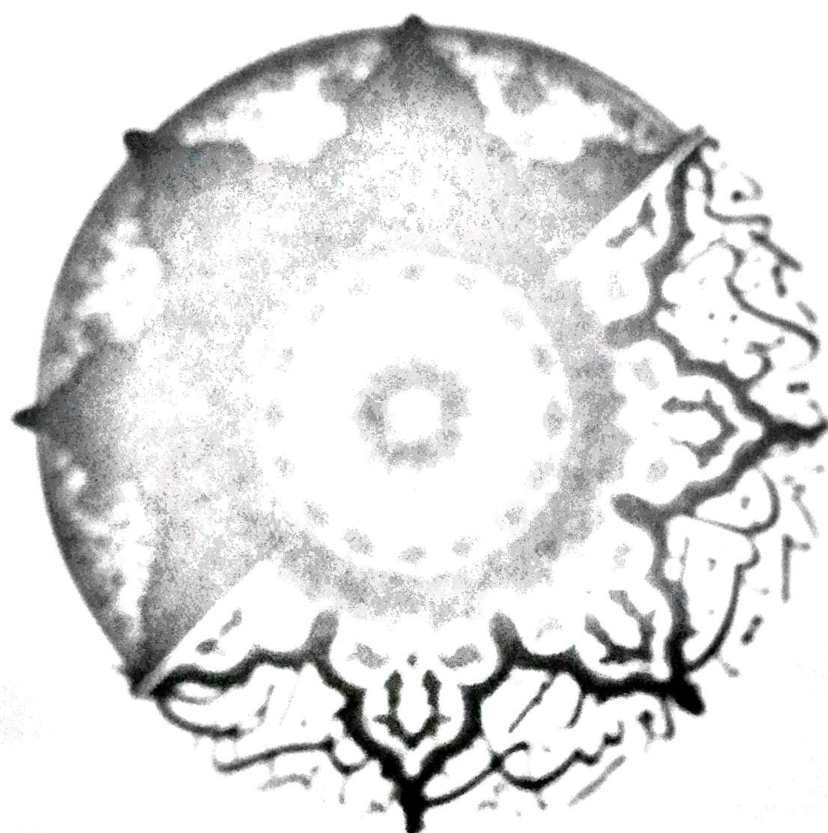


اَللّـهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَاسْمَعْ دُعائي إِذا دَعَوْتُكَ، وَاسمَعْ نِدائي إِذا نادَيْتُكَ، وَأَقْبِلْ عَلَيَّ إِذا ناجَيْتُكَ، فَقَدْ هَرَبْتُ إِلَيْكَ، وَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ، مُسْتَكيناً لَكَ مُتَضَرِّعاً إِلَيْكَ، راجِياً لِما لَدَيْكَ ثَوابي، وَتَعْلَمُ ما في نَفْسي، وَتَخْبُرُ حاجَتي، وَتَعْرِفُ ضَميري، وَلا يَخْفى عَلَيْكَ أَمْرُ مُنْقَلَبي وَمَثْوايَ، وَما أُريدُ أَنْ أُبْدِيَ بِهِ مِنْ مَنْطِقي، وَأَتَفَوَّهُ بِهِ مِنْ طَلِبَتي، وَأَرْجُوهُ لِعاقِبَتي، وَقَدْ جَرَتْ مَقاديرُكَ عَلَيَّ يا سَيِّدي فيما يَكُونُ مِنّي إِلى آخِرِ عُمْري، مِنْ سَريرَتي وَعَلانِيَتي، وَبِيَدِكَ لا بِيَدِ غَيْرِكَ زِيادَتي وَنَقْصي وَنَفْعي وَضَرّي، إِلـهي إِنْ حَرَمْتَني فَمَنْ ذَا الَّذي يَرْزُقُني، وَإِنْ خَذَلْتَني فَمَنْ ذَا الَّذي يَنْصُرُني، إِلـهي أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَضَبِكَ وَحُلُولِ سَخَطِكَ، إِلـهي إِنْ كُنْتُ غَيْرَ مُسْتَأهِلٍ لِرَحْمَتِكَ فَأَنْتَ أَهْلٌ أَنْ تَجُودَ عَلَيَّ بِفَضْلِ سَعَتِكَ، إِلـهي كَأَنّي بِنَفْسي واقِفَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ وَقَدْ أَظَلَّها حُسْنُ تَوَكُّلي عَلَيْكَ، فَقُلْتَ ما أَنْتَ أَهْلُهُ وَتَغَمَّدْتَني بِعَفْوِكَ، إِلـهي إِنْ عَفَوْتَ فَمَنْ أَوْلى مِنْكَ بِذلِكَ، وَإِنْ كانَ قَدْ دَنا أَجَلي وَلَمْ يُدْنِني مِنْكَ عَمَلي فَقَدْ جَعَلْتُ الإِقْرارَ بِالذَّنْبِ إِلَيْكَ وَسيلَتي، إِلـهي قَدْ جُرْتُ عَلى نَفْسي فِي النَّظَرِ لَها، فَلَها الْوَيْلُ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَها، إِلـهي لَمْ يَزَلْ بِرُّكَ عَلَيَّ أَيّامَ حَياتي فَلا تَقْطَعْ بِرَّكَ عَنّي في مَماتي، إِلـهي كَيْفَ آيَسُ مِنْ حُسْنِ نَظَرِكَ لي بَعْدَ مَماتي، وَأَنْتَ لَمْ

تُوَلّني إلّا الْجَميلَ في حَياتي، إِلـهي تَوَلَّ مِنْ أَمْري ما أَنْتَ أَهْلُهُ، وَعُدْ عَلَيَّ بِفَضْلِكَ عَلى مُذْنِبٍ قَدْ غَمَرَهُ جَهْلُهُ، إِلـهي قَدْ سَتَرْتَ عَلَيَّ ذُنوبًا في الدُّنيا وَأَنا أَحْوَجُ إِلى سَتْرِها عَلَيَّ مِنكَ في الأُخْرى، إِذْ لَمْ تُظْهِرْها لِأحَدٍ مِنْ عِبادِكَ الصّالِحينَ، فَلا تَفْضَحْني يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى رُؤُوسِ الأَشْهادِ، إِلـهي جُودُكَ بَسَطَ أَمَلي، وَعفْوُكَ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلي، إِلـهي فَسُرَّني بِلِقائِكَ يَوْمَ تَقْضي فيهِ بَيْنَ عِبادِكَ، إِلـهي اعْتِذاري إِلَيْكَ اعْتِذارُ مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ قَبُولِ عُذْرِهِ، فَاقْبَلْ عُذْري يا أَكْرَمَ مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُسيئُونَ، إِلـهي لا تَرُدَّ حاجَتي، وَلا تُخَيِّبْ طَمَعي، وَلا تَقْطَعْ مِنكَ رَجائي وَأَمَلي، إِلـهي لَوْ أَرَدْتَ هَواني لَمْ تَهْدِني، وَلَوْ أَرَدْتَ فَضيحَتي لَمْ تُعافِني، إِلـهي ما أَظُنُّكَ تَرُدُّني في حاجَةٍ قَدْ أَفْنَيْتُ عُمْري في طَلَبِها مِنكَ، إِلـهي فَلَكَ الْحَمْدُ أَبَدًا أَبَدًا دائِمًا سَرْمَدًا، يَزيدُ وَلا يَبيدُ كَما تُحِبُّ وَتَرضى، إِلـهي إِنْ أَخَذْتَني بِجُرْمي أَخَذْتُكَ بِعَفْوِكَ، وَإِنْ أَخَذْتَني بِذُنُوبي أَخَذْتُكَ بِمَغْفِرَتِكَ، وَإِنْ أَدْخَلْتَني النّارَ أَعْلَمْتُ أَهْلَها أَنّي أُحِبُّكَ، إِلـهي إِنْ كانَ صَغُرَ في جَنْبِ طاعَتِكَ عَمَلي فَقَدْ كَبُرَ في جَنْبِ رَجائِكَ أَمَلي، إِلـهي كيف أَنْقَلِبُ مِنْ عِنْدِكَ بِالْخَيْبَةِ مَحْرومًا، وَقَدْ كانَ حُسْنُ ظَنّي بِجُودِكَ أَنْ تَقْلِبَني بِالنَّجاةِ مَرْحُومًا، إِلـهي وَقَدْ أَفْنَيْتُ عُمْري في شِرَّةِ السَّهْوِ عَنْكَ، وَأَبْلَيْتُ شَبابي في سَكْرَةِ التَّباعُدِ مِنْكَ، إِلـهي فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ أَيّامَ اغْتِراري بِكَ وَرُكُوني إِلى سَبيلِ سَخَطِكَ، إِلـهي وَأَنا عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ قائِمٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، مُتَوَسِّلٌ بِكَرَمِكَ إِلَيْكَ، إِلـهي أَنا عَبْدٌ أَتَنَصَّلُ إِلَيْكَ مِمّا

كُنْتُ أُواجِهُكَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ اسْتِحْيائي مِنْ نَظَرِكَ، وَأَطْلُبُ الْعَفْوَ مِنْكَ إِذِ الْعَفْوُ نَعْتٌ لِكَرَمِكَ، إِلـهي لَمْ يَكُنْ لي حَوْلٌ فَأَنْتَقِلَ بِهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ إِلّا في وَقْتٍ أَيْقَظْتَني لِمَحَبَّتِكَ، وَكَما أَرَدْتَ أَنْ أَكُونَ كُنْتُ، فَشَكَرْتُكَ بِإِدْخالي في كَرَمِكَ، وَلِتَطْهيرِ قَلْبي مِنْ أَوْساخِ الْغَفْلَةِ عَنْكَ، إِلـهي انْظُرْ إِلَيَّ نَظَرَ مَنْ نادَيْتَهُ فَأَجابَكَ، وَاسْتَعْمَلْتَهُ بِمَعُونَتِكَ فَأَطاعَكَ، يا قَريبًا لا يَبْعُدُ عَنِ الْمُغْتَرِّ بِهِ، وَيا جَوادًا لا يَبْخَلُ عَمَّنْ رَجا ثَوابَهُ، إِلـهي هَبْ لي قَلْبًا يُدْنيهِ مِنْكَ شَوْقُهُ وَلِسانًا يُرْفَعُ إِلَيْكَ صِدْقُهُ، وَنَظَرًا يُقَرِّبُهُ مِنْكَ حَقُّهُ، إِلـهي إِنَّ مَنْ تَعَرَّفَ بِكَ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَمَنْ لاذَ بِكَ غَيْرُ مَخْذُولٍ، وَمَنْ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ غَيْرُ مَمْلُولٍ، إِلـهي إِنَّ مَنِ انْتَهَجَ بِكَ لَمُسْتَنيرٌ، وَإِنَّ مَنِ اعْتَصَمَ بِكَ لَمُسْتَجيرٌ، وَقَدْ لُذْتُ بِكَ يا إِلـهي فَلا تُخَيِّبْ ظَنّي مِنْ رَحْمَتِكَ، وَلا تَحْجُبْني عَنْ رَأْفَتِكَ، إِلـهي أَقِمْني في أَهْلِ وِلايَتِكَ مُقامَ مَنْ رَجا الزِّيادَةَ مِنْ مَحَبَّتِكَ، إِلـهي وَأَلْهِمْني وَلَهًا بِذِكْرِكَ إِلى ذِكْرِكَ وَهِمَّتي في رَوْحِ نَجاحِ أَسْمائِكَ وَمَحَلِّ قُدْسِكَ، إِلـهي بِكَ عَلَيْكَ إِلّا أَلْحَقْتَني بِمَحَلِّ أَهْلِ طاعَتِكَ وَالْمَثْوَى الصّالِحِ مِنْ مَرْضاتِكَ، فَإِنّي لا أَقْدِرُ لِنَفْسي دَفْعًا، وَلا أَمْلِكُ لَها نَفْعًا، إِلـهي أَنَا عَبْدُكَ الضَّعيفُ الْمُذْنِبُ، وَمَمْلُوكُكَ الْمُنيبُ، فَلا تَجْعَلْني مِمَّنْ صَرَفْتَ عَنْهُ وَجْهَكَ، وَحَجَبَهُ سَهْوُهُ عَنْ عَفْوِكَ، إِلـهي هَبْ لي كَمالَ الانْقِطاعِ إِلَيْكَ، وَأَنِرْ أَبْصارَ قُلُوبِنا بِضِياءِ نَظَرِها إِلَيْكَ، حَتّى تَخْرِقَ أَبْصارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلى مَعْدِنِ الْعَظَمَةِ، وَتَصيرَ أَرْواحُنا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ، إِلـهي وَاجْعَلْني مِمَّنْ

نادَيْتَهُ فَأَجابَكَ، وَلاحَظْتَهُ فَصَعِقَ لِجَلالِكَ، فَناجَيْتَهُ سِرًّا وَعَمِلَ لَكَ جَهْرًا، إِلـهي لَمْ أُسَلِّطْ عَلى حُسْنِ ظَنّي قُنُوطَ الإِياسِ، وَلا انْقَطَعَ رَجائي مِنْ جَميلِ كَرَمِكَ، إِلـهي إِنْ كانَتِ الْخَطايا قَدْ أَسْقَطَتْني لَدَيْكَ، فَاصْفَحْ عَنّي بِحُسْنِ تَوَكُّلي عَلَيْكَ، إِلـهي إِنْ حَطَّتْني الذُّنُوبُ مِنْ مَكارِمِ لُطْفِكَ، فَقَدْ نَبَّهَني الْيَقينُ إِلى كَرَمِ عَطْفِكَ، إِلـهي إِنْ أَنامَتْني الْغَفْلَةُ عَنِ الاسْتِعْدادِ لِلِقائِكَ، فَقَدْ نَبَّهَتْني الْمَعْرِفَةُ بِكَرَمِ آلائِكَ، إِلـهي إِنْ دَعاني إِلى النّارِ عَظيمُ عِقابِكَ، فَقَدْ دَعاني إِلى الْجَنَّةِ جَزيلُ ثَوابِكَ، إِلـهي فَلَكَ أَسْأَلُ وَإِلَيْكَ أَبْتَهِلُ وَأَرْغَبُ، وَأَسأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد، وَأَنْ تَجْعَلَني مِمَّنْ يُديمُ ذِكْرَكَ، وَلا يَنْقُضُ عَهْدَكَ، وَلا يَغْفُلُ عَنْ شُكْرِكَ، وَلا يَسْتَخِفُّ بِأَمْرِكَ، إِلـهي وَأَلْحِقْني بِنُورِ عِزِّكَ الأَبْهَجِ، فَأَكُونَ لَكَ عارِفًا، وَعَنْ سِواكَ مُنْحَرِفًا، وَمِنْكَ خائِفًا مُراقِبًا، يا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرامِ، وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّد رَسُولِهِ وَآلِهِ الطّاهِرينَ وَسَلَّمَ تَسْليمًا كَثيرًا.



شرح المناجاة الشعبانية

أهمّيّة ذكر الصّلوات

تبدأ هذه المناجاة، كما يبدأ الدّعاء الذي يُتلى عند الزّوال في كلّ يوم من أيّام شهر شعبان، بالصلوات، وتتكرّر هذه الصّلوات مرّاتٍ عدّةً فيها. كما أنّ الإمام السجاد عليه السلام، وفي الكثير من أدعية الصحيفة السجادية، يكرّر الصلوات على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، على الرغم من أنّه هو نفسه من آل محمد.

إنّ الصلوات من الأهمية بمكانٍ بحيث جُعلت جزءًا من التشهّد في الصّلاة، وعدم الإتيان بها يوجب بطلانها. ومثلما قال الشافعي الذي يُعدّ من الأئمة الأربعة لأهل السنّة في قصيدةٍ له في مدح أهل البيت عليهم السلام:

«كَفاكُمْ من عَظيمِ الْقَدْرِ أَنَّكُمْ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لا صَلاة لَه»

الصلاة هي رابطةُ الإنسان مع ربّه، لكن يجب فيها الصلاة على النبيّ وآله، وهذا الحكم بوجوب الصلاة على محمّد وآل محمّد في تشهّد الصّلاة لا يختصّ بالشيعة بل هو محلّ اتّفاق الفريقَين.

نقاطٌ عدّةٌ بشأن ذكر الصلوات

وفي هذا المجال من الضروريّ أن نتعرّض لنقاطٍ عدّةٍ متعلّقةٍ بالصلوات:

النقطة الأولى

لقد ورد في آداب الدّعاء أن تُذكر الصّلاة على النبيّ وآله قبل الدعاء وبعده، من أجل

قبوله والاستجابة القطعيّة له. وقد عُلّل ذلك بأنّ الدعاء الذي يكون مسبوقًا بالصلاة على النبيّ وملحوقًا بها يُعدّ في الواقع ثلاثة أدعيةٍ، وذلك لأنّ معنى الصلوات هو طلب الرّحمة الخاصّة للنبيّ ﷺ وأهل بيته، ولا شكّ أنّ هاتين الصلاتين قبل الدعاء وبعده مستجابتان عند الله تعالى لأنّه لا يمكن أن لا يستجيب الله هذا الدّعاء الذي يُعدّ من أخلص الأدعية لأفضل العباد، وكذلك إنّ من فضل الله وكرمه أن لا يردّ دعاءً مسبوقًا وملحوقًا بدعاءَين مستجابَين[١]. فلا شكّ إذًا بأنّ مثل هذا الدّعاء مستجابٌ وأنّ الله سيعطي صاحبه مسألته بل ربّما يعطيه ما هو أفضل منها.

سؤال وجواب

والآن من الممكن أن يُطرح هذا السؤال وهو أنّ الصلوات في تشهدّ الصلاة لا تأتي قبل دعاءٍ ولا بعده، بل إنّ ما يسبقها هو الشهادتان (أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله) ويلحقها ثلاث تسليمات (السلام عليك أيّها النبيّ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته). وكذلك إنّ الصلوات التي جاءت بعد أمر الله تعالى: «إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» لا يوجد فيها أيّ نوعٍ من الدعاء أو الطلب. فما هي حكمة هذه الصلوات؟

والإجابة عن هذا السؤال تتطلّب ثلاث مقدّماتٍ:

١- حين ينجز الإنسان أيّ عملٍ بدافع الاختيار، فإنّه يكون ناظرًا إلى نتيجة أو هدفٍ ما من وراء فعله. بناءً عليه، إنّ كلّ دعاءٍ ندعوه يكون بقصد الإجابة.

٢- نحن لا نعلم فيما إذا كانت أدعيتنا الشخصية ذات مصلحةٍ أو منفعةٍ لنا، وإذا ما كانت ستُقبل في نهاية المطاف أو لا، لكنّنا نعلم أنّ الصلوات ستُستجاب حتمًا. بناءً عليه، فإنّ الإنسان العاقل حين يصرف وقته في الدّعاء فإنّه يفعل ذلك بيقينٍ منه أنّه سيُستجاب.

---

(١) هذا بالطبع في حال كان دعاء ذلك الإنسان متوفرًا على شروط الإجابة فلا يكون فيه مثلًا طلبٌ للمعصية أو ما هو خلاف المصلحة.

٣- حين نطلب الرّحمة للنبيّ ﷺ ولأهل بيته فإنّنا نقدم لهم هديةً، ونعلم أنّ جودهم وكرمهم يقتضيان أن يتقبّلوا هديتنا ولا يتركوها من دون إجابةٍ، وإنّ جوابهم هذا هو أن يدعوا لنا، ودعاؤهم سيكون مستجابًا حتمًا.

من غير المعلوم أنّه إذا دعَونا لأنفسنا أنّ دعاءنا سيُقبل، ولكن إذا دعَونا لهم فإنّ دعاءنا سيُستجاب حتمًا. وبحسب التعبير الفلسفيّ، فإنّ استعداد وقابلية القابل وكذلك إفاضة وفاعلية الفاعل تامّان، أي أنّ الفيّاضية الإلهيّة (الفاعليّة) مطلقةٌ وليست مقيّدةً أو مشروطةً، وكذا هي قابليّة النبيّ ﷺ وأهل بيته غير محدودةٍ في مجال إدراك الرّحمة. لذا فإنّ الاستعداد والقابلية أيضًا تامّان، وبالتالي لا يوجد أيّ مانعٍ أو نقصٍ يحول دون استجابة دعائنا (الصلوات). بناءً عليه، يحكم العقل أنّنا إذا كنّا بصدد تحقيق منفعتنا، وإن بصورةٍ ابتدائيةٍ (وبدون إدغام مطالبنا الشخصية بين الصلاتَين)، فعلينا أن نصلّي على هؤلاء العظماء.

النقطة الثانية

إنّ هذه الصلوات سترجع إلى الإنسان نفسه، وذلك لأنّنا نطلب الرّحمة للنبيّ ﷺ ولأهل بيته، ولأنّ وعاءهم الوجوديّ يفيض بالرّحمة الإلهيّة وليس بحاجةٍ إليها، فإنّ هذه الرّحمة تفيض على من هم تحت ولايتهم وتغمرهم. فإنّ ذلك تمامًا كالشخص الذي يملأ كوبًا بالماء، فلو أردنا منه أن يضيف إلى ذلك الماء ماءً، فإنّ ذلك الكوب سينضح بما فيه ويفيض على ما حوله. بناءً عليه، فإنّ صلوات كلّ من يصلّي على النبيّ وآله، سوف تعود بالبركة عليه وعلى غيره، وذلك بسبب فيضان الرّحمة الإلهيّة من الوعاء الوجوديّ للنبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، ولأجل ذلك نحن نقول في الأدعية: «اَللّٰهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، صَلاةً تَغْفِرُ بِها ذُنُوبَنا وَتُصْلِح بِها عُيُوبَنا»[1].

فنتيجة الصّلوات على النبيّ وأهل البيت الأطهار تعود علينا، هذا

(١) سيد ابن طاووس، **المراقبات**، الجزء ١، الصفحة ٧٦.

بالإضافة إلى إنّ هؤلاء العظماء سيدعون لنا مقابل هديتنا وسوف يفيدوننا من بركاتها.

وبعد الالتفات إلى هذه المسألة، يسهل علينا قبول بعض المفاهيم الواردة في زيارة «آل ياسين الكبيرة» حيث جاء «فما شيء منّا إلا وأنتم له السبب وإليه السبيل».

النقطة الثالثة

حين يريد الإنسان أن يطلب شيئًا ما من شخصٍ عظيم ولكنّه لا يرى في نفسه اللياقة، فإنّه بناءً على أصول علم النفس من الضروريّ أن يلفت نظر هذا الشخص العظيم إلى مطلوبه أوّلًا، ثمّ يعرض حاجته. وكمثالٍ على ذلك، فإنّه يُظهر المودّة والمحبّة لابنه أو لصديقه الحميم، ثمّ يهيّئ شيئًا فشيئًا المجال لعرض طلبه. ولا شك بأنّنا، وبسبب ذنوبنا وقبائحنا، لا نتمتّع باللياقة أو الاستحقاق لنطلب شيئًا من محضر الله العظيم المتعال، ومن جانبٍ آخر ليس لنا مهربٌ من مسألته ومطالبته، فإذًا يجب أن نحقّق تلك اللياقة وفرصة الطلب. ولأجل ذلك لا يوجد ما هو أفضل من أن نطلب الرّحمة لأولياء الله. إذًا حين نصلّي على أعزّ أولياء الله ونُظهر الأدب في محضرهم فإننا نحقّق اللياقة لجذب نظر الله وعنايته وطرح مطالبنا ومسائلنا.

وفي الحقيقة، ما يجعلنا نمتلك الجرأة على مخاطبة الله العظيم هي هذه الصلوات، وقبل أن نطلب شيئًا لأنفسنا نطلب الرّحمة لأولياء الله وأحبّائه؛ ونكون بذلك قد أظهرنا نوعًا من الإيثار في عالم المحبّة وتوجّهنا بلسانٍ خاصٍّ إلى أهل البيت عليهم السلام: «نحن وإن كنّا عين الاحتياج ويملؤنا الفقر، ولكن لأنّنا نحبّكم فإنّنا نطلب لكم الرحمة قبل أن نطلب لأنفسنا شيئًا».

صحيحٌ أنّ أهل البيت عليهم السلام ليسوا بحاجةٍ إلى دعائنا، ولكنّ عملنا هذا يشبه في الحقيقة عمل ذاك الفقير الجائع والمريض الذي يطرق باب شخص ويقول له: «أطال الله عمرك وسلّمك وبارك بك»، فهو يطلب له من الله تمامًا تلك الأشياء التي يملكها، وفي مقابل إظهار مثل هذه المحبّة وجلب

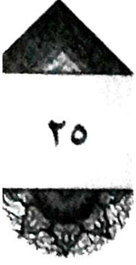


الانتباه، لا يمكن أن يكون جواب ذلك الشخص للفقير بأيّ حال من الأحوال: «إنّني سالمٌ»، لأنّه يعلم أنّ هذا الشخص لا يملك سوى هذا المقدار من الدعاء وهو يريد أن يقول له إذا لم تكن سالمًا فإنّني أسال الله أن يجعلك سالمًا، فليس لمثل هذا النوع من الأدعية تفسير عقليّ، بل هو فقط نوعٌ من إبراز العشق والمحبة.

ذكرى عن الحاج الميرزا علي الهستئي الأصفهاني

كان المجتهد الحكيم المرحوم الآغا الحاج الميرزا على الهستئي الأصفهاني من الوُعّاظ المشهورين، وكان يدرس كتاب **الأسفار الأربعة**. وحين كنت أذهب إلى طهران، كنت أتوجّه إلى مسجد الحاج السيّد عزيز الله لأحضر منبره، ولم أكن قد بلغت العشرين سنة آنذاك. وفي أحد الأيام طرحت عليه هذا السؤال: ما هي حاجة أهل البيت عليهم السلام لطلب الرحمة من قِبَلنا في الوقت الذي يتمتّعون فيه بكلّ أنواع الرحمة؟

فلاحظ أنّني ما زلت شابًا وليس لديّ ذاك المستوى والتأسيس العلميّ الكبير، فقام في البداية بتشجيعي، ثمّ قال لي بما يتطابق مع فهمي: «البستانيّ يعمل في بستان سيّده، ويزرع الزّهور في ذاك البستان الذي تكون فيه المياه والتربة وكلّ الأشياء لسيّده ويكون هو أيضًا لسيّده، ولكن حين تنمو هذه الأزهار وتتفتح وتبثّ الروائح العطرة في الأجواء، وحين يدخل سيّده إلى البستان، يقطف البستانيّ باقةً من الزهور ويقدّمها بكلّ أدبٍ واحترام إلى سيّده مرحّبًا به، ويحصل على الأجر في المقابل. فهذا نوعٌ من الأدب، مع أنّ البستانيّ نفسه وكلّ الزهور هي لهذا السيّد. فنحن أيضًا بهذه الصّلوات نقطف وردةً من بستانهم ونقدّمها هديّةً لهم». هذا المطلب ينطبق أيضًا على قولنا «وعجّل فرجهم» لأنّ حقيقة فرج أهل الإيمان في فرجهم.



وَاسْمَعْ دُعائي إِذا دَعَوْتُكَ، وَاسمَعْ نِدائي إِذا نادَيْتُكَ، وَأَقْبِلْ عَليَّ إِذا ناجَيْتُكَ

تبدأ هذه المناجاة بعد ذكر الصلوات بثلاث جملٍ متشابهة (الدعاء، النداء، والنجوى). وفي طيّات هذا الدعاء نطلب من الله أن يسمع دعاءنا ونداءنا ويُقبل علينا حين نناجيه. وهنا، يُطرح هذا السؤال، وهو أنّ الله الذي هو مع كلّ شيءٍ، ويسمع كلّ صوتٍ، ويرى كلّ الأشياء، حتّى من قبل أن يكون هناك معلومٌ ومسموعٌ ومُبصَر، فهل يمكن أن يكون هناك صوتٌ لا يسمعه حتّى نطلب نحن منه أن يسمع صوتنا ونداءنا؟

وجواب ذلك، ليس المقصود بالسماع ها هنا ذاك السماع الذي يُذكر بشأننا نحن البشر، حيث يطرق الصوت في البداية الأذن فتهتزّ طبلتها وتنتقل الذبذبات بواسطة الأعصاب إلى الدماغ، فتتهيّأ الأرضيّة لإدراك الروح أثناء تعلّقها بعالم المادة، وما لم تكن الأذن، والهواء الذي ينتقل عبره الصوت، وطبلة الأذن في حالةٍ سليمةٍ، فإنّه لن يتحقّق السماع. فلعلّ المقصود هنا من السماع هو الإجابة، كما يُقال في الحوارات العرفية: «لقد سمع ذاك الشخص الفلانيّ كلامي»، ونقصد أنّه رتّب الأثر عليه لا أنّ صوتنا قد وصل إلى أذنه.

ولعلّ المقصود من السّماع هو تلك العناية الخاصّة، مثلما يحدث حين نتحدّث مع إنسانٍ ما، فبالإضافة إلى وصول الصوت إلى أذنه، فإنّه يتوجّه إلينا بشكلٍ خاصٍّ، وهذا التوجّه الخاصّ هو غير الفعل والانفعالات الماديّة التي تحصل جرّاء اصطدام الصوت بالأذن.

وعلى أيّ حال فالمقصود من سماع الله هو عنايته الخاصّة، أو بمعنى

الإجابة وترتيب الأثر على الشيء الذي نطلبه منه. هذا وإن كان المعنى الثاني بقرينة: «واقبل عليّ إذا ناجيتك»، يرجع إلى ذاك المعنى الأوّل.

إنّ حكايتنا عن قصد مناجاة الله وانتظار الإجابة منه تعالى وابتغاء تحقيق حالة الأنس معه، تشبه تلك الذّبابة التي تثير الضجيج في الأجواء، ولأنها تطلب من الإنسان أن يلتفت إلى صوتها وضجيجها وهي لا تمتلك بطبعها اللياقة اللازمة لكي يتوجّه الإنسان إليها، لأنّ عليها أن تتحدّث مع الذباب أمثالها. فحديث الإنسان مع الله يشبه حديث الذبابة مع الإنسان. ولأجل ذلك، فإنّ الإنسان الذي يتمتّع بالمعرفة يبدأ أوّلًا بالطلب من الله أن يسمع دعاءه ونداءه ونجواه، فعليه أن يطمئنّ في البداية أنّ كلامه سوف يقع موقع ويُسمع، ثم يبدأ كلامه وطلباته، ولكن إذا قيل له «اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» وأصبح مشمولًا بـ «لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ» وأسوأ من ذلك «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ»، فإنّه لا يبقى هناك أيّ مجالٍ للحديث والكلام والدعاء والنداء والنجوى.

الفرق بين الدعاء والنداء والنجوى

يقول أهل اللغة إنّ هناك اختلافًا بين هذه المفردات الثلاث، وذاك على النحو التالي: إنّ للدّعاء مفهومًا عامًّا ومعنًى واسعًا، بمعنى أنّه لو أراد شخص أن ينادي شخصًا بأيّ لغةٍ أو كيفيّة كانت، كان ذلك من بُعد أو من قرب، أو بصوتٍ مرتفعٍ أو منخفضٍ، وكان ذاك الشخص من المعارف أو أجنبيًّا، فإنّه يُطلق على جميع هذه النداءات كلمة «الدعاء».

أمّا «النداء» فيُطلق على الصوت المرتفع والصّراخ، سواء كان الشخص قريبًا من الطرف المقابل أو بعيدًا، فهو لا يصرخ بهدف إيصال صوته إلى مسامع الطّرف الآخر، بل بدوافع أخرى كالهدوء أو التنفيس الروحيّ وأمثال ذلك.

أمّا النجوى فهي بمعنى التكلّم الخاصّ مع إنسانٍ آخر لا يسمعه غيره. فالنجوى كلامٌ بين اثنَين لا يمكن لشخصٍ ثالثٍ سماعه. فقد تكون المناجاة من الإنسان وقد تكون من الله، مثلما قال أمير المؤمنين عليه السلام بشأن بعض

الأشخاص «ناجاهُمْ في فِكْرِهِمْ وَكَلَّمَهُم في ذاتِ عُقُوْلِهِمْ»[١]. ويقول الله تعالى أيضًا في حديثٍ قدسيٍّ: «حين لا يكون لعبدي مقصدٌ آخر إلّا رضاي فإنّني أحبّه وأناجيه في ظلم الليالي وخلوة النهار»[٢].

أي أنّ العبد يتكلّم بطريقةٍ يُفهم معها أنّ الله يكلّمه، ولكن في الوقت نفسه لا يلتفت أيّ إنسانٍ إلى وجود هذه الرابطة. فمثل هذا الارتباط والتواصل يُسمّى مناجاة الربّ لعبده.

النقطة الملفتة هنا، أنّه في المقطع الثالث من الدّعاء لا يطرح «واسمع نجواي» أو «واسمع مناجاتي» بل يقول بنحوٍ مغايرٍ للمقطعَين السابقَين: «واقبل عليّ إذا ناجيتك». وسبب ذلك أنّنا أثناء المناجاة والكلام الخاصّ نحتاج إلى أن نتوجّه إلى الطرف المقابل بنحوٍ كاملٍ، وإلّا لما تحقّق الغرض من المناجاة. ويمكن القول إنّ ما له موضوعيّة في المناجاة هو الكلام الذي يكون خاصًّا فقط، أمّا المحتوى فليس له تلك الأهميّة؛ وبعبارةٍ أخرى، إنّ مخاطبة المحبوب والأنس به هو أمرٌ مهمٌّ، فإذا لم يعتنِ المحبوب وأعرض فسوف يحصل نقيض الغرض.

إنّ الله سوف يسمع كلام الإنسان شاء أم أبى، ولكن ما هو مطلوبٌ بالنسبة له هو الاستماع والاعتناء واستجابة الطلبات من جانب الله لاحقًا. كما نلاحظ في بعض المناجاة أنّها لا تتضمّن أيّ طلبٍ أصلًا. على سبيل المثال، حين يقول الإنسان: «لو أنّك أدخلتني النار ألف مرّةٍ وأحرقتني، لما خرج حبّك من قلبي»، فهنا لا يعرض أيّ طلبٍ أو حاجةٍ بل إنّ الأمر هنا مجرّد معاشقةٍ، وهو يحب أن يسمع الله كلامه ويعتني به، فمن بين هذه المعاني الثلاثة

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢.

(٢) حديث المعراج. «فَمَنْ عَمِلَ بِرِضَائِي أُلْزِمُهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ أُعَرِّفُهُ شُكْرًا لَا يُخَالِطُهُ الْجَهْلُ وَذِكْرًا لَا يُخَالِطُهُ النِّسْيَانُ وَمَحَبَّةً لَا يُؤْثِرُ عَلَى مَحَبَّتِي مَحَبَّةَ الْمَخْلُوقِينَ فَإِذَا أَحَبَّنِي أَحْبَبْتُهُ وَأَفْتَحُ عَيْنَ قَلْبِهِ إِلَى جَلَالِي فَلَا أُخْفِي عَلَيْهِ خَاصَّةَ خَلْقِي فَأُنَاجِيهِ فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ وَنُورِ النَّهَارِ حَتَّى يَنْقَطِعَ حَدِيثُهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَمُجَالَسَتُهُ مَعَهُمْ وَأُسْمِعُهُ كَلَامِي وَكَلَامَ مَلَائِكَتِي وَ عَرِّفُهُ السِّرَّ الَّذِي سَتَرْتُهُ عَنْ خَلْقِي.» [**إرشاد القلوب**، الجزء ١، الصفحة ٢٠٤].

المذكورة بشأن السمع (السماع) أي العلم والتوجّه وترتيب الأثر، فإنّ المعنى الثاني أي التوجّه والعناية هو الأنسب.

بناءً عليه، إنّ ابتداء المناجاة الشعبانيّة وغيرها من المناجاة بهذا النحو من الدّعاء هو في الحقيقة نهجٌ عمليٌّ للعباد حول كيفيّة تطبيق آداب الدعاء ورعايته وتحقيق الاستعداد اللازم للمناجاة والكلام مع ربّ العالمين والطلب منه أن يمنّ عليهم ويتوجّه إلى مسألتهم. ذاك لأنّ الذنوب لم تترك لهم ماء وجهٍ وستكون مانعًا من توجّه الله إليهم. مثلما نطلب من الله في أحد الأدعية: «اللّهُمَّ إنْ كانَتْ ذُنُوبي قَدْ أَخْلَقَتْ وَجْهي عِنْدَكَ وَحَجَبَتْ دُعائي عَنْكَ وحالَتْ بَيْني وَبَيْنَكَ... وَإنْ كانَتْ قَدْ مَنَعَتْ أَنْ تَرْفَعَ لي إلَيْكَ صَوْتًا... فَها أنَا ذا مُسْتَجيرٌ بِكَرَمِ وَجْهِكَ وَعِزِّ جَلالِكَ مُتَوَسِّلٌ إلَيْكَ مُتَقَرِّبٌ إلَيْكَ بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إلَيْكَ وَأَكْرَمِهِمْ عَلَيْكَ وَأَوْلاهُمْ بِكَ...»[١].

ونُذكّر أيضًا بأنّنا لا نمتلك حتّى قابلية هذا الاستغفار، فعلينا أن نتوسّل بأولياء الله ليصبح استغفارنا قابلًا لأن يُسمع.

بناءً عليه، فإنّ بدء المناجاة بالصلوات يُعطي هذا المعنى، وهو أنّ طلب العفو عن الذنوب هو أيضًا ممّا يتطلّب اللياقة اللازمة. وبذكر اسم محبوب الربّ المتعال نُضفي على أنفسنا هذه اللياقة عسى أن يقبل الله استغفارنا. إنّ هذا النحو من التأدّب في الدّعاء يساعد على المزيد من حضور القلب ويرفع من قيمة دعاء الإنسان. فلو أنّ شخصًا قدّم باقةً من الورود الجميلة لشخص آخر لكنّه وضعها في زاوية، فإنّه يكون قد قلّل من قيمتها، أمّا لو وقف بتواضع ورفع يديه وقدّم هذه الباقة بأدب، وبينما هو كذلك، قال: «إنّ الورقة الخضراء هي هدية المسكين»، وغيرها من العبارات المشابهة، فإنّ هديته سوف تزداد قيمةً. وإلا فإنّ الورود كثيرةٌ في البساتين والسوق وشراءها سهل. وحين لا نعرف كيف نُظهر الأدب فإنّ أولياء الله يتصدّون لتعليمنا ذلك، فلا نكون بحاجةٍ لاختراع عباراتٍ من أذهاننا بل كل ما علينا فعله هو أن نفكّر في

---

(١) مفاتيح الجنان، الدعاء بعد الزيارة الجامعة.





مضامين تلك العبارات ثم نذكر ما علّمونا إياه في محضر الله مع رعاية الأدب التامّ.

لو تصوّر الإنسان أنّ الله لا يعتني به ولا يلتفت إلى كلامه فإنّ باب المناجاة والدعاء لن يُفتح أبدًا. لأجل ذلك فإنّنا نتضرّع طالبين من الله أن يسمع كلامنا وينظر إلينا.

وكأنّ للإنسان أعداء يهدّدونه وهو يريد أن يفرّ من قبضتهم ويتحرّك بسرعة بالاتّجاه المقابل لحركة هؤلاء الأعداء.

والآن يجب أن نرى من هم أعداؤنا الذين ينبغي أن نفرّ إلى الله من قبضتهم. لا شك بأنّ الله ليس بجسمٍ حتّى نجعله في حيّزٍ ونجعل العدوّ في الطّرف الآخر، فهذا فرارٌ روحيّ وقلبيّ ومعنويّ. فالجهة المقابلة لله هي الجهة النزولية والفرار منها يعني الحركة الصعودية. هناك عوامل تريد لنا أن ننجذب إلى الجهة المخالفة لربّ العالمين وتُسقطنا إلى الأسفل. لهذا ينبغي لنا بذل الطاقة من أجل أن نفرّ من القوى المخالفة إلى فضاءٍ آخر ونتّجه نحو الله، تمامًا مثل الصواريخ التي تفرّ من جاذبية الأرض[١].

بالطبع، في كلّ مرحلة، تزداد العوائق وتتمتّع بجاذبيّة أعلى، تمامًا مثل التلامذة الذين يواجهون المزيد من الامتحانات الصعبة والمعقّدة مع كل مرحلةٍ دراسية، فنحن في المرحلة الأولى نواجه واجبات ومحرّمات يصبح

---

(١) وقد جاء مثل هذه التشبيهات في القرآن الكريم، حين يقول تعالى: ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾، فهو يجسّد لنا ساحةً تشبه البادية الوسيعة ليس فيها طرقات محددة، وهناك عوامل تريد أن تجعل الإنسان حائرًا ضائعًا في هذه البادية. بالطبع لهذا الشخص أصدقاء يدعونه إليهم، ولكن لأنّه بقي أسير قبضة هذه العوامل يعجز عن إجابة دعوة أصدقائه. وفي تشبيهٍ آخر يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾. أي أنّ الذي يشرك هو كذاك الذي يصعد إلى السماء ثم يسقط منها وتأتي الطيور الجارحة لتمسكه وتمزقه إربًا أو تأتي ريحٌ عاصف وترمي به في مستنقعٍ بعيد لا يجد فيه طريق النجاة، فمثل هذه التشبيهات القرآنية تؤيد ذاك السير النزولي.

تشخيصها في المرحلة اللاحقة أصعب، وهكذا تزداد صعوبة مع كلّ مرحلة إلى أن يصل الإنسان إلى حيث لا يتمكّن من التمييز بين الواجب والحرام أو يتردّد فيما إذا كان العمل الفلانيّ واجبًا أو محرّمًا، تمامًا كما يحصل للتلميذ في الصفّ الأوّل ابتدائيّ، حيث يكون الامتحان بسيطًا. أمّا الطالب الجامعيّ فسيواجه في المرحلة الأخيرة معادلاتٍ رياضيةً معقّدةً. بالنسبة للناس هناك مراتب ومراحل وامتحانات مختلفة يحتاجون للنجاح فيها إلى معرفة الكتاب والسنّة.

ذكرى عن المرحوم الشيخ محمد تقي الآملي

ذهب أحد الأصدقاء، الذين استشهدوا في انفجار حزب الجمهورية الاسلامية في السابع من شهر تير، لزيارة المرحوم الشيخ محمد تقي الآملي في طهران، وطلب منه أن يرشده إلى طريق تهذيب النفس وطيّ المدارج المعنوية، فأجابه قائلًا: إنّ ما تقوله وتطلبه يُشبه اقتلاع جبلٍ برموش العين، فإذا كان لديك مثل هذا الاستعداد والهمّة فاسلك هذا الطريق. إنّ سلوك هذا الطريق يُشبه تسلّق جبلٍ، وهناك أشخاصٌ عدّةٌ يشدّون الإنسان المتسلّق باستمرار إلى الأسفل، وعليه أن يبذل همةً كبيرةً لتخليص نفسه من قبضتهم وإكمال التسلّق. فهؤلاء الأشخاص هم كالشياطين الذين يبعدوننا دائمًا عن الله، وقد يتّخذون هيئاتٍ مختلفةً. فعلى سبيل المثال، قد يكون هؤلاء في هيئة أهل العلم والزهد أو في هيئاتٍ مخادعةٍ، فيجرّون الإنسان إلى الحيرة والضلالة من دون أن يلتفت، لا بل يمكن أن يكون مسرورًا لأنّه يتبع ذاك العالم أو الزاهد بالرغم من أنّه يُسقطه في وادي الفناء.

مكاشفة المرحوم الشّيخ الأنصاري

كان الشّيخ الأنصاري بلحاظ الجهد والتقوى قد قلّ نظيره، وللأسف ليس لدينا اطّلاعٌ وافٍ على مقاماته المعنويّة، فنحن نعرفه فقط كمؤلّف لكتبٍ عديدةٍ مثل **المكاسب** و**الرّسائل**. من الجيّد للأساتذة حين يدرّسون هذا النّوع من



الكتب أن يتحدّثوا لتلامذتهم عن المقامات الروحيّة والمعنويّة لمؤلّفيها ليُطلعوهم على عظمة هؤلاء أكثر. وعلى أيّ حال، كانت مقامات الشيخ الأنصاري على درجةٍ رفيعةٍ، وحين وصل إلى المرجعية والزّعامة التامّة صارت الوجوهات الشرعيّة تصله بكثرةٍ. وصادف أن كانت زوجته حاملًا وقد اقترب موعد ولادتها، فاقترحت عليه نسوة الجيران أن يؤمّن مقدارًا من الزيت لكي تستعمله زوجته بعد الولادة (لأنّها ستحتاج إليه بشدة).

فأخذ الشيخ الأنصاري تومانًا واحدًا من الوجوهات الشرعية ليشتريَ الزّيت لزوجته، ولكن عاد وفكّر أنّه لو كانت زوجة أحد طلّاب العلوم الدينية تريد أن تلد في مدينة النجف، فهل سيكون لديه هذا التومان ليشتري لها الزيت؟ فرجع وهو يفكّر في هذه القضية وأعاد المال إلى مكانه. في تلك الليلة شاهد أحد أهل المكاشفة في عالم الرؤيا أنّ شيطانًا كان قد أعدّ حبلًا قويًا ومتينًا وملوّنًا، فسأله: ما هذا؟ فقال الشيطان في جوابه: إنّها حبالٌ قد أعددتها للناس لكي أصطاد بها كلّ أحدٍ وأجرّه بها بحسب شهوته ورئاسته ومقامه وماله و...

وفي تلك الرؤية يقع نظره على حبلٍ في غاية الضخامة والإحكام وقد تمزّق، فسأل الشيطان: ما هذا الشيء؟ ولمن كان؟ فتأوّه الشيطان وقال: بقيت لمدّة تسعة أشهر وأنا أنسج هذا الحبل وأعدّه لكي أضعه في رقبة الشيخ الأنصاري، ولكنّه قام بتمزيقه بحركةٍ واحدةٍ وأهدر كلّ تعبي على مدى تلك الأشهر.

وحين استفاق ذلك الشخص من حالة الكشف أو الرؤيا ذهب إلى الشيخ وذكر له ما شاهد، فبكى الشيخ الأنصاري ثمّ ذكر له قصّة ذاك التومان (والذي كان في ذلك الوقت له قيمةٌ كبيرةٌ)، ثمّ شكر الله تعالى على هذا التوفيق.

على أيّ حالٍ، سيكون لدينا أعداءٌ كُثر قد أعدّوا لنا أنواعًا عديدة من الأفخاخ. ها هم الأنبياء عليهم السلام يلفتون أنظارنا ويقولون لنا: «آخِرُ ما يَخْرُجُ مِنْ

رُؤُوسِ الصِّدّيقينَ حُبُّ الرِّياسَةِ»[١]، ذلك لأنّ الإنسان يحبّ أن يكون محترمًا بين الناس وأن تنتشر صوره وأن ينال العناوين والألقاب الاجتماعيّة؛ لهذا، يجب عليه أن يخلّص نفسه من كلّ هذه الإغراءات ويفرّ إلى الله من قبضتها. وسرعة هذا الفرار وشدّته تكونان تبعًا لقدرة ذلك العدوّ الذي يريد أن يجرّنا إليه، مثلما قيل في علم النفس: للإنسان طاقاتٌ خفيةٌ، وما لم يشعر بالخطر لا يفعلّها ولا يستخدمها، وقد يكون غافلًا عنها، ولكن حين يصبح مطاردًا من قبل العدوّ اللدود فإنّه سوف يبذل كلّ طاقته من أجل الفرار من قبضته.

أنواع الأعداء

نقول في هذه المناجاة بحضور قلب: «اللهمّ إنّي أفرّ إليك من العدوّ اللدود والمقتدر ولو لم أفرّ فإنّ هذا العدوّ سيتغلّب عليّ ويسلبني السعادة». فنحن دائمًا في معرض خطر الأعداء، الذين لن يتركونا وهم يريدون إبعادنا عن الله. وهؤلاء الأعداء هم:

١- النفس

وطبق روايةٍ منقولة عن الرسول ﷺ: «أَعْدى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»[٢]. فألدّ الأعداء هو تلك الرغبات الشيطانيّة والشهوانيّة الموجودة في النفس، والتي يؤدّي الانشغال بها إلى الابتعاد عن مقام القرب الإلهيّ، أي بالإضافة إلى الذنوب الكبيرة والأعمال المحرّمة فإنّ الرغبات النفسانية الحلال قد تكون مانعًا من الكمال أو بالحدّ الأدنى سببًا لتوقّفه وجموده.

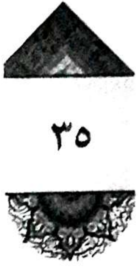
ذكرى مفيدة

كنت قد تزوّجت حديثًا حين جاء أحد الأعاظم لزيارتي تحت عنوان تفقّد

---

(١) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، الجزء ٢٢، الصفحة ١٨١.

(٢) **بحار الأنوار**، الجزء ٦٧، الصفحة ٣٦.



تلميذه الصغير، فأحضرت له الحلوى، فتناول شيئًا منها وقال لي: «إنّ هذه الحلوى مثل الحجر الذي علق بقدم طائر يمنعه من التحليق». أراد أن يفهمني أنّ الامور الحلال قد تكون أحيانًا مانعًا من الوصول إلى الكمالات الأعلى والأسمى، وقد تمنع اللذات الدنيوية الحلال هذا الإنسان من السير والحركة، فما بالك بالحرام والمعصية التي تُسقط الإنسان في قعر جهنّم؟

فالشباب في عنفوان شبابهم، الذين لم تترسّخ فيهم الصّفات القبيحة، عليهم أن يسعوا بواسطة التّمرين والرّياضة لمخالفة رغباتهم القلبيّة، وإن كانت حلالًا، وأن يروّضوا أنفسهم من خلال المستحبات (أو من خلال الواجبات التي أضحت كثيرةً في زماننا هذا، بحيث لا يصل الدور إلى المستحبات). فما دام الشباب في هذا العمر عليهم طبق إرشادات الإمام قدس سره أن يدركوا قيمة الشباب حيث يمكنهم القيام بالكثير من الأعمال بإرادتهم.

٢- شيطان الجنّ

على أساس الآية الشريفة التي تنقل مقولة إبليس وخطابه لله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١]، فهذا الشيطان قد أقسم قَسَمًا عظيمًا - وأصبح مثل هذا الأمر يُحكى من باب ضرب المثل أيضًا - بأنّه سيضل جميع بني آدم ويغويهم.

٣- مواليد الشيطان

على أساس الآية الشريفة ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾[٢]، فإنّ مواليد الشيطان وأتباعه هم من أعدائنا المتمترسين في مواقعهم وهم ينظرون إلينا ويروننا ولكنّنا نحن لا نراهم ولا ندرك من أين يرموننا بسهامهم حتّى نتجنبها ونفكّر بحلٍّ أو نردّ عليهم بالشكل المناسب.

---

(١) سورة **ص**، الآية ٨٢.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٢٧.

٤- شياطين الإنس

على أساس الآية الشريفة ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾[١]، فإنّ للشيطان الجنّيّ تلامذة من أبناء آدم يقوم بإعدادهم وهم لا يقلّون خطرًا عنه، لا بل قد يتفوّقون عليه في وسوستهم للنّاس، لأجل ذلك أمرنا في سورة الناس بالاستعاذة منهم. كما قال تعالى ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ [...] مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[٢]. لأجل ذلك يكون عذاب بعض شياطين الإنس أشدّ من عذاب شياطين الجنّ.

فشياطين الجنّ والإنس وأبناء الشيطان والنّفس الإنسانيّة كلّهم أعداءٌ ألدّاء يلاحقوننا من الدّاخل والخارج ويوسوسون لنا بصورٍ مختلفةٍ وحيلٍ متنوّعةٍ. فعلينا أن نلتفت دائمًا ونحذر من أن نُصبح عرضةً لسهامهم. وكلّما هيّأوا مجالًا للمعصية علينا أن نلتفت لذلك، كذاك التاجر الذي يصبح في لحظةٍ ما، هو وكلّ ما يملك في مواجهة سارقٍ وسط الصحراء، فعليه أن يفرّ بأقصى سرعةٍ. ونحن أيضًا علينا أن نفرّ إلى الله من شرّ هؤلاء الأعداء.

بناءً عليه، من الضروريّ أن نلتفت إلى أمورٍ عدّةٍ:

١- لدينا أعداء يلاحقوننا بشكلٍ دائمٍ ويريدون أن يسلبونا ذخائرنا الإيمانيّة والمعرفيّة.

٢- لا يمكننا أن ننجو من هؤلاء الأعداء بأنفسنا، ولأجل ذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إلهي قَلْبي مَحْجُوبٌ وَنَفْسي مَعْيُوبٌ وَعَقْلي مَغْلوُبٌ وَهَوائي غالِبٌ»[٣].

٣- علينا أن نفرّ من قبضة هؤلاء الأعداء إلى من يحفظنا من شرّ أنفسنا ومن شرّ شياطين الجنّ وشياطين الإنس.

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١١٢.

(٢) سورة **الناس**، الآيات ١ و٦.

(٣) **بحار الأنوار**، الجزء ٨٤، الصفحة ٣٤١.





٤- إنّ الفرار يعني انطلاق القلب وانفصاله عن الأهواء، وإلّا فإنّ أنفسنا دائمًا معنا ولا معنى للفرار منها، فإنّ الله موجودٌ في كلّ مكانٍ وليس موجودًا في مكانٍ خاصّ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١١٥.





وَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيكَ، مُسْتَكيناً لَكَ مُتَضرِّعًا إِلَيْكَ، راجِيًا لِما لَدَيْكَ ثَوابي

وحيث إنّنا فررنا من مخالب الذئاب المفترسة في صحراء الحياة ولجأنا إلى حصن الله الحصين، علينا أن نقابل الآن صاحب هذا الحصن والمأوى.
«بين يديك» هو تعبيرٌ عربيٌّ له جذورٌ في العلاقات الإنسانيّة، فمن الممكن للإنسان أن يقف في محضر شخصٍ ما بأنحاءٍ عدّةٍ:

الأوّل: أن يكون في الجانب الأيمن.

الثاني: أن يكون في الجانب الأيسر.

الثالث: أن يكون في مقابله تمامًا.

ولا يكون مواجهًا له بشكلٍ تامٍّ إلّا في الحالة الثالثة. ونعبّر في اللغة العربية عن هذه الحالة بقولنا «بين يديه»، فحين نكون في مقابلةٍ تامّةٍ مع ربّنا علينا أن نكون في حالة انتباهٍ تامٍّ وتوجّهٍ إليه لكي نتمكّن من الوصول إلى حالة الضّراعة والمسألة والاحتياج في مناجاتنا. إنّ هذه الحالة من التسليم إنّما يعيشها من لا يجد لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، مثل ذاك الذي أسقط في يده وخسر كلّ ثروته، أو ذاك المريض الذي يكون في حالة نزع الروح ولا يوجد لديه أيّ اختيارٍ أو إرادةٍ من نفسه، فهذه هي حالة الانكسار والتواضع والتضرّع.

ذكر علماء النفس منذ القِدم أنّ في الإنسان أحوالًا متنوّعةً من السّرور والغمّ والضّحك والبكاء والخوف والوحشة، ولكلٍّ من هذه الحالات دوره ووظيفته. فهذه الأمور لم توجد في الإنسان عبثًا. ففي بعض الأحيان يجب أن

يضحك لكي يحصل على الصحّة والسّرور، وأحيانًا أخرى عليه أن يبكي حتّى يستجيب لمشاعره وعواطفه، وأخرى عليه أن يغضب، وفي بعض الأحيان عليه أن يحزن، وأحيانًا يصبح مسرورًا ويذرف دموع الشوق.

يقول الله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1]. وقد نزلت هذه الآية في بعض الرّهبان. أو ما حصل لشعيب النبيّ الذي بكى طويلًا شوقًا للقاء الله. ففي محضر الله القادر المطلق الذي ليس لنا عليه حقّ بل قد عصيناه يجب علينا أن نعرض مطالبنا بالبكاء والضراعة مع الأمل والرجاء بالثواب الإلهيّ. بناءً عليه، يُشير المناجي في هذا الدّعاء إلى حيثيّتَين في وجوده:

١- أنّه في وضعٍ قد فرّ فيه من الأعداء.

٢- أنّه الآن في موقع يقف بمنتهى التضرّع والانقطاع عن نفسه.

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٨٣.

وَتَعْلَمُ ما في نَفْسي، وَتَخْبُرُ حاجَتي، وَتَعرِفُ ضَميري، وَلا يَخْفى عَلَيْكَ أَمْرُ مُنْقَلَبي وَمَثْواي، وَما أُريدُ أَنْ أُبْدِئَ بِهِ مِنْ مَنْطِقي، وأَتَفَوَّهُ بِهِ مِنْ طَلِبَتي، وَأَرْجُوهُ لِعاقِبَتي، وَقَدْ جَرَتْ مَقاديرُكَ عَلَيَّ يا سَيِّدي في ما يَكُونُ مِنّي إِلى آخِرِ عُمْري، مِنْ سَريرَتي وَعَلانِيَتي، وَبِيَدِكَ لا بِيَدِ غَيْرِكَ زِيادَتي وَنَقْصي وَنَفْعي وَضَرّي

يجب على الإنسان في حال المناجاة أن يرى نفسه ونقائصه وضعفه من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى أن يرى صفات الله الذي يقف بين يديه. وفي هذا المقطع من المناجاة الشعبانيّة تمّت الإشارة إلى صفات الله، وهي عبارة عن:

١- العلم الإلهيّ بحال الإنسان وأوضاعه

إنّ أولى صفات الله التي أشير إليها في هذا المقطع هي العلم والإحاطة الواسعة والشاملة بالإنسان. فلا يمكن للإنسان اللجوء إلى من ليس لديه معرفةٌ به ولا علم له بأوضاعه أو إلى من يُحتمل أن يخدعه، فيقوم بمناجاته. يمكن عرض العلم الإلهيّ بعباراتٍ عدّةٍ:

أ- «**تعلم ما في نفسي**»: الإنسان الذي يعلم بأنّ الله مطّلعٌ على جميع أبعاد وجوده، لا يمكنه أن يتلاعب معه مثلما يتلاعب مع الناس الآخرين،

ولا يمكنه أن يكذب عليه، بل يجب أن يقف بين يديّ الله بكل صدقٍ لأنّ الله مطلّعٌ على جميع أسرار وجوده ولا يخفى عليه شيءٌ ولا يمكن خداعه أو الكذب عليه.

ب- **«تخبر حاجتي»**: اللهمّ أنت أعلم بحاجتي منّي. فقد يغفل الإنسان عن حاجاته، وقد يُدرك حاجاته فقط تحت ضغط مجموعةٍ من العوامل التي تنشأ من الغريزة الحيوانية من قبيل الجوع والعطش والبرد والحرّ والشهوة و... ويعلم أنّ الغذاء والماء ووسائل التدفئة والتبريد والزوج والمسكن هي مطلبه، ولكن قد يكون لديه آلاف الحاجات الأخرى التي يكون غافلًا عنها تمامًا وتتكشّف له حينًا بعد آخر.

قد تكون بعض حاجاتنا الباطنية مغلّفةً وقد تكون معقّدةً إلى درجة أنّها تخفى علينا. يمكن للإنسان أن يرغب أحيانًا بالقيام بعملٍ ما، لكنّه لا يعلم الدّافع أو السّبب وراء ذلك. فعلى سبيل المثال، قد يكون الدافع وراء الكثير من تصرّفاته عقدة الحقارة أو الحسد أو الرّياء، وإن كانت تظهر بصورة الإحسان أو اكتشاف الحقيقة أو تحصيل الثواب. ولو قام أحدٌ بتنبيهه لذلك فإنّه لا يُصدّق بل ربّما يتّهمه بسوء الظنّ. هذا هو الشيء الذي يُعرض في علم النفس تحت عنوان الشعور اللاواعي أو شبه الواعي في مقابل الشعور الواعي (الشعور واللاشعور).

إنّ الله مطلّعٌ على أعماق أرواحنا، وإن كنّا نحن لا نُدرك حتّى الطبقة الأولى منها. فقد نطلب أشياء لم نجرّبها أو نرها أو نسمع بها أو ندرك آثارها من قبل، في حين أنّ الله يعلم كلّ هذه الحاجات.

ج - **«وتعرف ضميري»**: إنّك يا الله تعرف باطني أكثر منّي، أي أنّ في باطني وفي قلبي رغباتٍ أنا نفسي غافلٌ عنها، أمّا أنت فتعرفها جيدًا.

د - **«ولا يخفى عليك أمر منقلبي ومثواي»**[1]: فأنت يا الله لست مطّلعًا

---

(١) المنقلب هو تلك النقطة التي تنتهي إليها الانقلابات والتحوّلات. والمثوى هو المقر الأبدي والاقامة الثابتة.

على ما هو حاصل فحسب، بل تعلم مستقبلي وتحوّلاتي وخاتمتي وعاقبة أمري، ذلك لأنّ أحوالي تتغيّر كلّ يوم، لكنّها في نهاية المطاف ستصل إلى خطّ النّهاية، وسأقيم حينها في مقرٍّ ثابتٍ وأتوقّف عن الحركة. بناءً عليه، نحن لا نقف بين يدَي من يعلم ما نحن عليه الآن وما يجري في أعماق قلوبنا في الحاضر فحسب، بل بين يدَي من يعلم مستقبلنا إلى الأبد وما سيكون عليه مصيرنا النهائيّ[1].

(١) لقد ذكرنا مرات عدّة أنّ الله تعالى يؤكّد على أنّ كل الظواهر مرتبطةٌ به، وفي الوقت نفسه فإنّه لا ينفي الأسباب الظاهريّة والوسائط. فعلى سبيل المثال الشمس تشعّ وتتبخّر مياه البحار، وتتحوّل إلى سحاب وتتحرّك هذه الغيوم بسبب تحوّلات الهواء على صعيد البرد والحرّ، وتتبدّل إلى مياه وتهطل الأمطار، ومثل هذه العوامل ليست من اكتشافات العصر الحديث للعلم فحسب، بل كانت معروفةً وواضحةً بالنسبة للماضين. ولكنّ الله تعالى في القرآن الكريم، قد نسب كل مرحلةٍ من مراحل تشكّل الأمطار إلى نفسه وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ (الحجر، ٢٢)، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ (الأنعام، ٩٩)، ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ (الأعراف، ٥٧)، ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ (الأنعام، ٩٥)، وهذا الأمر لا ينحصر في الأمور الطبيعية بل يشمل أفعال البشر. ففي الوقت الذي لا ينفي فاعلية الإنسان، ينسبها إلى ذاته، وهذا ما يُطرح تحت عنوان التوحيد الأفعالي في الأبحاث الكلامية. وإبراهيم عليه السلام الذي هو أعظم رجال التوحيد وضمن مجموعة من المسائل يُشير إلى هذا الموضوع ويقول: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء، ٧٩-٨٠). والنقطة الملفتة هنا أنّه لا يقول إنّ الله يضع لي الماء في وعاءٍ ويقدّمه لي، بل يقول ما هو أهمّ وهو أنّ الله يسقيه ويطعمه. ويقول الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ (الواقعة،٦٤)، فمهارتكم تكمن فقط في أنكم تستخدمون عشرات الوسائل والأدوات والتي جعلها الله تعالى بين أيديكم لتضعوا الحبّ تحت التراب وتسقوه بالماء وتضعون له بعض المواد، أمّا نموّه وزيادته وتحوّله إلى طعامٍ وغذاء فهي أمر الله. وقد جاء في الروايات أنّ كلّ ظاهرةٍ تحدث في عالم الوجود يجب أن تمرّ بمراحل عدّة: علم الله، إذن الله، مشيئة الله، إرادة الله، والقضاء والقدر والإمضاء (ولكلٍ من هذه الكلمات معانيها الخاصة. يمكن أن نلتفت إلى الفوارق بينها من خلال التأمل والتدقيق). وهذه المراحل السبعة يمكن اختصارها في جملةٍ واحدة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس، ٨٢) وقد نسب الله تعالى المراحل المتعدّدة للفعل الاختياري مثل الإيمان إلى نفسه، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (يونس، ١٠٠). كما إنّه نسب أفعال الناس غير الاختيارية مثل الموت إلى ذاته وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران، ١٤٥).

هـ - «وما أريد أن أبدئ به من منطقي وأتفوّه به من طلبتي».

و- «وأرجوه لعاقبتي»: فأنت تعلم ما أرجوه لنهاية أموري.

هذه الأمور ترتبط بالقسم الأوّل من المناجاة، حيث أشير فيها إلى الصّفة الأولى لله وهي العلم الإلهيّ.

٢- التدبير والربوبيّة التكوينيّة الإلهيّة

الصفة الثانية لله تعالى، والتي أشير إليها هنا، هي إدارته وتدبيره وربوبيّته التكوينيّة، والتي ذُكرت على نحوَين: الأوّل: «وقد جرت مقاديرك عليّ يا سيّدي في ما يكون منّي إلى آخر عمري من سريرتي وعلانيتي». فالأمر لا ينحصر في أنّ الله مطّلعٌ على الإنسان والعالم من دون أن يقوم بأيّ فعلٍ، بل إنّ أمور العالم ومنها شؤون الإنسان هي بيد الله المقدّر[1] والمهندس.

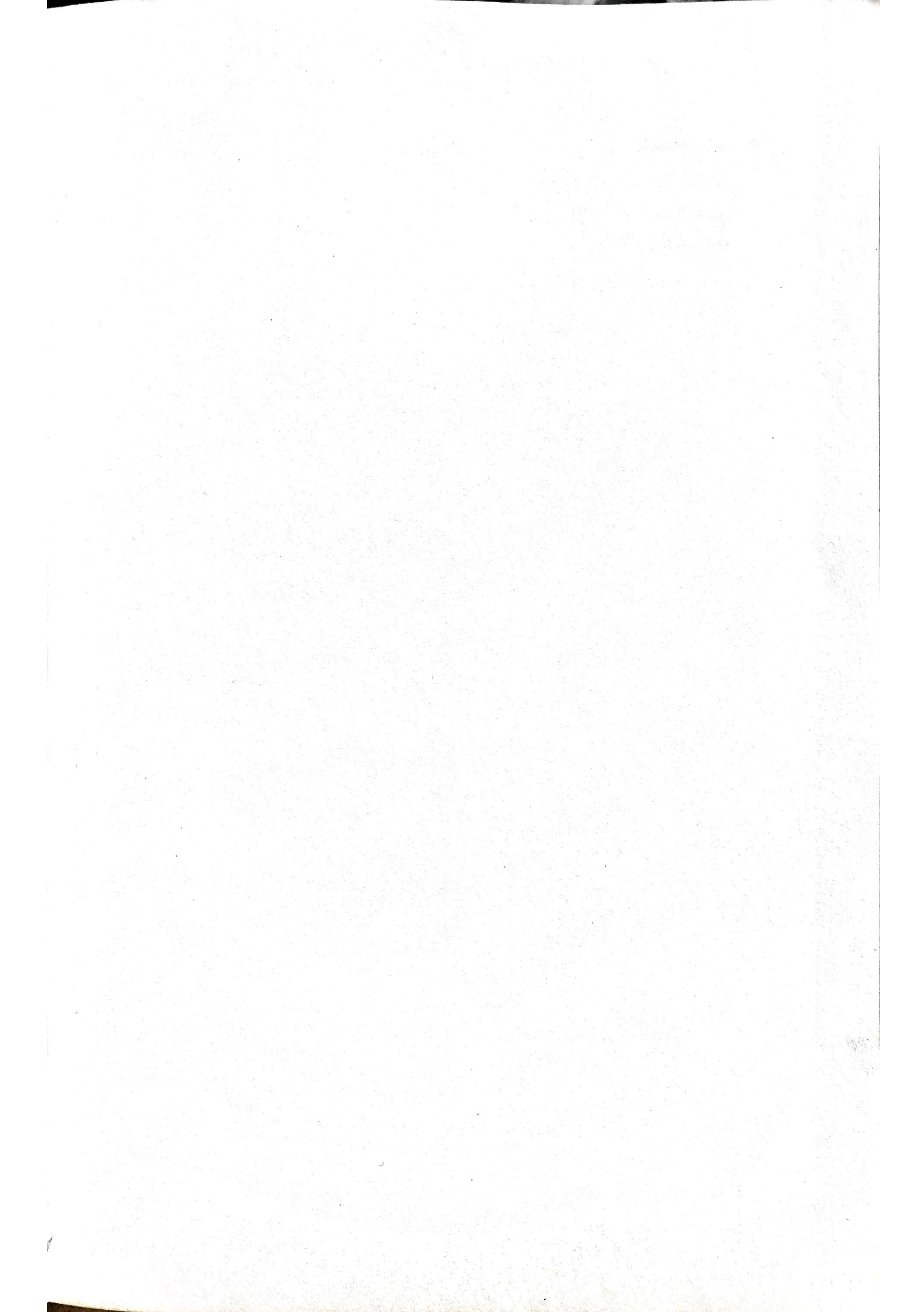
فأنا على طريق تقديرك. والملفت أنّ تحقّق التقديرات قد عُبّر عنه

---

(١) إنّ التقدير أو القضاء والقدر من أعقد الأبحاث التي تحدّث حولها علماء علم الكلام والحكمة كثيرًا. وقد وردت أيضًا في الروايات وقد عدّها البعض من الأمور التي لا تُحلّ وقد قالوا ينكسر القلم حين يصلون إلى هنا، وقد ذكرت بعض الرّوايات هذا الأمر بعنوان "البحر العميق" ومنعت من التفكّر كثيرًا بشأنه. وقد نُقل عن الإمام الهادي عليه السلام أنّه يشبّه إحدى مراحل الفاعليّة الإلهيّة بالهندسة ويقول: إذا أُريد بناء عمارةٍ، بدايةً يجب أن يضع المهندس خارطة يحدّد فيها موقع العمارة وتفاصيلها ودعائمها، وطالما لم يُشيّد هذا البناء يبقى عبارة عن خارطة قابلة للتغيير. إنّ تدبير عالم الوجود من قِبل الله هو مثل الهندسة والإعداد وتأمين الظروف والشروط والمراحل المختلفة القابلة للتغيير إلى أن تصل إلى مرحلة القضاء والحتم. بالطبع، طبق بعض التعاليم الدينية فإنّ القضاء الإلهي الحتمي يكون أيضًا قابلًا للتغيير كما جاء في الدعاء بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام حيث نقرأ: "وَقَضائِكَ الْمُبْرَمِ الَّذي تَحْجُبُهُ بِأَيْسَرِ الدُّعاءِ". وهو هذا الشيء الذي يُسمّى بالمصطلح الكلامي "بالبداء" أي أنّ الله يكون قد كتبه في لوح التقدير وأوحى إلى الملائكة وكأنّ الأمر لم يعد قابلًا للرجوع عنه. لكنّ الله فجأةً يغيّره. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يكون عمر فلان قد قُدّر أن يكون خمسين سنة، لكنّه بسبب صلته لرحمه أو برّه بوالديه يُضاف إلى عمره ثلاثون سنة. وكمثالٍ إنّ الله قد أضاف إلى عمر المرحوم الأصفهاني، الذي كان رجلًا مسنًا وكان يخدم الناس ليل نهار ويستخير لهم في كل وقتٍ ويفسّر لهم مناماتهم، عشر سنوات بسبب هذه الخدمات.

بالجريان أو بقوله «جرت»، وذلك لأنّه يرتبط بمقام الإجراء والتنفيذ، فلا بدّ للتقديرات من أن تجري. إنّ هذا التقدير موجودٌ في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو يشمل الإنسان من بداية عمره إلى آخره، وكلّ أموره الخفيّة والعلنيّة تجري وفق برامج مقدرّةٍ ودقيقةٍ من قبل الله تعالى.

الثاني: «وبيدك لا بيد غيرك زيادتي ونقصي ونفعي وضرّي»، أي صحيح أنّ تقديرات الإنسان قد صُمّمت وخُطّط لها، ولكن ما لم تصل إلى مقام العمل يمكنك أن تغيّرها، وتغييرها بيدك، ولا يمكن لأيّ أحدٍ غيرك أن يؤثّر فيها. إنّ زيادتي ونقصاني وربحي وخسارتي هي فقط وفقط بيدك. فاتّضح إذًا أنّ الإنسان، وبالالتفات إلى هذه المسائل، يناجي ربّه؛ مسائل مثل عدم لياقته، ومسألة علم الله به وأنّ كلّ التقديرات بيده تعالى.



إِلـهي إِنْ حَرَمْتَني فَمَنْ ذَا الَّذي يَرْزُقُني، وَإِنْ خَذَلْتَني فَمَنْ ذَا الَّذي يَنْصُرُني

لأجل توضيح هذا المقطع من المناجاة من اللازم أن نذكر مقدّمتَين:

١- إنّ لسان المحاوَرة يختلف بحسب الموارد والمقامات، ففي مقام البحث والحوار العقائديّ نحن معتادون على إثبات مطلبنا بالاستدلال والبرهان الفلسفيّ والرياضيّ، وقد نسعى لإثبات كلامنا بكلّ شكلٍ ممكن ونحمل الطرف المقابل على قبوله. الأسلوب الأوّل يعبّر عنه بأسلوب البرهان، ويعبّر عن الأسلوب الثاني بالجدل، وهدف كلا الأسلوبَين هو إقناع الطّرف المقابل. ولكن قد نتحدّث بلسان الاعتذار إذا كان الطرف المقابل صديقًا حميمًا، فهنا لا يكون الحديث عن الاستدلال والبرهان والجدل بل نكون بصدد إيجاد عذرٍ لكي يغضّ الطرف المقابل نظره عن أخطائنا بلطفه ومحبته.

لعالم المحبّة لسانٌ خاصّ، والشعراء العارفون، كالمرحوم الشيخ محمد حسين الأصفهاني (المعروف بالكومباني) والإمام الخمينيّ قدس سره والعلّامة الطبطبائي قدس سره الذين كانت لهم قصائد شعرية ذات مضامين خاصّة، قد استفادوا من لسان المحبّة. ومثل هذه المضامين موجودةٌ في الأدعية والمناجاة مثل مناجاة «أبي حمزة الثمالي»: «وإنْ أدخلتني النّارَ أَعْلَمْتُ أَهْلَها أَنّي أحِبُّكَ». فهذا اللسان ليس لسان البرهان والاستدلال والجدال، فهذا ليس بمثابة الإنذار الأخير الذي يهدّد الله، وليس صفًا لتدريس الفلسفة والرياضات والمناظرة والجدل، بل هو مقام المعاشقة. إنّه لسان الدّلال وليس لسان الجدال، ففي لسان الدّلال قد تكون الحالة

حالة بسطٍ أو قد تكون حالة قبضٍ، وقد يدعو الإنسان لنفسه ولغيره ويكون كالذي يقف إلى جانب محيطٍ كبيرٍ، وهو يطلب الرحمة لنفسه ولجيرانه ولمواليه ومعارفه و... ولجميع الخلائق ولا يقنع بما هو أقلّ.

إنّ حال الدلال الذي جاء في دعاء الافتتاح «مُدِلًا عَلَيْكَ فيما قَصَدْتُ فيهِ»، هو حال ذاك الطفل الذي يتدلّل على أمه.

إنّ الذي تلوّث بالمعاصي والأرجاس لا يكون لديه لياقة الحضور في محضر الله وفي محفل الصالحين والأنبياء والأولياء عليهم السلام، ولأنّه لا يقدر على تولّي تطهير نفسه من المعاصي وهو يريد أن يكون في ذاك الجمع المقدّس فلا يكون المحل محلّ الاستدلال والبرهان والاحتجاج لكي يجادل على أساس البرهان والاستدلال أو طِبق المقبولات والمشهورات، ويقول إنّ على الله أن يغفر لي، بل إنّه محلّ الاعتذار والتمسّك بالصفات الإلهيّة.

ما يقارب نصف المناجاة الشعبانية يتضمّن هذه التمسّكات والاعتذارات والتبريرات لكي يعدّ الإنسان نفسه لائقًا للعفو حتّى تصل الفرصة لعرض المطالب الأخرى. إنّ الذي يكون بحالةٍ من التلوّث والقذارة ويريد أن يدخل على جماعةٍ محترمةٍ، يجب قبل أيّ شيءٍ أن يغيّر لباسه ويستحمّ ويتمنّى تغيير حاله ويرجو ذلك.

٢- على أساس الأدلة العقلية والرّوايات التوحيديّة ونهج البلاغة والمعارف الإسلامية لا يمكن أن يكون هناك أي تغييرٍ في ذات الله تعالى[١].

---

(١) لأنّه قلّما يتم التعرّض لهذه المسألة في الأماكن الأخرى ينبغي أن نقدّم توضيحًا حولها في هذا المقال: قد يخطر في الذهن أنّ لله حالات مختلفة مثل الرضا والسخط والغضب. فقد يكون في حالةٍ من الرضا ثمّ يُصبح في حالةٍ من الغضب، وفي رواية وردت في أصول الكافي باب التوحيد، عن هشام بن الحكم "أنّ زنديقًا جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام (يلزم أن نذكر هنا أنّ الزنديق هو بمعنى الكافر الذي يكون من أهل التحقيق والبحث والمعرفة، ويكون له مقام المنظّر بين نظرائه من المفكّرين. بناء عليه فإنّ الأسئلة التي يطرحها تكون قويةً وتكون الأجوبة التي كان الأئمة عليهم السلام يطرحونها غنيةً من حيث المضمون ويمكن الاستفادة منها كثيرًا)، سأل الزنديق الإمام الصادق عليه السلام: "هل لله رضا وغضب وسخط؟" فلأنّه كان قد قرأ القرآن كان يعلم أنّه توجد فيه عباراتٌ من قبيل رضي الله عنهم، وسخط

وكما قال الإمام عليّ عليه السلام: «لَمْ يَسْبَقْ لَهُ حالٌ حالًا»(١). فهو لا يقع تحت تأثير أيّ عاملٍ. وكذلك ما قاله سيّد الشهداء عليه السلام: «إلهي تقدَّسَ رِضاكَ أَنْ

عليهم، وغضب الله عليهم بصورةٍ مكررة، وإنّ الإمام الصادق عليه السلام لا ينكر ذلك. بناء عليه، كان يريد أن يأخذ اعترافًا من الإمام قبل البحث ثم يطرح ما لديه، فأجابه الإمام عليه السلام: نَعَمْ وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَذَلِكَ أَنَّ الرِّضَا حَالٌ تَدْخُلُ عَلَيْهِ فَتَنْقُلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ أَجْوَفُ مُعْتَمِلٌ مُرَكَّبٌ لِلْأَشْيَاءِ فِيهِ مَدْخَلٌ وَخَالِقُنَا لَا مَدْخَلَ لِلْأَشْيَاءِ فِيهِ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ وَاحِدِيُّ الذَّاتِ وَاحِدِيُّ الْمَعْنَى فَرِضَاهُ ثَوَابُهُ وَسَخَطُهُ عِقَابُهُ مِنْ غَيْرِ شيء يَتَدَاخَلُهُ فَيُهَيِّجُهُ وَيَنْقُلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ الْعَاجِزِينَ الْمُحْتَاجِينَ. [**الكافي**، الجزء ١، الصفحة ١١٠]. وهنا يبرز هذا السؤال وهو إذا كان الأمر كذلك فمتى يحدث هذا الرضا والسخط والغضب؟

والجواب هو أنّ هذه الصّفات، وبحسب الاصطلاح العلميّ، خارجةٌ عن الذّات ومتعلّقة بمقام الفعل أي أنّ هذه الصّفات تُنسب إلى الله في مقام الفعل. فمن أفعاله يمكن أن نُدرك أنّه إذا أثاب شخصًا فسوف نقول إنه رضي عنه، ولو عاقب شخصًا نقول إنه غضب عليه، فرضى الله هو الثواب وغضبه هو عقابه من دون أن يردَ عليه شيء، وهو لا يتبدّل من حالٍ إلى حال ولا ينفعل بشيء، لأنّه بحسب قول القدماء إنّ الغضب عبارةٌ عن هيجان الدم. بناءً عليه هو من صفات المخلوق العاجز والمحتاج وليس من صفات الإله. ومتكلمٌ آخر معروف باسم "عمرو بن عبيد المعتزلي" يأتي إلى الإمام الباقر عليه السلام ويقول له: "جُعِلْتُ فِدَاكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾، مَا ذَلِكَ الْغَضَبُ؟ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: هُوَ الْعِقَابُ يَا عَمْرُو؛ إِنَّهُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ زَالَ مِنْ شيء إِلَى شيء فَقَدْ وَصَفَهُ صِفَةَ مَخْلُوقٍ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَسْتَفِزُّهُ شيء فَيُغَيِّرَهُ". فإذا تصوّر أحدٌ أنّ الرضا يزول عند الله ويحلّ محلّه الغضب، فإنّه يكون قد نسب لوازم الممكنات والمخلوقات الناقصة إلى الله في حين أنّ ساحة القدس الإلهية بعيدة عن هذا النوع من الحالات والتحوّلات. بالطبع، لقد نُسب في القرآن إلى الله بعض الأعضاء مثل العين واليد والقدم مثل "يد الله"، و"لتُصنع على عيني" وأمثال ذلك، ودليل ذلك هو أنّنا لا نستطيع أن نُدرك الحقائق التي هي ما وراء الأمور المادية والجسمانية، وإنّما يسهل علينا فهمهما بواسطة تشبيهها بالمادّيّات ومن خلال تصوّرها ومن ثمّ تجريدها وتنزيه الله تعالى ننسبها إليه، ففي روايةٍ أنّ كل مخلوقٍ يتصوّر الله بحسب صفاته، وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام رويّ أنّه قال: "كُلَّما مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوْهامِكُمْ في أَدَقِّ مَعانيهِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لَكُمْ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ، ولعلّ النمل الصغار تتوهم أنّ لله تعالى زبانيتين، فإنّ ذلك كمالها ويتوهّم أنّ عدمها نقصان لمن لا يتّصف بهما، وهذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالى به". (**بحار الأنوار**) وعلى أيّ حال، إنّ جذور هذه الصّفات التي نتصوّرها في أذهاننا هي تلك الأمور التي نُدركها في أنفسنا أو في غيرنا من المخلوقات ونسعى لنسبتها إلى الله بعد سلب النقائص عنها، وذلك كلّه يرتبط بمدى قدرتنا على التنزيه الصحيح.

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٦٥.

يَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنّي؟»[١].

لهذا فإنّ رضا الله وغضبه لا يكونان معلولين لأيّ شيء، بل يكلّم عباده بلسان الحوار ويعدّ رضاه وغضبه ناشئًا من أعمال البشر، وكمثال على ذلك يقول: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[٢]. أو كما يقول في موضع آخر: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[٣] فكلّ هذه العبارات (الرضا، الغضب، الانتقام، والتأسّف) إنّما استُعملت مع الإنسان على أساس المحاورة ولغة المحادثة.

وبعد ذكر هاتين المقدّمتين (أوّلًا: إنّ لسان المناجاة هو غير لسان الاستدلال والجدل وأمثاله، وثانيًا: إنّ الله يخاطب الناس بلسان المحاورة، وإلّا فإنّ غضبه ورضاه لا يمكن أن يكونا معلولين لشيء)، نقول في هذا المقطع من المناجاة الشعبانية: «**إلـهي إنْ حَرَمْتَني فَمَنْ ذَا الّذي يَرْزُقُني، وإنْ خَذَلْتَني فمَنْ ذَا الّذي يَنْصُرُني**».

فهل يمكن أن نجد من يستطيع ذلك؟ ولو تركتني في قبضة الأعداء فهل يوجد من يمكنه أن يخلّصني؟ فإن لم تنصرني فمن ذا الذي يمكنه أن ينصرني؟

بناءً عليه، فإنّنا في مقام الاعتذار وطلب الرحمة والعفو نعدّ أنفسنا مشمولين بالرحمة ومستحقّين للمدد والنصر الإلهيّ. وحين نرى أنفسنا بمنتهى الصغار والحقارة ونطلب العطف والرحمة، نصبح لائقين ليشملنا لطف الله. وبالإضافة إلى التّطهّر من قذارات المعصية نُدرك قابلية إدراك الرّحمة الإلهيّة.

---

(١) دعاء عرفة.

(٢) سورة **الزخرف**، الآية ٥٥.

(٣) سورة **النساء**، الآية ٩٣.

إلـهي أعُوذُ بِكَ مِنَ غَضَبِكَ وَحُلُولِ سَخَطِكَ

من الممكن لبعض الذّنوب أن تُبعد الإنسان عن الله إلى الدّرجة التي يُصبح فيها مورد غضبه وسخطه، فلا تبقى في وجوده أيّ نقطةٍ مضيئةٍ فيصبح مطرودًا من الساحة الإلهية كليًّا.

هناك أشخاص يقومون بأعمالٍ حسنةٍ في بداية الحياة، ولكن من الممكن أن يتواجدوا في بعض الظّروف ويتدنّسوا بحيث يصل بهم الأمر إلى درجة اسوداد ماضيهم، لا بل لا يبقى فيهم أيّ أملٍ للإصلاح في المستقبل.

وقد قام أهل البيت عليهم السلام بتوجيهنا في العديد من الموارد إلى ما حلّ بإبليس. يقول أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «وكانَ قَدْ عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلافِ سَنَة لا يُدْرى أَمِنْ سِنِيّ الدُّنْيا أمْ مِنْ سِنِيّ الآخِرَةِ»[١].

وقد كانت عبادة الشّيطان لله قبل أن يخلق الله البشر قد طالت نحو ستّة آلاف سنةٍ حتّى اعتبرته الملائكة منها، وليس معلومًا إن كانت هذه السّنوات سنواتٍ دنيويّةً أو أخرويّةً. ولعلّه لم تكن هناك مصلحةٌ لبيان هذه المسألة (لأنّ أمير المؤمنين يعلم إن كانت هذه السنين من سنيّ الدنيا أو من سنيّ الآخرة).

وهناك احتمالٌ أنّ كلّ يوم من تلك السنوات الطويلة يُساوي آلاف السّنين. لكنّ هذه العبادات لم تكن نابعةً من الإيمان ومن الاعتقاد بالربوبيّة التشريعيّة الإلهيّة. وقد كان الشيطان قد قبلَ بوجود الله ووحدانيته وربوبيّته التكوينيّة وكان يعتقد بالقيامة[٢].

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة القاصعة.

(٢) يُعلم مما قاله الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ... رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أنه كان يعتقد بوجود الله وربوبيته وعزته وبالقيامة (غيّاثي كرماني).

لهذا كان الشّيطان يمتلك ذاك العصيان المتجذّر الذي انتهى به إلى الكفر، أو أنّه كان نابعًا من الكفر. لم يكن الشّيطان يعتقد بالرّبوبيّة التشريعيّة لله، أي أنّه لم يكن يقبل بأنّ عليه إطاعة أمر الله، ولأجل ذلك حين أمره الله بالسجود لآدم قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[١]. وبهذا الجواب اعترض على الحكم الإلهيّ قائلًا كيف يسجد الأفضل لمن هو أقلّ في مقامه؟ وهذه الرّوح الاستكباريّة هي إنكار الرّبوبيّة التشريعيّة والكفر ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢]. لأجل ذلك يتمّ تشبيه كفر بعض النّاس بكفر إبليس لأنّه كان أسوأ الكفر. هذا الشيطان نفسه قال لله إنّك إذا أعفيتني من السّجود لآدم فسوف أعبدك بما لم يعبدك به أحدٌ لحدّ الآن، فأجابه الله: «إِنّي أُحِبُّ أَنْ أُطاعَ مِنْ حَيْثُ أُريد»[٣].

فإذا كنت تريد أن تعبدني فعليك أن تعبدني كما أقول أنا وإلّا فأنت تعبد نفسك.

بناءً عليه، من الممكن أن يصبح من يعبد الله ستّة آلاف سنةٍ كافرًا ويُطرد طردًا تامًّا من المحضر الإلهيّ. وإنّما يذكر الإمام عليّ عليه السلام هذه الحادثة لأجل أن لا نغترّ بأعمالنا وعباداتنا ودروسنا وأبحاثنا وفقهنا وأصولنا وفلسفتنا وتفسيرنا وعلومنا الإسلاميّة وأعمالنا التبليغيّة، ولكي نبقى دائمًا قلقين تجاه عاقبة أمرنا، ذلك لأنّه من الممكن أن تكون عبادة ستّة آلاف سنةٍ مثل ذاك الذي قال الله عنه في القرآن: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا [...] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾[٤]، تذهب أدراج الرياح.

على أيّ حال، على الذي يناجي الله أن يلتفت إلى أنه من الممكن أن

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٢.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٣٤.

(٣) **بحار الأنوار**، الجزء ٢، الباب ٣٢، صفحة ٢٦٢.

(٤) سورة **الأعراف**، الآيتان ١٧٥ و١٧٦.

تحرمه ذنوبه من الوصول إلى محضر الحقّ حرمانًا تامًّا وتجعله مورد غضبه كما قال الله تعالى: «وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى».

لهذا، فإنّنا في هذا المقطع من المناجاة نقول إنّا نلجأ إليك من أن نكون محلّ غضبك وسخطك. وفي العادة جعل أهل اللغة السّخط مرادفًا للغضب، والبعض قال إنّ السخط هو شدّة الغضب. بناءً عليه، أقول لله إنّني ألجأ إليك يا الله من أن أصبح مورد غضبك.

الكثير من الأشياء قد تُسوؤنا نحن البشر، ولكن لا نظهر الغضب والسّخط تجاه ما هو غير شديد السوء. الله تعالى يفرّق بين المعاصي، ولا يساوي بين الذّنوب الصّغيرة التي يمكن أن تُغتفر والذّنوب الكبيرة التي يمكن أن تُغتفر بالتوبة أو الشفاعة، والذنوب التي تكون مثل محاربة الله والتي لها عقوبةٌ شديدةٌ. وفي القرآن الكريم يوجد اختلافٌ بين الرّضا والثّواب، فمثلًا حين يقول: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾[1]، يعلم أنّ الرضا شيءٌ أعلى من الجنّة، فأولئك الذين يعبدون طمعًا بالجنّة ينالون أجرًا مثل الجنّة، أمّا أولئك الذين هم مثل أمير المؤمنين والأئمّة عَلَيۡهِمُ السَّلَامُ فينالون ما هو أعلى من الجنّة أيّ الرضوان الإلهيّ: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[2].

حين يكون هناك شيءٌ مثل الهواء العليل في الصيف الحارّ محلّ رضانا واستحساننا فهناك ثلاثة موضوعات:

١- إدراكنا أنّ الهواء العليل في الصيف يتلاءم مع طبعنا.

٢- ذاك الهواء العليل نفسه.

٣- الشعور بالبهجة التي يوجدها ذاك الهواء العليل في الصيف.

وبشأن الله تعالى ينبغي القول إنّ لله تلاؤمًا مع كلّ كمالٍ ومخالفةً مع كلّ

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ١٠٠.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٧٢.

ما هو ضدّ الكمال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٢].

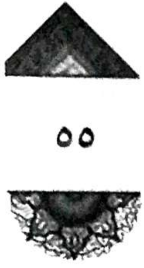
فحين نريد أن نأخذ بعين الاعتبار المراتب الموجودة بين ذات الله ومقام الفعل الخارجيّ، مثل أنّ الله يحبّ ذاك أو لا يحبّ، يجب القول إنّ حبّه للكمالات، التي هي عين ذاته، هو رضاه، وإنّ عدم حبّه هو السخط. بالطبع بمجرّد أن يرتكب الإنسان معصيةً لا يصبح مباشرةً مورد سخط الله وغضبه، وإلّا لما أُعطي المجال لارتكابه. يجب أن يكون الأمر سيّئًا جدًّا وقبيحًا إلى الدّرجة التي يصبح الإنسان معها رديف ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[٣]، وعندها لا يرى وجه السّعادة أبدًا. وإذا لم يصل الإنسان إلى هذا الحدّ يمكن أن نأمل بإصلاحه، كما جاء في مناجاةٍ أخرى: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ غَضِبْتَ عَلَيَّ فَلا أُبالي». فعلى الإنسان أن يلجأ إلى الله لئلّا يصبح مشمولًا بغضبه. يجب أن يطلب التوفيق لكيلا يقوم بذاك الفعل الذي يوجب غضب الله، لأنّه في مثل هذه الحالة لن يكون هناك أملٌ بالغفو.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٢٢.

(٢) سورة **لقمان**، الآية ١٨.

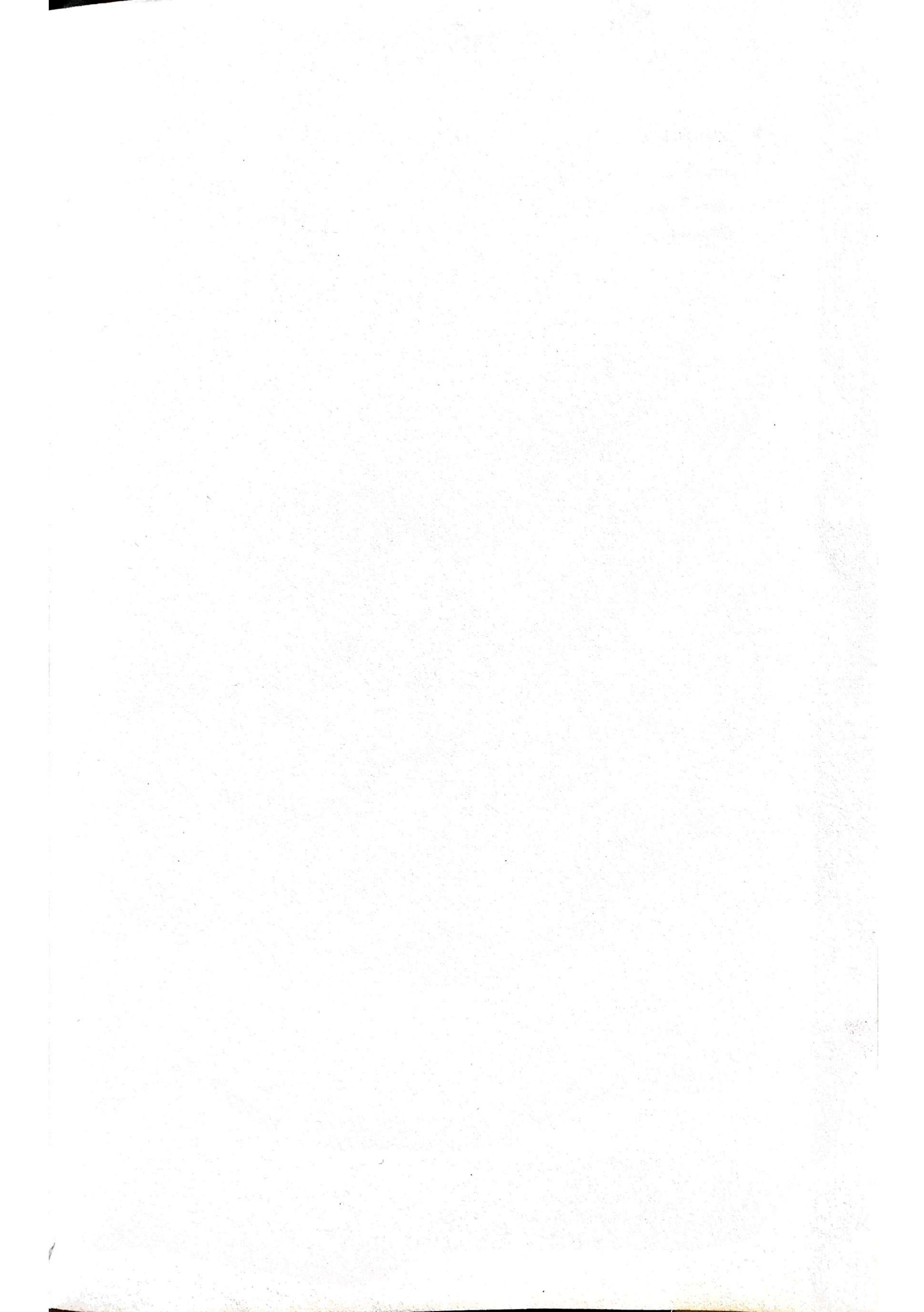
(٣) سورة **الفاتحة**، الآية ٧.

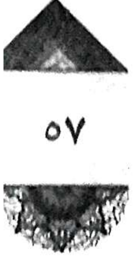


إِلهي إِنْ كُنْتُ غَيْرَ مُسْتأهِلٍ لِرَحْمَتِكَ فَأَنْتَ أَهْلٌ أَنْ تَجُودَ عَلَيَّ بِفَضْلِ سَعَتِكَ

وفي هذا المقطع نقول لله معترفين إنّنا وإن لم نستحقّ رحمتك، لأنّ قبائحنا كثيرةٌ جدًّا، لكنّنا لا نيأس من رحمتك لأنّ رحمتك ليست خاصّةً بالمستحقّين، بل قد اتّسعت بحيث أصبح الجميع مشمولين بفضلك. فالفضل أعلى من الاستحقاق. فإن لم تكن الرّحمة مخالفةً للحكمة فإنّها سوف تشمل أولئك الذين لا يستحقّونها. إنّ رحمة الله لا تُمنع إلّا عن أولئك الذين تكون الرّحمة عليهم مخالفةً للحكمة الإلهيّة، مثل محاربي الأنبياء والأولياء والذين يُضلّون عباد الله عن عنادٍ وقصدٍ ووعيٍ. ففي هذه الحالة، إذا رحمهم الله يكون قد عمل خلاف حكمته. على أيّ حالٍ، إنّ الذين ليسوا لائقين للرّحمة يمكنهم أن يؤمّلوا الوصول إلى حالةٍ خاصّةٍ يشملهم معها الفيض الإلهيّ وتصلهم رحمة ربّ العالمين.

إنّ الإيمان والتوجّه والتوسّل بالأولياء يؤدّي إلى انبعاث هذا الاستعداد. وتقضي الحكمة أيضًا أن يصبحوا مشمولين برحمة الله، ذلك لأنّ أصل الرّحمة شاملٌ لوجود خاتم الأنبياء ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، ومنهم ترشح إلى أولئك الذين يجعلون أنفسهم في معرض ذلك، وهم ممّن ليسوا مشمولين بالغضب الإلهيّ لحدّ الآن:





إِلٰهي كَأَنّي بِنَفْسي واقِفَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ وَقَدْ أَظَلَّها حُسْنُ تَوَكُّلي عَلَيْكَ، فَقُلْتَ ما أَنْتَ أَهْلُهُ وَتَغَمَّدْتَني بِعَفْوِكَ

وفي هذا المقطع من المناجاة يتصوّر الإنسان نفسه وكأنّه واقفٌ بين يدَي الله وهو يعلم أنّه ليس لائقًا للرحمة لكن غمام الرحمة تظلّله، وذاك بسبب التوكّل على الله الذي يحمله في نفسه ولأنّه لا يرى أيّ قيمةٍ لأعماله وإنّما يكِل نفسه بالكامل إلى الله عسى أن يعفو عنه. بناءً عليه، يقول: «إنّني أتوكّل عليك يا الله، وبتوكّلي هذا أوفّر المقدّمة لنزول رحمتك عليّ».

ذكرى عن المرحوم الميرزا عبد العلي الطهراني

تشرّفت أيّام الشباب بزيارة مشهد المقدّسة في شهر رمضان المبارك، وكان الحاج المرحوم الميرزا عبد العلي الطهراني (والد الحاج الآغا مجتبى الطهراني الذي يدرّس في طهران الفقه والأصول والأخلاق)، مقيمًا في مشهد وكان يصلّي عند رأس الحضرة، ويقيم مجالس الوعظ ليلًا في منزله. وفي إحدى ليالي الإحياء (أظنّ ليلة الثالث والعشرين)، وبعد انتهاء مراسم وضع القرآن على الرؤوس وأثناء الدّعاء قال هكذا: «اللهمّ حين كنت شابًا لم أكن أطلب منك في أدعيتي سوى مراتب التوحيد، أمّا الآن وقد أصبحت عجوزًا وابيضّت لحيتي، فأطلب منك أن تميتني مسلمًا...

اللهمّ! في ليلة الإحياء هذه، هناك أشخاصٌ قرأوا القرآن وتوسّلوا وعبدوا، وكلّ واحدٍ منهم قد عفوتَ عنه لعملٍ قام به كالصّيام والصّلاة

والصّدقات وصلة الرّحم وأعمال البرّ، اللهمّ اعفُ عنّي بالمجّان لكي تقول يوم القيامة إنّني غفرت لجماعةٍ بالمجّان».

إنّ أولياء الله، وبعد طيّ المقامات والسّنوات العديدة في السّير والسّلوك والرياضة والاستفادة من الأساتذة العظام كالمرحوم الميرزا جواد الآغا التبريزي، يصلون في عمر الثمانين إلى حيث لا يمكنهم أن يتّكلوا على أعمالهم، لأجل ذلك نحن نقول في هذا المقطع من المناجاة: اللهمّ إنّنا نتصوّر أنفسنا وقد جاء يوم القيامة ونحن نقف بين يديك وإن كانت أيدينا خالية، ولكن هناك غمامةٌ فوق رؤوسنا وهي التوكّل الحسن عليك، وأنت يا الله في هذا الموقف عاملني كما أنت ولا تعاملني كما أنا أستحقّ، أي أنّك لم تقل يا قليل الحياء! أيّها العاصي والملوّث! بل قلت إنّني أهل العفو والصفح والمغفرة. لذا فقد شملني عفوك ببركة ذاك التوكّل. حين يرجع المناجي إلى نفسه ويقول إنّه لو اضطررت لأن آخذ معي هذه الأرجاس إلى عالم الآخرة، إلّا أنّني لست آيسًا من رحمة الله، وهذا الأمل ليس بسبب أعمالي، بل بسبب إيكال أعمالي إلى الله، وأنتظر يوم القيامة وحين الحساب والكتاب أن يقول ما يكون لائقًا بشأنه من الكرم والعظمة والعفو، لا ما أستحقّ من العقاب والنقمة.



إلـهي إنْ عَفَوْتَ فَمَنْ أوْلى مِنْكَ بِذلِكَ، وَإنْ كانَ قَدْ دَنا أجَلي وَلَمْ يُدْنِني مِنْكَ عَمَلي فَقَدْ جَعَلْتُ الإقْرارَ بِالذَّنْبِ إلَيْكَ وَسيلَتي

في هذا المقطع نقول: اللهم إذا كان هناك من عفوٍ فمَن أولى منك به؟ إذا كان العفو حسنًا فمَن أفضل منك ليعفو؟ فإن عفوت فهذا ليس بعيدًا عن ساحتك. ولحدّ الآن لم يقرّبني عملي إليك ولم يبقَ سوى طريقٍ واحدٍ يقرّبني إليك ويجعلني مشمولًا بعفوك ورحمتك وهو الإقرار بالمعصية[1]. اللهمّ إنّني

---

(١) من الضروري أن نُشير إلى هذه النقطة وهي أنّ في مضامين دعاء كميل ودعاء أبي حمزة وغيرهما من الأدعية والمناجاة الشعبانية وسائر المناجاة، عبارات عجيبة فيما يتعلّق بالإقرار بالمعصية، وهي مما ظهر من قبل المعصومين عليهم السلام وكأنّهم قد ارتكبوا أكبر الكبائر، وهي لا تتناسب أبدًا مع مقام عصمتهم. فعلى سبيل المثال: يقول الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي وهو يناجي ربّه: «فَمَنْ يَكوُنُ اَسْوَأ حالا مِنّي اِنْ اَنَا نُقِلْتُ عَلى مِثْلِ حالي اِلى قَبْري». وقد أجاب الأعاظم هنا وقال بعضهم لأنّ الإمام المعصوم عليه السلام قدوة للناس وهو يقود قافلته إلى الجنة فإنّه يدعو بلسان كل أتباعه وأوليائه وكأنّه يُنزل نفسه منزلة كل واحدٍ منهم حتى أولئك الذين هم في أسفل الدراكات. وقال البعض إن هذه الأدعية والمناجاة هي لأجل التعليم ولأجل تربية الآخرين، وكأنّه يقال لأهل الإيمان: إنّ عليكم أن تقولوا كذا وكذا إذا كنتم في مقام المناجاة. وبعضٌ آخرون قالوا الكثير من الأعمال التي نتمنى نحن الأشخاص العاديون تحققها تندرج تحت حكم «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين»، فبالنسبة لأولئك الذين لديهم درجة عالية من العرفان تُعدّ معاصي كبرى. على سبيل المثال، نحن نفرح إذا أدينا بعض الركعات في الليل في حالة من النعاس في حال أنّ خدّام أمير المؤمنين عليه السلام الذين هم خدّام درجة كذا لو صلّوا مثل هذه الصلاة للطموا أنفسهم متحسرين، واعتبروا أنّ مثل هذه الصلاة هي إهانة متوجهة إلى محضر ربّ العالمين، فهؤلاء يستغفرون من هذا العمل الذي نفتخر به

أقرّ بأنّني عبدٌ حقيرٌ، ومثل هذا الاقرار هو وسيلتي للتقرّب إليك وإلى رحمتك مع عصياني.

سؤالٌ أساسيّ وجوابه

لعلّه يبرز هنا سؤالٌ مقدّرٌ وهو: إذا غُفر للعاصي فهذا خلاف الحكمة، وحينها لن يختلف العاصي عن المطيع! وجوابه هو أنّ هذا العاصي قد أقرّ بالمعصية في حالةٍ من الذلّ والتواضع، وهو يختلف عن غيره من العصاة.

فحين يُبتلى الإنسان بالعجب والأنانية وعبادة الذات، لن يكون مستعدًّا للاعتراف بخطئه حتّى في الخلوة. وإذا لم يتربَّ الإنسان تربيةً صالحةً فإنّ

ونتبجح. وقال آخرون إنّ أولياء الله حين يقرأون هذه الأدعية ويظهرون الضعف والمعصية والتقصير، فإنّهم يكونون في حالة لا يرون أنفسهم وهم يقولون ولسان حالهم يقول إن لم يأخذ الله بأيدينا فسوف نسقط في أسفل الدركات. وتوضيح ذلك، لو اعتبرنا أنّ عوامل اهتدائنا والتي هي عبارة عن العقل والايمان والمعرفة، هي من أنفسنا فإنّ أولئك الذين لا يتمتعون بهذه العوامل سنعدهم أسوأ منا، ولكن إذا اعتبرنا أنفسنا مثل وعاءٍ فارغ وأنّ كل هذه الفيوضات الربانية قد أفيضت علينا، واعتقدنا أنه ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ورأينا الوعاء الخالي مستعدًا لأي نوع من الآفات، وكنا على يقين أنّ الله يمنح الايمان والهداية والعقل في كل لحظةٍ ومن الممكن أن ينقطع هذا الفيض فتنشأ بسبب ذلك كل المشاكل وكل أنواع الفساد بسبب فقدان العلم والمعرفة والتقوى. فلهذا يقول اللهم إن لم تحفظني فسوف أكون أسوأ من أي شخصٍ آخر «اللهم إنّني وعاء فارغ بغض النظر عن كل ما أعطيتني إياه وهذا الوعاء فاقدٌ للهداية بذاته». وفي الموضع الذي يقول الله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ وأيضًا في الموضع الذي يخاطب فيه نبيه قائلًا: «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ». فالنبيّ ﷺ هو وعاءٌ خالٍ استوعب الايمان والهداية الإلهية، رغم إنّه أشرف المخلوقات وأكمل الموجودات وهو واسطة الفيض الإلهي للآخرين. إنّ روح العبادة تكمن في أن يفهم الإنسان بالتدريج أنّه لا يملك لنفسه شيئًا ومثل هذا الفهم سيبرز بصورٍ مختلفة سيبكي وتفيض عيناه بالدمع. فنتيجة مثل هذه العبودية هو ما جاء في مضمون حديثٍ: «الْعُبُودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهُهَا الرُّبُوبِيَّةُ؛» ولإن كانت هذه الرواية فاقدة للسند الصحيح ولكن مضمونها صحيح. وعلى أيّ حال، إنّ أولياء الله حيت يتوجهون إلى وعائهم الفارغ ويعلمون أنّ ذلك هو منشأ كل فسادٍ وسقوطٍ إلى الدركات فسوف تظهر منهم مثل هذه المناجاة والعبارات. لعلّ بعض الأجوبة المذكورة لا تُشفي الغليل ولعلّ الجواب الأخير هو الأعمق من بينها.

غروره واستكباره لن يسمحا له بالاعتراف بخطئه ومعصيته، بل إنّه سيبقى يبرّر دومًا ويقول مثلًا المجتمع فاسدٌ، أو أنّ مقولات المدارس النفسية والاجتماعية الموجودة في علم النفس وعلم الاجتماع تقول إنّ الإنسان صنيع بيئته ووراثته، ولأنّ العوامل الجينيّة والعوامل الاجتماعية والبيئية ليست في اختيار الإنسان وإرادته، فإذا أخطأ سيكون ذلك من تقصير أمّه وأبيه وتقصير المجتمع، وهكذا قد يتمسّك البعض بأمثال هذه المقولات.

بالطبع، إنّ هذا الكلام صحيحٌ إلى حدٍّ ما، فلا يمكن إنكار هذه العوامل التي لها مدخليّةٌ معيّنةٌ في تكوين شخصية الأفراد. ولكن هذه العوامل ليست مصيريّةً وإنّما هي ممّهدةٌ ولا تصل إلى حدّ الجبر. وما تأكيد القرآن الكريم وتركيزه على قصص بعض الأشخاص مثل ابن نوح وزوجتَي نوح ولوط عليهما السلام إلا لأجل أن يدلّ على أنّ الارتباط ببيت النبوّة لا يمكن أن يسلب الإنسان الاختيار والإرادة، ولا يمكن أن يُجبره على سلوك طريق الحقّ، ولأجل ذلك حين قال نوحٌ عليه السلام إنّك وعدتني بنجاة أهلي أجاب الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[1].

من جانبٍ آخر يضرب الله زوجة فرعون مثلًا، والتي كانت تعيش في بلاط فرعون الذي يُعدّ أسفل وأسوأ جو ومحيط، لكنّها وصلت إلى مقام قال الله تعالى عنه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾[2]. فقد وصلت إلى مثل هذه المقامات العرفانيّة العالية بحيث تطلب من الله بيتًا في الجنّة، لا كما يطلب البعض منّا من قصورٍ وفاكهةٍ وحور عين، بل إنّها تطلب ذلك عند الله وهو مقام الجوار الإلهيّ.

فلو كان عامل البيئة والمحيط عاملًا للجبر لكان ينبغي أن يكون بلاط فرعون، الذي كان أقذر وأفسد بيئة، سببًا لأن تكون زوجة فرعون كغيرها من الملأ، لكنّنا نشاهد أنّ الأمر لم يكن كذلك، بل إنّ هذه السيّدة الكريمة قد

---

(١) سورة **هود**، الآية ٤٦.

(٢) سورة **التحريم**، الآية ١١.

أصبحت أنموذجًا لجميع المؤمنين على مدى التاريخ. لأجل ذلك، إنّ هذه الأعذار لا يمكن أن تبرّر أخطاء أيّ إنسان، إذا كان الإنسان سليمًا يعترف أنّه أخطأ ويقول إنّه لن يكرّر خطأه، وعلى الأقلّ يُقرّ في نفسه ويذعن بذلك، حتّى ينال لياقة العفو. أمّا إن أصرّ وعاند وبرّر خطأه فإنّ الله سيقول: «أيّ شيء أغفر إذا كان لا يقرّ بأنّه أخطأ».

أجل، إنّ الاعتراف بالمعصية والخطأ بين يدَيّ الله هو آخر وسيلةٍ يمكن للإنسان أن يستفيد منها لأجل التقرّب إلى الله، ويعلم أنّه لم يصبح بعد مورد غضب الله وسخطه وإلّا لما وجد الفرصة لمثل هذا الاعتراف والإقرار. بناءً عليه نقول: «إذا لم ندرك توفيق إدراك طريق التقرّب إلى الله بواسطة العمل الصالح فعلينا أن نختار طريقًا آخر وهو الإقرار والاعتراف بالمعصية بين يدَي الله».



إلهي قد جُرْتُ على نفْسي في النَّظرِ لها، فلها الْوَيْلُ إنْ لَمْ تَغْفِرْ لها

لأجل توضيح هذا المقطع من المناجاة ينبغي ذكر مقدّمتين:

١- لعلّ نصف هذه المناجاة يتعلّق بطلب الرّحمة والعفو الإلهيّين. وقد سعى المناجي، باستعمال أنواع البيانات اللطيفة والعذبة، إلى استنفار بحر رحمة الله، هذا وإن قيل سابقًا إنّه ليس لله حالات متعارضة وإنّ التغيير يرتبط بنا نحن حيث نُصبح لائقين لرحمته ومستحقّين لها. فعلى سبيل المثال، جميع الناس، وحتّى تلامذة الابتدائية، يعلمون بأنّ الشمس لا تطلع ولا تغرب ولكن يقولون طلعت الشمس وغربت، وقد ذكر القرآن مثل هذا الأمر باستعمال اللسان العرفيّ. بالطبع، إنّ للشمس حركةً، ولكن ليس لها هذا الطلوع والغروب المعروف، بل الأرض هي التي تُقابل الشمس، وليست الشمس التي ترتفع وتهبط. كذلك الأمر، نحن حين نستخدم أسلوب المحاورة العرفية نقول إنّنا سنفعل ما يوجب رضا الله وسنجتنب ما يؤدّي إلى سخطه، بينما نحن أصغر من أن نتمكّن من إيجاد الرضا في الله.

فحين نقول إنّ بحر رحمة الله قد فارَ، نكون في الحقيقة نحن أنفسنا قد أوجدنا هذا التحوّل والفوران بحيث أصبحنا مشمولين بالرحمة الإلهية، ذلك لأنّ رحمته مثل الشلّال الذي يفيض منذ الأزل وحتّى الأبد وإنّ علينا أن نتقدّم إليه ونوجد في أنفسنا اللياقة والاستعداد لكي نستفيد من هذا الفيضان اللامتناهي لرحمة الله.

٢- إنّ لسان المناجاة والدعاء هو غير لسان البرهان والجدال والخطابة.

ولو حصرنا الأساليب البيانيّة في تلك الصناعات الخمس[١]، يمكننا أن نقول إنّ الدعاء والمناجاة هما من حيث الأسلوب بلغة الشّعر. بالطبع، ليس بمعنى ذلك النثر المنظوم بل إنّ الشعر في اصطلاح أهل المنطق هو ذلك البيان الذي يحرّك قوّة الخيال وكذلك يحرّك مشاعر الناس في مقام المدح والعواطف وفي مقام الرثاء، ولكن مع اختلافٍ وهو أنّ عواطف ومشاعر المناجي في المناجاة تتغيّر وتتحرّك حتّى ينال توفيق لياقة إدراك رحمة الله. ولا يمكن لأحدٍ أن يشكل أنّ الدّعاء الفلانيّ يفتقد للكليّة الكبرى، وأنّ مقدّمات البرهان في المناجاة الفلانيّة غير تامّة؛ ذلك لأنّ الدعاء هو في مقام الاستعطاف من أجل جذب عطف الله وليس في مقام بيان قضيةٍ برهانيةٍ وجدليةٍ و...

وبعد ذكر هاتين المقدّمتَين بشأن هذا النوع من المناجاة نقول:

قد يقرّ إنسانٌ بشكلٍ عاديٍّ أنّه أذنب، وقد يبيّن إقراره هذا بلطفٍ خاصٍّ. إنّ روح الإنسان التي تنتسب إلى الله ذات قدرةٍ كبيرةٍ ويمكن أن تكون موضوعًا للإدراك بالإضافة إلى فاعلية كونها مدركةً، أي أنّها تُدرك الشيء ومن ثم تُدرك إدراكها، وإنّ الجمع بين هاتَين الحالتَين أمرٌ عجيب حقًّا جعل الكثير من الفلاسفة الأوروبيّين والغربيّين يشكّون في إمكانه، وقد قالوا إنّ العلم بالنفس مستحيلٌ وإنّ العلم الشهوديّ بالنفس غير ممكنٍ. ذلك لأنّ العالِم ينبغي أن يكون غير المعلوم. ولكنّ زعم هؤلاء الفلاسفة غير صحيح، لأنّ الروح منسوبةٌ إلى الله، وهي في وجود الإنسان ذات قدرةٍ يمكن بواسطتها أن تشرف على أعمالها. إنّ المطّلعين على علم النفس يدركون أهمية هذه القضية جيّدًا، ويمكن القول إنّ سرّ كون الإنسان خليفة الله هي هذه القدرة الروحية الموجودة، ومنها أيضًا ينشأ حمل الأمانة الإلهية والإرادة والاختيار.

إنّ الإنسان قادرٌ أيضًا على الإمساك بزمام خياله، فلا يدعه يحلّق أينما

---

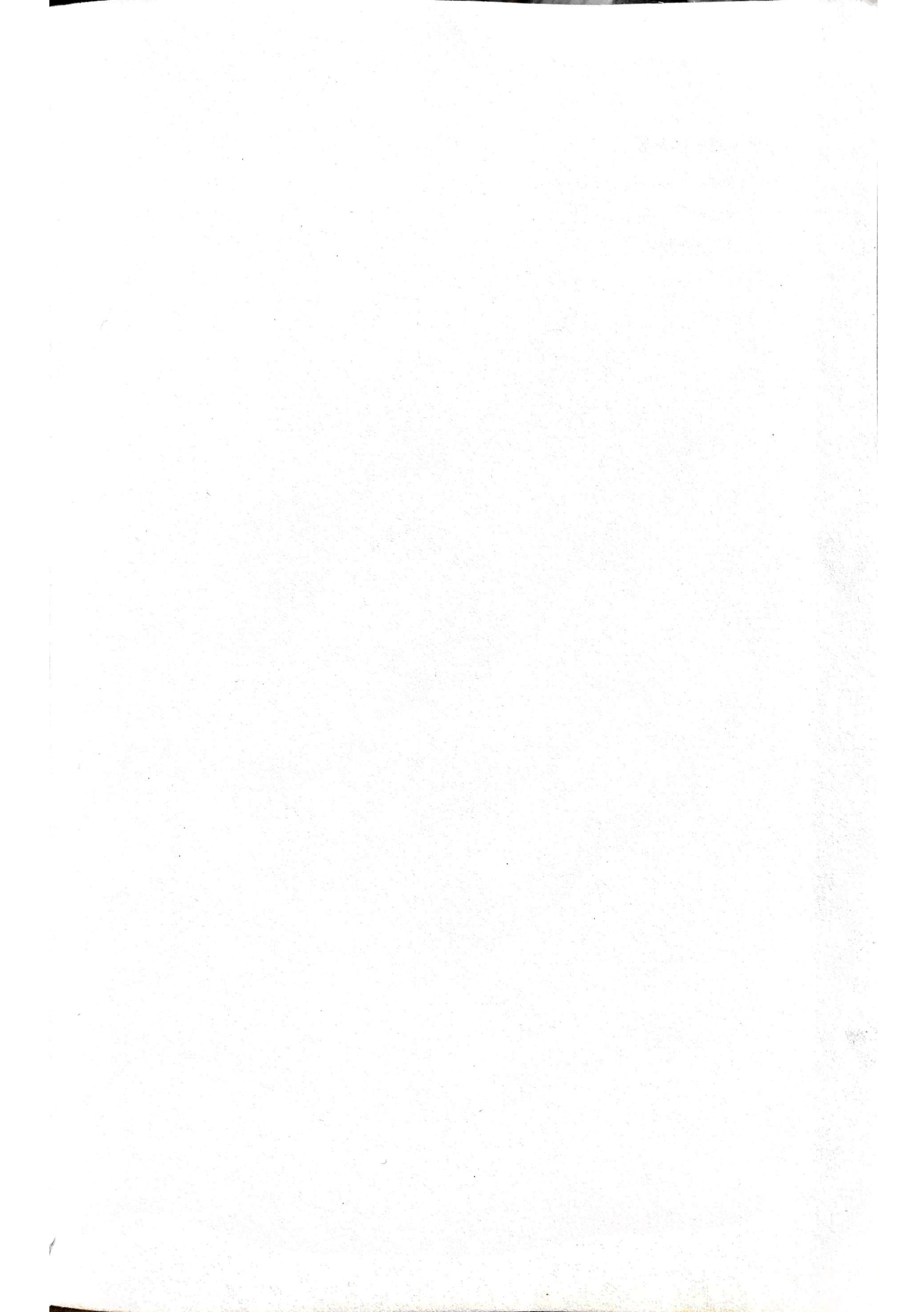
(١) المقصود من الصناعات الخمس هو البرهان والجدال والخطابة والمغالطة والشعر وهي التي يتناولها علم المنطق (غياثي كرماني).

أراد. لذا، إذا قمنا بما يوجب صيرورتنا من أهل جهنّم نكون قد ظلمنا أنفسنا كثيرًا. فينبغي لنا استعمال هذه القدرة على طريق إصلاح أنفسنا وألّا نستغلّها بشكلٍ سيّئ.

ففي هذا المقطع نقول: إنّ لي على نفسي حقًّا، وقد أضعته وتجاوزته لأنّ لي شأنين وموقعيّتين. الشأن الأوّل شأن الذي ينبغي أن يؤدّي الحقّ، والشأن الآخر هو شأن الذي ينبغي أن يُؤدّى حقّه. فنحن معلّمون ومتعلّمون ومربّون ومتربّون، لهذا نقول: «لقد ظلمت نفسي يا الله بتقصيري في مقام إصلاح نفسي ونظري إلى موقعيّتي الوجودية وتدبير أموري». كالأبّ الذي يرمي ولده في النّار عوضًا عن أن يختار له النجاة. هكذا فعلنا نحن بأنفسنا. لكن حيث إنّه يوجد غطاء في الدّنيا فإنّنا لا نستطيع أن نرى، ولكن يوم القيامة، حيث يُكشف الغطاء، أو بالنسبة لرجال الله الذين كُشفت عنهم الحجب من الآن، يتّضح أنّني من الآن في النار.

حين يشتكي أحدٌ على إنسانٍ ما، يأخذ القاضي الحقّ منه ويُرجعه إلى صاحبه، ولكن حين يشتكي الإنسان على نفسه فماذا يمكن للقاضي أن يفعل؟ فإنّ هذا من ألطف البيانات التي تجسّد عجز الإنسان وتستجلب عطف الله ورحمته.

ويلٌ لي لأنّني لا أملك شيئًا سوى أن تعفوَ عنّي. فلا يوجد من يأتي لنجدتي. وها أنا أشكو نفسي لأنّني ظلمت نفسي.



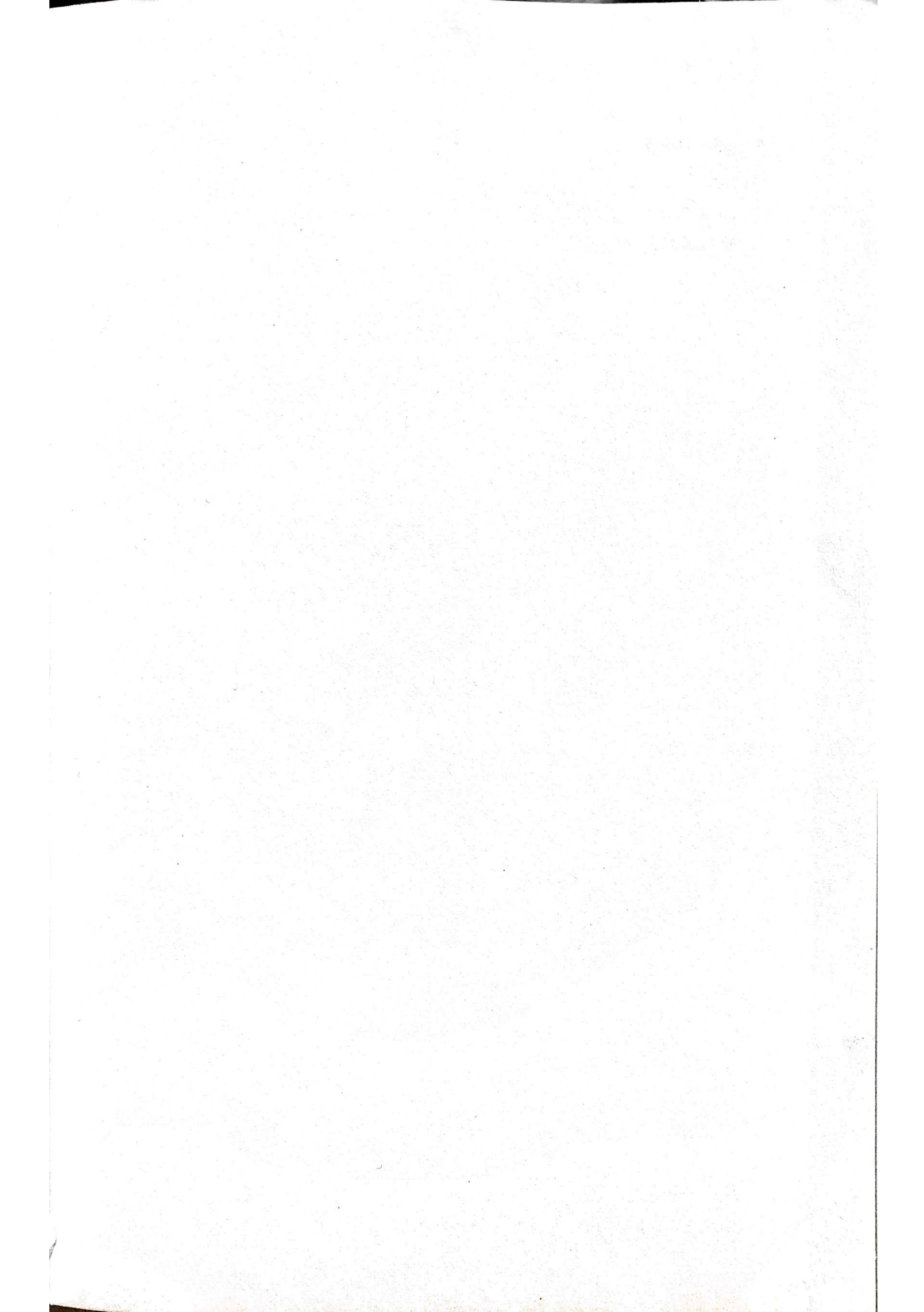
إلـهي لَمْ يَزَلْ بِرُّكَ عَلَيَّ أَيامَ حَياتي فَلا تَقْطَعْ بِرَّكَ عَنّي في مَماتي

لو أردنا أن نضع هذه الجملة على شكل قياسٍ منطقيٍّ فسوف تكون فيها مقدّمةٌ كبرى خفيّةٌ وهي عبارةٌ عن:

اللهمّ! لقد أحسنت إليّ مدى عمري، وكلّ من يفعل ذلك بي ويُعينني مدى حياتي، فلا بدّ أن يفعل ذلك بعد مماتي. فإذًا اللهمّ لا بدّ أن تعينني بعد وفاتي.

لكنّ هذه المقدمة الكبرى ليست تامّةً لأنّ الله قد أعان الناس على مدى الحياة من أجل توفير مجال الامتحان، وبعد الموت يأتي دور الحساب والعقاب، وحينها ينتفي الموضوع. ولأنّ هذا البيان ليس برهانيًا وليس جدليًا بل هو مجرّد عذرٍ لمخاطبة الله فلا ينبغي أن نتوقع تمامية البرهان.

فإذًا نقول: «اللهمّ! لقد أحسنت إليّ طوال عمري، وقد هيّأت لي ظروف وشرائط وجود نعمتك ولطفك من قبل أن تخلقني. وقد كنت تحت ظلّ نعمك اللامتناهية التي لا يمكنني إحصاؤها طول عمري. فبعد الموت أيضًا أحتاج إلى ذلك الإحسان، ومع الإحسان لا تذرني فردًا. فذاك العامل الذي أدّى إلى أن تنعم عليّ طوال عمري، من دون استحقاقٍ وحتّى من دون أن أطلب ذلك، فبحكم «الإكرام بالإتمام» أكمل يا ربّ نعمتك عليّ بعد موتي.





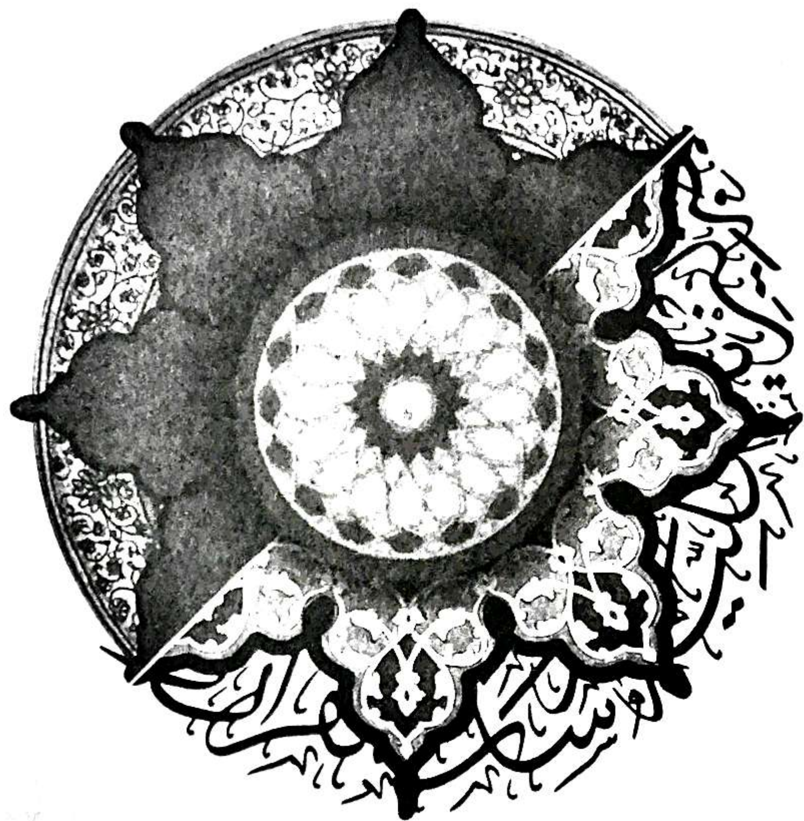
إِلـهي كَيْفَ آيَسُ مِنْ حُسْنِ نَظَرِكَ لي بَعْدَ مَماتي، وَأنْتَ لَمْ تُوَلِّني إلّا الْجَميلَ في حَياتي

وهذا المقطع أيضًا هو مثل المقطع السابق لأجل جذب الترّحم والإحسان الإلهيّ مع إضافة هذا المفهوم: لقد أحسنت إليّ طول عمري وقد بعث ذلك فيّ الرّجاء بأنّك ستستمرّ بالإحسان إليّ بعد مماتي. فاستمرار النعم السابقة لا أطلبه فقط في حياتي وإنّما أطلبه أيضًا بعد مماتي، وذلك لأنّ عادتك الإحسان، فكيف أيأس ممّن كانت عادته الرّحمة والإحسان؟ فما رأيت منك سوى الحسن والجمال واللطف، وهكذا أتطلّع بأملٍ ورجاءٍ إلى استمرار ذلك بعد الموت.

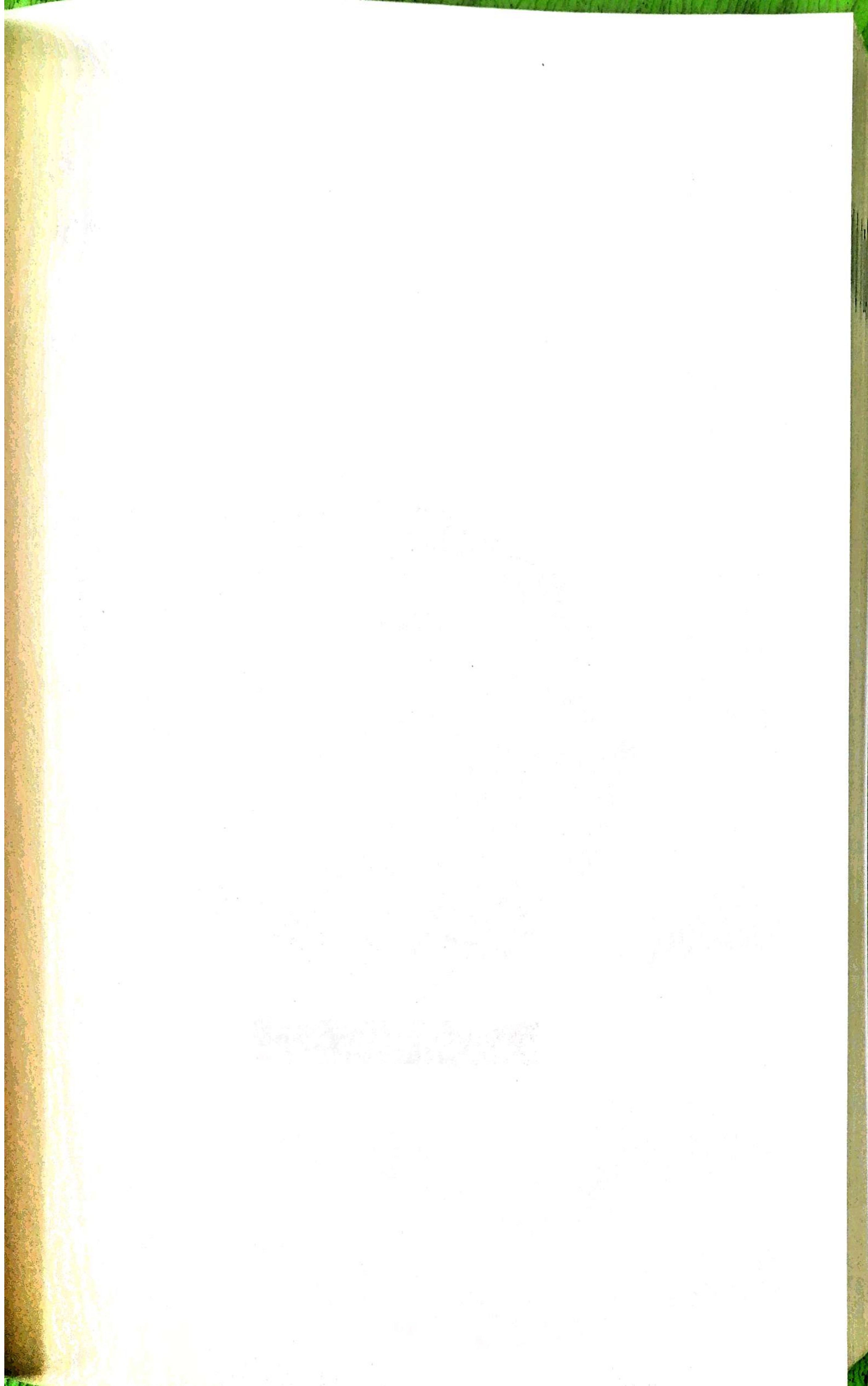




وَعِنْدَكَ دَواءُ عِلَّتي وَشِفاءُ غُلَّتي وَبَرْدُ لَوْعَتي وَكَشْفُ كُرْبَتي، فَكُنْ أَنيسي في وَحْشَتي، وَمُقيلَ عَثْرَتي، وَغافِرَ زَلَّتي، وَقابِلَ تَوْبَتي، وَمُجيبَ دَعْوَتي، وَوَلِيَّ عِصْمَتي، وَمُغْنِيَ فاقَتي، وَلا تَقْطَعْني عَنْكَ، وَلا تُبْعِدْني مِنْكَ، يا نَعيمي وَجَنَّتي، وَيا دُنْيايَ وَآخِرَتي، يا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ.



شرح مناجاة المريدين







سُبْحانَكَ ما أضْيَقَ الْطُّرُقَ عَلى مَنْ لَمْ تَكُنْ دَليلَهُ، وَما أوْضَحَ الْحَقَّ عِنْدَ مَنْ هَدَيْتَهُ سَبيلَهُ

ذكر نقطةٍ لازمةٍ في بداية البحث

حين نحلّل العديد من المناجاة من قبيل المناجاة الشعبانيّة والمناجاة الخمس عشرة، نصل إلى مفاهيم ومعارف قلّما كانت موردًا للبحث والحوار. كان البعض يتصوّرون أنّ مثل هذه المفاهيم والمعارف ليست موجودةً في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ولهذا اتّجه هؤلاء إلى بعض الفرق الأخرى لكي يستفيدوا من هذه المعارف. ويبدو أنّنا إن لم نكن لائقين لإدراك هذه المفاهيم بسبب نقصنا أو غير قادرين على العمل بها، فإنّنا لا نجعلها محلًّا للبحث والدراسة. ويعدّ هذا نوعًا من الجفاء بحقّ أهل البيت عليهم السلام وكلماتهم. فعلى مدى التاريخ، نجد أنّ هناك أشخاصًا حفظوا آثار أهل البيت عليهم السلام لكنّهم لم يستفيدوا منها كما ينبغي. فعلى سبيل المثال، لقد نقل بعض الأشخاص رواياتٍ عن أهل البيت عليهم السلام ولم يكن لديهم من التعمّق والتفكّر ما كان للشيخ الأنصاري، ولكن لو لم ينقل هؤلاء مثل هذه الروايات، لما كان الشّيخ الأنصاري ليوفّق لمثل هذا التّفقّه والتعمّق. لقد جاء في الروايات: «رُبَّ حامِلِ فِقْه إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنه»[1].

بناءً عليه، إنّ هذا النقل للمعارف والمفاهيم والتباحث بشأنها، قد يكون

---

(١) **مستدرك الوسائل**، الجزء ١٧، الصفحة ٢٨٥. عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

سببًا لأن يستفيد منه أشخاصٌ يمتلكون الأهليّة والاستعداد اللازم والقلب النورانيّ. ولهذا لا ينبغي أن نكون سببًا في منع وصول هذه الرّوايات إليهم، وإن كنّا نحن غير مؤهّلين لذكرها أو فهمها أو العمل بها. لهذا علينا أن نفخر بنقلها، لعلّنا نستفيد جرّاء ذلك ببركة شفاعة هؤلاء العظماء.

الدّافع وراء اختيار مناجاة المريدين للبحث والتّحليل

بدا لي أنّه من الضروريّ أن نختار ونحلّل مناجاةً تتضمّن معارف شبيهةً بما ورد في المناجاة الشعبانيّة من بين المناجاة المنقولة عن الأئمّة عليهم السلام، فوجدت أنّ أفضل هذه هي **المناجاة الخمس عشرة** عن الإمام السجّاد عليه السلام وخصوصًا «مناجاة المريدين»؛ لأنّه لا شكّ أنّ من مسؤوليّاتنا أن نكون ممّن يريد الله وأن نُصبح من أهل المعرفة ونُدرك سبيل الوصول إلى الله. وهذه المناجاة هي مناجاة طلب الله، وهي تبدأ بجملةٍ قد وردت تقريبًا في المناجاة الشعبانية، وإن كانت بتعبيرٍ آخر؛ لأجل ذلك ذُكرت أثناء شرح المناجاة الشعبانيّة. ففي هذه المناجاة، نجد أنفسنا نبحث عن أقرب الطّرق للوصول إلى الله، لأنّه إذا هدى إنسانًا؛ فإنّه سيدرك سبيله ويصل إلى المقصد ولن يواجه أيّ إبهامٍ أو غموضٍ؛ أمّا إذا لم تكن هداية الله متحقّقةً فإنّ الإنسان مهما سعى، فإنّه لن يدركَ الطّريق الصحيح، بل سيُبتلى بالانحرافات والضّلالات.

بناءً عليه، نقول في بداية هذه المناجاة ما أضيق وأوعر الطّرق على من لم يكن الله دليله، وفي المقابل، ما أوضح الطريق وخلوّه من الشبهات على من هداه الله سبيله. فمثل هذا الشخص لا يُمكن أن يُبتلى أبدًا بالشكوك والشبهات على طريق معرفة الحقّ وتمييزه عن الباطل؛ لأنّ مثل هذا الشخص هو شخص مهتدٍ والحقّ بالنسبة له ساطعٌ سطوع الشّمس، وواضح ليس فيه أيّ إبهام أو غموض أو تعقيد. وفي حال واجه بعض التعقيدات والمصاعب فمن الواضح أنّ ذلك لن يصيبه بضرر أو مكروه، لأنّ سلوك الطريق، لا سيّما إذا كان نفيسًا وقيّمًا، يقتضي أحيانًا وجود الصعوبات والمشاكل، وهو أمر يختلف تمامًا عن الضياع والضلالة. فالضائع لا يعلم من أين يسلك، وقد

يسلك طريق الباطل ظنًّا منه أنّه طريق الحقّ، حيث يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[1].

لقد ابتُلي أمثال هؤلاء بمشكلة الجهل المركّب أو أنّهم يعيشون الجهل البسيط؛ ولكنّهم حائرون وعاجزون عن إدراك الطّريق الصّحيح؛ فقد يسلكون هذا الطّريق، ثمّ تجدهم يتّجهون في طريقٍ آخر، وربما يتّبعون هذا الصّوت، ثمّ تجدهم يتّبعون صوتًا آخر، ذلك لأنّهم ليس لهم نورٌ إلهيّ ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2]. بالطّبع، إنّ الله لا يظلم أحدًا، فإنّ كلّ هذه الحيرة وكلّ هذه الانحرافات والضلالات هي جزاء بعض الأعمال التي يقوم بها الإنسان عن وعيٍ.

---

(١) سورة **الكهف**، الآيتان ١٠٣-١٠٤.

(٢) سورة **النور**، الآية ٤٠.



إلهي فَاسْلُكْ بِنا سُبُلَ الْوُصُولِ إِلَيْكَ، وَسَيِّرْنا في أَقْرَبِ الطُّرُقِ لِلْوُفُودِ عَلَيْكَ، قَرِّبْ عَلَيْنَا الْبَعيدَ وَسَهِّلْ عَلَيْنَا الْعَسيرَ الشَّديدَ، وَأَلْحِقْنا بِعِبادِكَ الَّذينَ هُمْ بِالْبِدارِ إِلَيْكَ يُسارِعُونَ، وَبابَكَ عَلَى الدَّوامِ يَطْرُقُونَ، وَإِيّاكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ يَعْبُدُونَ، وَهُمْ مِنْ هَيْبَتِكَ مُشْفِقُونَ

توجد نقاط عدّة بشأن الوصول إلى الله. في هذا المقطع من المناجاة يُطرح بعض المقدّمات المفروضة:

١- يجب طلب الوصول إلى الله وسؤال الله توفيق إدراك طريقه.

٢- طرق الوصول إلى الله مختلفة.

٣- يجب أن نطلب أقرب الطرق وسلوكها.

٤- حيث إنّه توجد مخاطر على هذا الطريق، يجب طيّ الطّريق مع الرّفاق اللائقين.

النكتة الأولى

لأنّ هذه المفاهيم بعيدةٌ عن أذهاننا نوعًا ما، ومن الممكن أن تختلط مع مفاهيمَ متشابهةٍ ومعانٍ خاطئةٍ، وحيث إنّنا نجد بعض الفِرق المنحرفة تستغلّ هذه المفاهيم بصورةٍ سيّئةٍ، من الضروريّ أن نتحدّث قليلًا حول هذه النّقاط.

نستنتج من تعاليم القرآن الكريم أنّ كل شيءٍ في عالم الوجود هو في حال من السّير والحركة، وله مقصدٌ وهدفٌ خاصّ هو الله. يقول القران الكريم: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[١]، ويقول أيضًا: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٢]، وكذلك يقول: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾[٣].

ومن جانب آخر يقول: إنّ كل ما ترونه في عالم الوجود هذا له خزائن عند الله تعالى، وكأنّ هذه الخزائن ليس لها حدٌّ، والله يُنزل منها مقدارًا معيّنًا. فالأمر ليس مقتصرًا على خزانةٍ واحدة، بل هناك خزائن عديدة لكلّ موجود. وبعد النّزول تتقدّر وتتحدّد، ذلك لأنّ التحديد والتّقدير هو من خصائص هذا العالم، ولكن في العالم الآخر (لدى الله) لا يوجد أيّ نوعٍ من المحدوديّة، فلا ينزل سوى مقدار محدّد منها إلى هذا العالم، ثمّ يعود إلى الله مجدّدًا. وباختصار، كلّ ما هو موجودٌ في هذا العالم قد نزل من جانب الله وسوف يعود إليه مرّةً أخرى؛ أي أنّ له قوسًا نزوليًّا، وهو يتنزّل من جانب الله إلى هذا العالم، ثمّ يعرج إليه مرّةً أخرى في قوسٍ صعوديّ. ولا يختصّ هذا الأمر بالإنسان فحسب، بل إنّ الإنسان هو أحد أفراد هذه المجموعة الكبيرة.

وقد جاء في القرآن المجيد تعبير الحشر ولقاء الله أيضًا، كما يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[٤]. فالكدح يعني الحركة المتلازمة مع السرعة التامّة والسعي الوافر، ولا يختصّ هذا اللقاء بأهل الإيمان، بل هو لقاءٌ عامّ مثل الرّجوع إلى الله، ويشمل الجميع. وبعبارةٍ أخرى، هو أمرٌ تكوينيّ لا يُستثنى منه أحد، ولهذا فإنّه لا يكون فخرًا لأحد.

وإلى جانب هذه التحرّكات لدينا حركةٌ يختارها الإنسان ويبدؤها برغبته، وهذه الحركة ليست أمرًا جبريًّا، كالمجيء إلى الدنيا، ولا تُشبه ذلك اللقاء

---

(١) سورة **الشورى**، الآية ٥٣.

(٢) سورة **هود**، الآية ١٢٣.

(٣) سورة **العلق**، الآية ٨.

(٤) سورة **الانشقاق**، الآية ٦.

التكوينيّ الإجباريّ العموميّ. فبهذه الحركة يتميّز الإنس والجنّ عن سائر الموجودات ويُصبح أهلها أفضل من الملائكة، والهدف منها هو لقاء الله. فهم في البداية بعيدون عن الله، ثمّ بعد ذلك تتقلّص المسافة شيئًا فشيئًا، ولا يتحقّق ذلك إلّا بالعبادات التي تكون النيّة فيها هي القربة إلى الله. هذه النيّة التي تُعدّ في ثقافتنا من لوازم الإيمان ولا تُقبل من دونها أيّ عبادةٍ[١].

فإذا اختار أهل الإيمان الطّريق بشكلٍ صحيح وسلكوه، فإنّهم سيتقرّبون إلى الله شيئًا فشيئًا، وسيصلون إلى المقصد. بالطّبع، إنّ التقرّب إلى الله قد تكون له مطلوبيّة بالذات وأحيانًا بالغير؛ أي أنّ البعض قد يتقرّب إلى الله لأجل التنعّم بالجنّة وحورها وقصورها وأشجارها وأنهارها، وهي محلّ السُّكنى في دار الرّحمة وعند الله، وإن لم يذكروا ذلك على ألسنتهم؛ ولكن مثل هذا القصد والدّافع موجودٌ في سويداء قلوبهم. أمّا البعض، فإنّهم لا يطلبون سوى الله ولا غير، وعلى فرض المحال، وهو أنّه لا جنّة ولا حور ولا قصور، فإنّهم يبقون على هذا الدّافع وهو التقرّب، لأنّهم يريدون الله. ولو علموا أنّ رضا الله في الدخول إلى جهنّم لرجّحوا جهنّم على الجنّة.

التفتوا إلى هذا المثال لكي يتّضح الأمر جيّدًا. قد يشتاق الإنسان إلى صديقٍ عزيز أحيانًا، فيذهب للقائه. فهذا الأمر مطلوبٌ عنده بالذّات. ولكن قد يذهب الإنسان إلى منزل صديقه ليقترض منه أو لأجل تأمين حاجةٍ ما أو بدافع الضيافة ويكون ذلك مطلوبًا بالغير.

ففي الحالة الأولى، التي يكون فيها لقاء الصديق مطلوبًا بذاته، على الرغم من أنّه قد يحصل فيه على أفضل الضيافة، أو من الممكن أن يجلبوا له طعامًا مرًّا ومالحًا، أو فاكهةً لا طعم لها، أو أن يأتي من يضربه، ولكن بما أنّ لقاء الصديق بالنسبة له أصلٌ؛ فإنّه سيقبل كلّ ذلك بكمال الرغبة.

---

(١) بالطبع، كان الوثنيّون يعبدون الأصنام بقصد التقرّب إلى الله، حيث نقل الله تعالى ذلك عن ألسنتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾. لكن هؤلاء قد سلكوا طريقًا خاطئًا مختلفًا وتصوّروا أنّهم بواسطة عبادة الأصنام سيتقرّبون إلى الله.

وبهذا المثال يتّضح معنى مناجاة الإمام السجّاد عليه السلام حيث يقول: «إلهي لَوْ كانَ رِضاكَ في أَنْ أُقْتَلَ سَبْعينَ قَتْلَةً وَأُقْطَعَ إِرْبًا إِرْبًا لَكانَ رِضاكَ أحبّ إليّ»(١). فصحيحٌ أنّ الله لا يُدخل أحبّاءه إلى جهنّم، بل يجعلهم في أعلى درجات الجنّة، لكنّهم قد وصلوا إلى هذا المستوى من المعرفة بحيث إنّه لو فرضنا أنّ الله يبتهج بإدخالهم إلى جهنّم وإحراقهم فيها، لكان مثل هذا العذاب بالنسبة لهم عذبًا ومحبوبًا. كما نرى في هذه المناجاة (مناجاة المريدين) أنّه لم يُذكر أيّ شيءٍ عن الجنّة أو عن جهنّم، وإنّما يقول في نهايتها: «يا نعيمي وجنّتي». وعلينا نحن أيضًا أن نرتقي بهممنا في ظلّ معارف أهل البيت عليهم السلام وننوّر قلوبنا. فالمقصود من السير إلى الله والوصول إليه، ليس ذلك السير التكوينيّ الذي يتحقّق لجميع الموجودات، بل المقصود هو السّير الاختياريّ.

النكتة الثانية

حيث إنّنا علمنا بأنّ الوصول إلى الله أمرٌ اختياريّ ويمكن الوصول إليه بتوفيق الله تعالى، تُطرح هذه النكتة، وهي لأجل الوصول إلى هذا الهدف هناك طرقٌ(٢) تختلف فيما بينها من حيث القرب والبعد؛ أي أنّ على هذا الطريق

---

(١) لا يخفى أنّ بعض قصيري النظر تصوّروا أنّ القرب إلى الله يعني القرب إلى رحمة الله، ذلك لأنّ هؤلاء لا يعتقدون بأنّ هناك أشخاصًا ليس لديهم مطلب سوى هذه النعم الأخروية، وهم لا يفكّرون سوى بالحور والقصور، ويتصوّرون القرب إلى الله بحذف المضاف أو أنّهم يفسّرون "وأن إلى الله المنتهى" تفسيراتٍ مختلفةً.

(٢) بالطبع، يجب معرفة هذه الطرق وعدم العمل وفق الهوى والذائقة، فمثل هذه المعرفة بحدّ ذاتها تمثّل توفيقًا إضافيًا يكون من نصيب الإنسان؛ أي لا بدّ من أن يوفّق الله الإنسان لمعرفة هذه الطّرق وتشخيصها، وهذه المعرفة هي غير قراءة الكتاب أو الاستدلال أو قراءة الآية القرآنية وتحليل الحديث، بل هي بمعنى الاعتقاد القلبيّ العميق؛ ولأجل ذلك، فإنّ العديد من النّاس، وبالرغم من أنّهم سلّموا على الإمام الحسين عليه السلام، أو أنّهم كانوا يؤدّون الصلاة أوّل الوقت، والذي هو أمر ذات قيمة عالية، لكنّهم يظهرون الضعف والكسل؛ بينما إذا علموا بوجود النعمة الفلانية في مكان ما لركضوا إليها بكلّ شوقٍ، وحتى لو احتملوا الحصول على شيءٍ بواسطة القرعة، ولو واحد بالمئة، لأسرعوا إليه بكلّ قوّتهم؛ ولكن لا يبدون مثل هذا الاهتمام بشأن النِعَم التي صرّح الله تعالى بوجودها بشكل مؤكّد. بناءً عليه، نقول

الواسع الذي ينتهي إلى الله، توجد مسارات عدّةٌ، وبعضها يوصل إلى المقصد أسرع من غيره. ففي الحقيقة، يوجد أمامنا طريق واسع ممتد يتفرّع إلى طرقٍ عدّةٍ، فبعضها شديد القرب من المقصد، وبعضها شديد البعد عنه.

النكتة الثالثة

حيث إنّنا علمنا بأنّ الطرق التي توصل إلى الله متعدّدة ومختلفة، ومنها ما هو قريب ومنها ما هو بعيد، ومنها ما هو أبعد؛ فإنّنا نطلب من الله الطريق الأقرب ونقول: «اللهمّ! قرّب علينا البعيد». ومن الطبيعيّ، أنّ الطريق المستقيم هو أقرب الطّرق، ذلك لأنّ الطريق الملتوي تكون له زاوية وانحناء، فيصبح أبعد وأبعد عن المقصد.

النكتة الرابعة

ها نحن نصل إلى هذه النّكتة وهي أنّ هذا الطّريق يتضمّن مخاطر ومصاعب كثيرةً، فافرضوا أنّ أدعيتنا السّابقة قد استُجيبت، فعرفنا الطريق وأدركنا الطّريق الأقرب، لكنّ هذا لا يكفي لتحقّق الوصول إلى المقصد وهو الوصول إلى الله، بل وبسبب وجود مخاطر كثيرةٍ فسوف نحتاج إلى الرّفيق المناسب. التفتوا إلى هذا المثال:

في الماضي، كانت وسائل الأسفار متناسبة مع ذلك الزمان (الأحصنة

في مقدّمة هذه الدعاء "اللهمّ إنّ الطّرق ستكون ضيقةً جدًا على الذي لم تكن دليله، ولكن بالنسبة لمن هديته فسوف تكون واضحةً بينّة". وها هو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وبعد تأدية مئات أو ألف ركعة من أوّل الليل وحتّى الصباح، مصاحبًا بالبكاء، يقول في النهاية " آه! آه! من قلّة الزاد وطول السفر وبعد الطريق". وحين يتذكّر الإمام السجّاد عليه السلام تلك العبادات يقول: "أين عبادتي من عبادة جدّي عليّ عليه السلام؟". فالطريق طويلٌ ولكنّه قابلٌ للسلوك، وقد جاء الأنبياء والأئمّة عليهم السلام من أجل هدايتنا إليه، وكلّ شخصٍ يقطع هذا الطّريق بمقدار همّته، ولكل مقطعٍ في هذا الطريق لذّته الخاصّة. لذلك فإنّ الأمر ليس بحيث إنّ الذي لا يصل إلى أعلى الدرجات أو إلى القمّة فكأنّه لم يسلك أبدًا؛ رغم أنّه لا بدّ من أن تكون همّته عاليةً وأن لا يكتفي بالمراتب النازلة.

والجمال وأمثالها)، كما كان البعض يسافرون سيرًا على الأقدام. وكان الناس يعلمون جيّدًا أنّ وجود رفيق جيّد حتّى في الطّرق المختصرة (مثل الطريق من قم إلى جمكران) يمكن أن يقلّل من مصاعب وطول الطّريق لكلٍّ من المسافرين، لا سيّما المشاة. فلو كان هناك من يمشي معهم أو يتقدّمهم وهو يسير بمنتهى الجدّ والعزم الرّاسخ، فسوف يبعث فيهم النّشاط. وفي المقابل، لو صاحبهم شخصٌ كسولٌ عاجزٌ، فإنّه سوف يؤثّر سلبًا في روحيّتهم ونشاطهم. بناءً عليه، فإنّ من أسرار النّجاح في السّفر الحصول على رفيقٍ، خصوصًا إذا كان يعرف الطّريق جيّدًا وكان شخصًا موثوقًا، فسوف يساهم في زيادة النّشاط والتقليل من وعثاء السفر.

لأجل ذلك، فإنّنا نلتفت في هذه المناجاة إلى رفاق السّفر والرّواة الذين يتحرّكون أمام هذه القافلة وهم يعلمون الطّريق جيّدًا، وتكون حركاتهم وأقوالهم وسلوكيّاتهم قدوة بالنسبة لنا. وهكذا نقول: «اللهمّ حيث إنّك يسّرت لنا أقرب الطّرق إليك، فابعث لنا رفاقًا لائقين في هذا السّفر لديهم مثل هذه الصّفات والخصائص»:

١- يتحرّكون بسرعة.

٢- يقطعون هذا المسير باستمرار ومن دون توقّف.

٣- هم أهل العبادات في الليل والنهار.

٤- هم أهل الخشية بين يدَيْ عظمتك.

ولأجل تبيين وشرح الصّفة الأولى، وهي السرعة في الحركة، التفتوا إلى هذا المثال:

افرضوا أنّكم تشاهدون جماعاتٍ من مكانٍ مشرفٍ، حيث إنّ بعضهم سريعٌ، والبعض الآخر يمشي بسكينة، وآخرين يتعثّرون، والبعض الآخر شديد البطء ويسير نحو الهدف من دون أي إحساس أو شعور. والآن، لو أردتم الالتحاق بهذه الجماعات لكي تصلوا إلى المقصد بسرعة، فأيّ مجموعة

ستختارون؟! بالطّبع، إذا كنتم تريدون الوصول إلى المقصد، فسوف تختارون تلك الجماعة التي ستصل إلى المقصد بصورةٍ مباشرةٍ وأسرع. فتعرّفوا على خصائص أولئك الذين يتقدّمون هذه القافلة العظيمة. ولا شكّ بأنّ أشخاصًا مثل الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا يتقدّمون هذه القافلة البشريّة العظيمة وقد تحرّكوا بعزمٍ راسخٍ وجدٍّ تامّ ولم يتذبذبوا يمينًا ولا شمالًا، ولا شكّ بأنّهم سيصلون إلى المقصد بسرعة أكبر. لهذا نقول: «اللهم ألحقنا بهؤلاء الذين هم أهل التحرّك والتقدّم نحوك»[١]؛ أي أنّهم في الوقت الذي يسارعون فيه، فإنّهم يسعون لسبق الآخرين. بناءً عليه، فإنّ الصّفة الأولى للرّفاق الصالحين هي الجديّة والمسارعة والمسابقة، وهم أولئك الذين ألغوا الكسل والتلكّؤ من حركتهم، ولديهم العزم الراسخ على طيّ الطريق بكلّ قوّةٍ.

وأمّا الصّفة الثانية لهؤلاء، فهي أنّهم يطرقون باب بيت الله دائمًا، وهذا معنًى كنائيّ؛ أي حين يشعر الإنسان بالقلّة فإنّه يقرّر الذّهاب إلى باب بيت أحدهم ليستمدّ منه العون. فطرق باب أحد الأشخاص هو كناية عن طلب المعونة. والإنسان الذي هو عين الفقر والاحتياج والذي لا يملك لنفسه شيئًا، سيطلب من الله كلّ وجوده، وسوف يطرق بابه أكثر. فلو واجه الإنسان مشكلةً جزئيّةً، فإنّه سيطرق باب جاره مرّةً في اليوم، ولكن لو اشتدّت هذه المشكلة فسوف يذهب إليه كلّ ليلة، ولو تفاقمت المشكلة سيرجع إليه في كلّ يوم وليلة، أمّا إذا أصبح الاحتياج شديدًا جدًّا ووقع الإنسان تحت الضغط الهائل، ولم يعد أمامه من مفرّ، فحينها لن يكون الحديث عن مرّة أو مرّتين أو عشر مرّات في الليل والنّهار، بل سيصرخ بكلّ وجوده ويطلب المعونة. مثل هذا الإنسان يشبه ذاك المريض الذي يحتاج كلّ لحظةٍ إلى الأوكسجين، وينبغي أن يحصل عليه ويؤمّنه من مكانٍ ما، ولهذا فإنّه سيذهب إلى ذاك المكان الذي يؤمّن له ذلك، لكيلا يوقع نفسه بالتهلكة. ومثل هذا الشخص، لن ينتظر بعدها لكي يأتي الوقت المعيّن ليذهب إلى من يؤمّن له الأوكسجين.

---

(١) تطرح المبادرة في المكان الذي يُعرض فيه على الإنسان أمور عدّة، ولكنّه يحذف واحدًا منها ويختار آخر. أمّا المسارعة فإنّها تدل على مفهوم أكثر من السرعة وهو المسابقة.

والإنسان في مسيره الطويل إلى الله يدرك أنّه يحتاج في كلّ خطوة إلى المعونة، وهناك احتمالٌ أن يسقط في أيّ لحظة إلى قعر الوادي المهول حيث الخطر المحدق. بناءً عليه، سيطلب العون دائمًا ولن يجد سوى الله ليمدّ له يد الضراعة دائمًا.

فهؤلاء الروّاد، وإن كانوا يأكلون الطعام ويراجعون الطبيب حين المرض ويستعملون الأسباب والعوامل المادية لكلّ حاجاتهم، إلّا أنّ قلوبهم متوجّهة إلى الله دائمًا، وهم يرون كلّ شيءٍ بيده، ويعلمون أنّ الله هو الذي يجعل الأسباب والعوامل مؤثرةً، وإذا لم يرد فإنّه يجعلها عديمة التأثير، بل قد يجعلها أحيانًا ذات تأثير معاكس. فعلى سبيل المثال، قد يخطئ الطّبيب في إعطاء الدّواء للمريض الذي جاء لعلاجه، ما يؤدّي إلى تلف الإنسان.

يكلّم الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام في حديثٍ قدسيّ: «يا موسى! إذا أعددت طعامك واحتجت إلى الملح فسلني حتّى ملح عجينك»[1]. فبالإضافة إلى طلبك كلّ المواد الغذائيّة والإعداد وكلّ المقدّمات من الله، عليك ان تسأله أيضًا الملح الذي تحتاج إليه. ولأجل أن يتّجه الإنسان في كلّ أموره إلى باب بيت الله، فإنّ تقوية هذه الرّوحيّة وترسيخ هذه الحالة هو أمرٌ مهمٌّ جدًّا. ولكنّ هذا الكلام لا يعني بتاتًا إهمال الأسباب والوسائل وعدم العمل بالأوامر والتعاليم التي عرّفنا الله إليها لأجل كسب الرزق والعلم والصحّة والسلامة و... ذلك لأنّ الله يريد تدبير هذا العالم على أساس الحكمة عن طريق الأسباب: «أبى اللهُ أنْ يُجْرِيَ الأمُورَ إلّا بِأسْبابِها»[2].

وأمّا الصفة الثالثة فهي أنّ هؤلاء يعبدون الله في الليل والنهار، فهم في الواقع مستغرقون في العبوديّة ويصبغون كلّ شؤونهم بصبغتها؛ أي أنّهم يقومون بكل ما يُرضي الله، فأكلهم ونومهم ودراستهم وكلّ فعلٍ آخر يقومون

---

(١) «يا موسى اسألني كُلَّ ما تحتاجُ إليهِ، حتّى علفَ شاتكَ ومِلْحَ عجينِكَ». [مستدرك الوسائل، الجزء ٥، صفحة ١٧٢].

(٢) تفسير الميزان، الجزء ٢، صفحة ٤٠.

به سيكون مصداقًا للعبوديّة. فهم ينامون لأجل أن يتمكّنوا من العبادة بشكلٍ جيّد ويأكلون الطّعام لكي ينالوا القدرة على العبادة، ويدرسون لكي يعرفوا الله، ويعملون لكي تكون لهم الحياة العزيزة والشّريفة، فهم ينظّمون منامهم وطعامهم ودرسهم وعملهم بما يُرضي الله، وبحسب قول بابا طاهر: «طوبى لأولئك الذين هم في صلاة دائمة».

وأمّا الصّفة الرّابعة فهي أنّهم يخشون الله في كلّ حال، والله يحبّ أن يكون عباده من أهل الخشية، لماذا؟

كل إنسانٍ يمتلك شعورًا، سوف تعتريه حالةٌ من الانفعال، يُعبّر عنها بالهيبة والخشية، فيما لو صادف شخصًا فائق العظمة. وتسري هذه الحالة إلى اللسان، فينعقد أو يتأتئ، وترتعد الفرائص ويصفرّ اللون و... وكلّما أدرك الإنسان عظمة ذاك العظيم أكثر، وقاس حقارته أكثر مقابله، فإنّ ذلك الاحساس سيزداد لديه. وقد عُبّر عن هذه الحالة في القرآن بالخشية، وفي الأدعية بالهيبة. نقرأ في القرآن «وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون».

وفي هذا الدعاء نقول «ومن هيبتك مشفقون». لهذا، فإنّ السابقين تعتريهم هذه الحالة الانفعالية والخشية وإدراك حقارة الذات مقابل عظمة الربّ اللامتناهية. ولا شكّ بأنّه لو أدركنا طرفَي هذه المعادلة إدراكًا صحيحًا، فإنّ مثل هذه الحالة ستعتري الإنسان: الأولى هي ضعف الإنسان والثانية هي عظمة الله. ولو أدركنا هذه المعادلة، وخصوصًا ما يرتبط بنا نحن أي ضعفنا، وعلمنا أنّ هذه القدرة الظاهريّة التي نمتلكها هي في الواقع ليست منّا، فإنّ هذه الحالة والهيبة ستحصل حقًا.

قد يخرّ المعصومون عليهم السلام أحيانًا إلى الأرض وتعتريهم حالة الغشية، لأنّهم شاهدوا عظمة الله اللامتناهية ولا شيئيّتهم. أجل، إنّ ذلك الانتماء إلى الله يبعث العزّة والافتخار، وإلّا فإنّ ذات الإنسان نفسه ليست سوى الحقارة والذلّة والصّغار. ولأجل ذلك نقرأ في دعاء عرفة: «إلَهي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَفِي الذُّلِّ أَرْكَزْتَنِي وَكَيْفَ لا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي».



فمن جانبٍ إنّ العبودية هي عين الذلّة، ومن جانب آخر الانتساب إلى الله والنسبة إليه هي عين الافتخار والعزّة. بناءً عليه، حين ينظر الإنسان إلى نفسه من جهة ويرى عبوديته وفقره المحض ولا شيئيّته، ثمّ يرى من جهةٍ أخرى عظمة الله اللامتناهية؛ فإنّ حالة الخشية والانكسار والاضطراب ستحصل له بشكلٍ طبيعيٍّ[١].

---

(١) لا يخفى أنّ الخشية لا تعني الخوف، الذي يُعدّ من رذائل الأخلاق، أو الحالة التي يشعر بها الإنسان أثناء الفقر والخطر، بل هي عبارة عن تلك الحالة الخاصّة التي تحصل للإنسان حين يواجه مقامًا عظيمًا جدًا.

الَّذِينَ صَفَّيْتَ لَهُمُ الْمَشارِبَ وَبَلَّغْتَهُمُ الرَّغائِبَ، وَأَنْجَحْتَ لَهُمُ الْمَطالِبَ، وَقَضَيْتَ لَهُمْ مِنْ فَضْلِكَ الْمَآرِبَ

وقد ذكر في هذا المقطع من الدّعاء أنواعًا عدّةً من الثّواب للمريدين، الذين وصفهم في المقاطع السّابقة، وقد وصلوا في مسيرهم إلى الله. وهذا الثّواب عبارةٌ عن:

١- تصفية مشاربهم وشفافيتها وصفائها من كلّ أشكال الأدران والقذارات.

حين يطوي الإنسان طريقًا فإنّه بعد مدّةٍ يتعب ويحتاج إلى الماء. فإذا شاهد نهرًا فإنّه يوصل نفسه إليه لأجل رفع عطشه. ولو حصل معكم هذا الأمر لعلمتم جيّدًا أنّ الماء يكون في بعض أماكن الورود متكدّرًا أو أنّه يصبح كذلك حين يتوقّف ويركد فيتغيّر حاله. وفي الوقت نفسه، فإنّ الوصول إلى الماء العذب النقيّ يكون ممكنًا أيضًا. وكلّما كان الماء نقيًّا وزُلالًا، فإنّ العطشان والمُتعب سيلتذّ أكثر بمشاهدته. فهؤلاء المريدون السّابقون يتمتّعون بتلك المشارب الزلال والصّافية. ونحن بذكر هذه الخاصّيّة نطلب من الله أن يسلك بنا الطّريق الذي يكون مشربه زُلالًا ولذيذًا. وهذه العبارة كناية عن أنّ الطريق النقيّ الصافي البعيد عن الإبهام والوعورة والبعيد عن هوى النفس والشيطنة، هو الذي يسلكه الإنسان بطمأنينة وسهولة وراحة، وذلك لأنّ كل أشكال التّردّد والهمود تصعب على الإنسان طريقه.

٢- إنّ الله قد أوصل هؤلاء إلى مطالبهم.





٣- إنّ هؤلاء قد أوصلهم الله إلى رغائبهم.

٤- قد فازوا ونجحوا في مطالبهم.

٥- قد تأمّنت مطالبهم وحاجاتهم.

وفي الحقيقة إنّ كل هذه العبارات تشير إلى مطلبٍ واحدٍ وهو تأمين حاجاتهم ومطالبهم وتحقيق أهدافهم. والآن يُطرح هذا السؤال وهو ما يتعلّق بحاجة هؤلاء المريدين ومطالبهم وأهدافهم بحيث إنّ الله يحقّق لهم ذلك.

من المستبعد جدًّا أن يكون المقصود هو تلك الرّغبات الدنيويّة من قبيل القصور والسّيّارات الحديثة والبساتين والملاهي، بل لا بدّ من أن تكون طلباتهم ورغباتهم على أساس ذاك الطّريق الذي يوصلهم إلى المقصد ويحقّق لهم السّلوك إلى الله، ذلك لأنّ كلّ منزلٍ هو بذاته مبدأٌ بعبوره، يجب الوصول إلى المقصد والمنزل الثاني، وبعبور الثاني يصل إلى الثالث، وهكذا يطوي المنازل تلوَ المنازل حتّى يصل إلى المقصد النهائيّ.

ويُتصوّر أنّ هذه الاحتياجات والرّغبات ليست من الأمور التي تبعد الإنسان عن المقصد أو تشغله بنفسه، ذلك لأنّ على السّالك أن يبذل كلّ طاقته لقطع الطريق وإلّا تبدّدت هذه الطّاقات وأُهدرت ومنعته من الوصول إلى المقصد. لهذا، من المحتمل جدًّا أنّ المقصود من مطالب ورغائب المريدين وسالكي الطّريق هو تلك الأشياء التي ترتبط بالسّير والسّلوك.

وَمَلَأْتَ لَهُمْ ضَمائِرَهُمْ مِنْ حُبِّكَ، وَرَوَّيْتَهُمْ مِنْ صافي شِرْبِكَ

حين نأخذ بعين الاعتبار أحاسيس ومشاعر الناس نُدرك جيّدًا أنّ لكلّ إنسانٍ وعاءً خاصًّا قد يمتلئ بكامله أو نصفه. والحقّ هو أنّ هذا الوعاء ينبغي أن يمتلئ ولا يبقى خاليًا أو ناقصًا أبدًا. وهنا ينبغي أن يمتلئ بالحبّ والعشق الإلهيّين، وألا يُضاف إليه أيّ شيءٍ آخر؛ إلّا إذا كان شعاعًا لذلك العشق الإلهيّ وعشق أولياء الله، الذي يساعد على طيّ هذا الطريق، ولا يوجد أي تعارض أو تزاحم مع أداء الوظائف الإلهية. يقول القرآن: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[١].

فهذه أمورٌ تكون مورد محبّة الإنسان، وذلك لأنّ الإنسان يحبّ أباه وأمّه وأبناءه وإخوانه وزوجه وأقاربه وماله وسوقه. ولكن إذا أصبحت هذه الأمور موانع أمام أداء واجبات العبوديّة، وترك من أجلها الجهاد في سبيل الله، فسوف يستتبعها جزاءٌ شديد. أمّا إذا كانت هذه الأمور المحبوبة فرعيّةً ومطلوبةً ومحبوبةً بالعرض ولأجل محبّة الله فلا مانع من ذلك.

ولهذا، فإنّنا نسأل الله أن يلحقنا بأولئك الذين، بالإضافة إلى تلك الأوصاف والثواب الذي ذُكر، قد امتلأت قلوبهم بعشق الله، وأُشربوا ذلك

---

(١) سورة التوبة، الآية ٢٤.

الماء العذب الصّافي الزلال.

وقد تبيّن من خلال شرح المقاطع السّابقة، أنّ الإنسان يحتاج في الأسفار المادّيّة إلى رفع عطشه، وإنّ ألم العطش هو أشدّ من ألم الجوع. وفي الأسفار المعنويّة والسّلوك إلى الله كذلك، يتمّ التعبير عن الكثير من الحاجات بالعطش. لأجل ذلك تمّ التعبير عن ذلك بالمشارب في أحد المقاطع، وفي هذا المقطع بالشرب وقد ذكر شرب الماء العذب الزلال والارتواء منه تحت عنوان أجر السالكين.

فَبِكَ إِلى لَذيذِ مُناجاتِكَ وَصَلُوا، وَمِنْكَ أَقْصى مَقاصِدِهِمْ حَصَّلُوا

ونشير في هذا المقطع من المناجاة إلى آثار ونتائج أنواع الثواب المذكورة للمريدين في السّير والسّلوك، وهي عبارة عن المناجاة المفعمة باللذّة والوصول إلى الأهداف السامية الشامخة.

وقد ورددت كلمة «فَبِك» في البداية لأجل التأكيد على هذا المفهوم التوحيديّ، وهو أنّ سلوك الطّريق والاستفادة من نتائجه، لا تكون إلّا بفضل الله وتوفيقه لا غير. ومن دون إعانته لا يمكن أن يخطو الإنسان خطوةً واحدةً، ولو حصلت حالة المناجاة وحضور القلب فإنّ ذلك من توفيقه تعالى. وإن حصلت الاستفادة منها بحكم: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم»، فيكون التوفيق مضاعفًا أيضًا.

فَيا مَنْ هُوَ عَلَى الْمُقْبِلينَ عَلَيْهِ مُقْبِلٌ، وَبِالْعَطْفِ عَلَيْهِمْ عائِدٌ مُفْضِلٌ، وَبِالْغافِلينَ عَنْ ذِكْرِهِ رَحيمٌ رَؤوفٌ، وَبِجَذْبِهِمْ إِلى بابِهِ وَدُودٌ عَطُوفٌ

في هذا المقطع من المناجاة وبعد كلّ هذا الكلام والمطالب الكثيرة، ينهض إلى ذكر الصّفات الإلهيّة ويقول: «يا رب! يا من تعطف وتعتني بمن يُقبل عليك وتتفضّل عليهم وتُحسن إليهم».

من المهم جدًّا أن يعلم الإنسان أنّه يتكلّم مع من يهتم ويعتني به، فلو علم أنّ الطرف المقابل لا يعتني بكل ما يقوله من البداية وحتّى النهاية فسوف يكون ذلك صعبًا جدًّا ومؤلمًا بالنسبة له. وما هو أعلى من ذلك، هو أنّ الله يعتني بالغافلين عنه ويشمله بلطفه ورحمته ويحسن إليهم ويهيّئ لهم الوسائل والمقدّمات لكي يُقبلوا عليه، وهذا هو مقتضى رحمته ورأفته بأن لا يهمل الغافلين، بل إنّه يجذبهم إليه بشتّى الوسائل، وذلك لئلا يقول العبد:

«حافظ، ليس لك سوى الدعاء فحسب
فلا تكن مهمومًا إن سمع أو لم يسمع»

لهذه المعرفة المرتبطة بتجلّيات صفات الجلال والجمال دورٌ كبيرٌ في إيجاد الإرادة والباعث، وكذلك في الإسراع والتحرّك للوصول إلى مقام القرب الإلهيّ. فلو أراد الإنسان أن يرتبط بأحدٍ ما فإنّه يحتاج إلى أن يُلفت توجّهه إليه. فمثلًا، إذا أراد طالبٌ أن يُلفت نظر أستاذه والحصول على الجواب

الأفضل والأوضح؛ فإنّه يحتاج إلى حركةٍ ما أو سلوكٍ معيّن يجذب به هذا الأستاذ إليه. وكذلك إذا أراد أن يُلفت نظر شخصٍ ثريّ أو مقتدر لأجل الاستفادة من ماله أو قدرته، أو كان هناك شخصٌ من نوعٍ آخر يريد الاستئناس بهذا الشخص، فإنّه يحتاج إلى التصرّف بطريقةٍ خاصّة لأجل الوصول إلى أغراضه المعنويّة أو الماديّة وأمثالها. فلو أدّت هذه التّصرّفات الأوّليّة إلى جلب اهتمام الطّرف المقابل، فسوف يكون الأمر بالنسبة لهذا الإنسان لذيذًا جدًّا وقيّمًا، ويجعل أمره سهلًا ويقرّب طريقه. فمثل هذا الإنسان سيكون محبوبًا جدًّا حيث يمكن بأدنى التفات أن يجذبه إليه.

والآن يمكن أن نفهم قيمة لطف الله وأهمّيّته؛ حيث إنّه من دون أيّ مؤونةٍ، بل بمجرّد أدنى توجّه، يمكن أن يلتفت إلينا ويُقبل علينا، وحتّى أنّه يعتني بأولئك المؤمنين الذي غفلوا عنه بسبب بعض العوامل.

أجل، إنّ الله لا يترك أولئك الذين غفلوا عنه بسبب الإغراءات الدنيويّة والأهواء والوساوس الشيطانيّة وحبّ الجاه والمناصب و... بل يشملهم برأفته وبرحمته ويهيّئ لهم من العوامل والأسباب ما يجذبهم إليه.

نماذج من الألطاف الإلهيّة

من الألطاف الإلهيّة العوامل التشريعيّة؛ أي إرسال الأنبياء عليهم السلام والأوصياء وإنزال الكتب السماويّة إلى جانب العوامل التكوينيّة، التي لا نمتلك معادلاتها ولا نعرف الكثير منها، وحتى أنّنا لا نعتقد بها. إنّ التدبيرات الإلهيّة لأجل جذب الغافلين إلى محضر الله متنوّعةٌ جدًا بحيث لا يمكن عدّها وإحصاؤها. فمن باب المثال نجد الله من بداية ولادة الإنسان قد ألقى العطف والمحبّة في قلب الأب والأم بحيث لو لم تكن هذه العاطفة موجودةً، وخصوصًا في الأم، لانقرض نسل الإنسان. هذه المحبّة هي أداة لأجل بقاء البشريّة، والله بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[1]، يلفت أنظار الجميع إلى هذه النّعمة

---

(١) سورة **لقمان**، الآية ١٤.

الكبرى؛ ذلك لأنّ الإنسان الذي قد تمتّع بمحبّة الأب والأم من اليوم الأوّل، إن لم يلتفت إليها فإنّه لن يلتفت إلى أي محبّة أخرى.

إنّ اللطف الذي جعله الله تعالى في وجود الأب والأم هو أداةٌ لمعرفة الله والتوجّه إليه. فقد جعل الله هذه المحبّة كرشحةٍ من بحر محبّته اللامتناهي، بحيث لو جمعنا كلّ أنواع المحبّة الموجودة في البشر والكائنات منذ بداية الخلقة وإلى يومنا هذا، فلن تكون سوى قطرةٍ في بحر محبّة الله. والآن إذا شاهدت الأم الغفلة من ابنها، فماذا تفعل؟ هل تطرده وتخرجه من المنزل أو أنّها تقتله؟ كلا! إنّ الأم لو قوبلت بخطأ الابن وغفلته، وفي حال لم يكن ذلك عن عمدٍ وعنادٍ منه، فإنّها ستوجّهه إلى خطئه بمنتهى العطف والحنان وتحضنه.

إنّ وجود الزوج أيضًا هو من أنواع الحبّ الإلهيّ، الذي يجعل الحياة وفق هذا التدبير مفعمةً بالسّكينة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

لم نلتفت يومًا إلى الذي جعل مثل هذه المودّة والعاطفة بين الأزواج، ولماذا فعل ذلك. إنّ المحبة التي تكون بين الأصدقاء، أو بين الأستاذ والتلميذ، وغيرها من العواطف الموجودة، ذات الطّبيعة الفطريّة، كلّها دليلٌ على أنّ الإنسان ينبغي أن يلتفت إلى محبّة الله ويصل إلى مبدأ الرّحمة والعطف. ونحن للأسف غافلون عن هذا التّدبير. ولو كنّا نمتلك القدر الكافي لحفظنا احترام الوالدَين، لكنّنا لا نتجاوز هذا المعبر أبدًا.

أجل، لو لم تؤثّر هذه التّدبيرات، فإنّ الله تعالى سيجذب عباده عبر طرقٍ أخرى تمثّل بحدّ ذاتها نوعًا من اللطف والرّحمة. وأحد هذه الطّرق هو حصول تلك البلاءات، ومواجهة الطرق المسدودة، والإخفاقات واليأس من الخلق،

---

(١) سورة الروم، الآية ٢١.

عسى أن يرجع النّاس إليه بمقتضى إيمانهم به: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾[١]. فالله تعالى يوفّر الظّروف التي تجعل الإنسان ييأس من كلّ بابٍ يطرقه فينادي «يا الله»، وهناك سيذوق حلاوة لطف الله وعنايته.

أجل، حين يعطش الإنسان جيّدًا، سيدرك عذوبة الماء، وحين يجوع جيّدًا، سيشعر بلذّة الطعام، وحين يحتاج إلى المحبّة كثيرًا سيدرك لذّة لطف المحبّة، وذلك لأنّ الإنسان لا يدرك قيمة هذه الأمور في الظّروف العاديّة، بل ربما يكون سيّئ الخُلُق مثل ذلك الطّفل الذي يُصبح كذلك بسبب كثرة الدلال.

كلام عن المرحوم القاضي الطباطبائي قدس سره

ينقل المرحوم العلّامة الطّباطبائيّ رحمه الله، عن المرحوم القاضي الطّباطبائي قدس سره أنّه قال: «قد يبتلي الله العبد بالفقر أو المرض العُضال لسنواتٍ مديدة، وذلك حتّى يقول مرّةً واحدة «يا الله». فتوجّهٌ واحدٌ إلى الله قد يكون مفيدًا لنورانيّة الإنسان إلى الدّرجة التي تتطلّب سنواتٍ من تحمّل الصّعاب والآلام والبلاءات؛ وهذا أيضًا من لطف الله حين يبتلي هذا الإنسان في منعطفات ووعورة الحياة لكي ييأس من كلّ شيء، ومن كلّ مكان وينجذب إلى الله».

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٥.



أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَني مِنْ أَوْفَرِهِمْ مِنْكَ حَظًّا، وَأَعْلاهُمْ عِنْدَكَ مَنْزِلًا، وَأَجْزَلِهِمْ مِنْ وُدِّكَ قِسْمًا، وَأَفْضَلِهِمْ في مَعْرِفَتِكَ نَصيبًا

في هذا المقطع من المناجاة نقول: «اللهم إنّني أريد أن أكون في أعلى صفّ من بين هؤلاء المريدين الذي أرغب بالالتحاق بهم، وأن أكون أفضلهم بلحاظ المنزلة والمقام والمعرفة والمحبّة، ولا أريد أن اكتفي بالمستويات المتوسطة والدانية».

وفي الحقيقة من هنا تبدأ روح المناجاة والمعاشقة والمغازلة وبثّ الأسرار.

فَقَدِ انْقَطَعَتْ إِلَيْكَ هِمَّتي، وَانْصَرَفَتْ نَحْوَكَ رَغْبَتي، فَأَنْتَ لا غَيْرُكَ مُرادي، وَلَكَ لا لِسِواكَ سَهَري وَسُهادي، وَلِقاؤُكَ قُرَّةُ عَيْني، وَوَصْلُكَ مُنى نَفْسي، وَإِلَيْكَ شَوْقي، وَفي مَحَبَّتِكَ وَلَهي، وَإِلى هَواكَ صَبابَتي، وَرِضاكَ بُغْيَتي، وَرُؤْيَتُكَ حاجَتي، وَجِوارُكَ طَلَبي، وَقُرْبُكَ غايَةُ سُؤْلي، وَفي مُناجاتِكَ رَوْحي وَراحَتي، وَعِنْدَكَ دَواءُ عِلَّتي وَشِفاءُ غُلَّتي وَبَرْدُ لَوْعَتي وَكَشْفُ كُرْبَتي

نقول في هذا المقطع من المناجاة «اللهمّ! إنّ تمام همّتي[1] لا يريد سواك وليس لي همٌّ واهتمامٌ بغيرك، وإنّ كل همّتي أن أصل إليك وكل ما عدا ذلك أمورٌ فرعيّة وثانويّة».

«اللهم رغبتي تعلّقت بك»، وقد يتعلّق الإنسان أحيانًا بشيءٍ ويكون تعلّقه بلوازم ذلك الشّيء أو مقدّماته أمرًا فرعيًا، حين يصبح التعلّق بأحدٍ ما شديدًا ويستولي على القلب كلّه، فإنّ حبّه لغيره يكون فقط من باب شعاع المحبوب؛ أي لأنّ شعاع محبّة محبوبه يسطع على شيءٍ ما فإنّ هذا الشّيء

---

(١) إنّ معنى الهمّة هو الحبّ والميل مثل كلمة الهوى التي جاءت على لسان إبراهيم ع في القرآن الكريم: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

يصبح محبوبًا عنده أيضًا. بناءً عليه فإنّ محبة أولياء الله التي هي في طول محبّة الله تكون من هذا الباب.

اللهمّ! أنت مرادي ومطلبي ولا تتعلّق إرادتي إلّا بك لا شيء سواك.

اللهمّ! إنّ سهري وسهادي هو فقط لأجلك لا لأجل شيءٍ آخر، كالطمع بالجنّة أو الخوف من جهنّم.

اللهمّ! أنّ قرّة عيني[١] لا تكون إلّا بملاقاتك، وإنّما أصل إلى الطمأنينة الأبدية بلقائك.

اللهمّ! إنّ وصالك هو أمنيتي؛ أي أنّني أتمنّى أن أصل إلى ذلك القرب الذي لا يوجد فيه أي واسطة بيني وبينك.

اللهمّ! إنّ شوقي واشتياقي إليك لا إلى شيءٍ آخر.

اللهمّ! إنّ سروري وابتهاجي هما في محبّتك، وإنّني واله إلى عشقك[٢].

اللهمّ! إنّ صبابتي وهي من مراتب العشق وعشقي لك.

اللهمّ! إنّ رضاك هو مطلبي، وأنا لا أطلب في كلّ هذا السعي والعشق إلا رضاك.

اللهمّ! إنّ لقاءك هو حاجتي ومطلبي.

اللهمّ! إنّ جوارك هو مطلبي.

اللهمّ! إنّ قربك هو منتهى مطلبي.

---

(١) القرّة مشتقةٌ من القرار وهو يعني السكون في مقابل الحركة والاضطراب. وسكون العين كناية عن طمأنينة الرّوح والنّفس لأنّ الإنسان حين يضطرب فإنّ عينيه تنظران يمينًا وشمالًا، أمّا إذا كان هادئًا ساكنًا تسكن عيناه. (غياثي كرماني)

(٢) واله ووالهة كلمتان تُطلقان بأحد المعاني على المحبة التي تؤدي إلى التحيّر حيث لا يدري العاشق ماذا يفعل فإذا وصل إلى هذه المرحلة لا يهدأ ولا يقرّ.



اللهمّ! إنّ سكوني وطمأنينتي وسروري أن أناجيك وليس لي سرورٌ آخر.

اللهمّ! إنّ دواء علّتي في قربك، وأنا كالمريض ليس لي دواءٌ إلا عندك.

اللهمّ! إنّ شفاء ألمي واحتراقي في باطني هو عندك.

اللهمّ! إنّ ما يبرّد روحي العطشى هو عندك.

اللهمّ! إنّ ما يُزيل غصّتي وغمّي بيدك.



فَكُنْ أنيسي في وَحْشَتي، وَمُقيلَ عَثْرَتي، وَغافِرَ زَلَّتي، وَقابِلَ تَوْبَتي، وَمُجيبَ دَعْوَتي، وَوَلِيَّ عِصْمَتي، وَمُغْنِيَ فاقَتي

وفي هذا المقطع من المناجاة نقول:

اللهمّ! حين أكون وحيدًا طريدًا فلا مؤنس لي إلا أنت.

اللهمّ! قلّل من زلّاتي.

اللهمّ! اغفر خطاياي.

اللهمّ! اقبل توبتي.

اللهمّ! استجب دعواتي.

اللهمّ! اجعلني في مقام الحفظ من المعصية لكي لا أُبتلى بالذنوب.

اللهمّ! بدّل حاجتي إلى غنى.

وَلا تَقْطَعْني عَنْكَ، وَلا تُبْعِدْني مِنْكَ، يا نَعيمي وَجَنَّتي، وَيا دُنْيايَ وَآخِرَتي، يا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ

وفي هذا المقطع الأخير من مناجاة المريدين نقول:

يا ربّي! لا تفصلني عنك، ويا ربّي! لا تبعدني عنك، ويا ربيّ! أنت جنّتي ونعميها.

يا ربّي أنت أعلى من كلّ شيء، أنت دنياي وآخرتي وليس لي في هذه الحياة الدنيا إلا أن أسعى إليك.

المحبّة هي المفهوم المحوريّ والأساسيّ في مناجاة المريدين

إنّ من المفاهيم الأساسيّة والمحوريّة في هذه المناجاة، وفي الكثير من المناجاة الأخرى، هو مفهوم المحبّة الذي يُطرح بعباراتٍ مختلفةٍ من قبيل الحبّ والودّ والصّبابة والهوى و... وكمثالٍ على ذلك ورد في مناجاة المحبّين التالي: «وَأَوْرِدْنا حِياضَ حُبِّكَ وأَذِقْنا حَلاوَةَ وُدِّكَ».

كذلك ما ورد في بداية هذه المناجاة: «إلهي مَنْ ذَا الَّذي ذاقَ حَلاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرامَ مِنْكَ بَدَلا».

وفي أثناء هذه المناجاة جاء أيضًا: «هَيَّمْتَ قَلْبَهُ لإرادتك».

وهكذا نجد أنّ مثل هذه التعابير في الأدعية الكثيرة.

وهنا نصل إلى هذا السّؤال: هل أنّ محبّة الله أمرٌ واجبٌ ومفروض أم أنّها مستحبّة ومندوبة؟ وفي الإجابة عن هذا السّؤال ينبغي أن نقول: إنّ

للمحبة مراتب مختلفة. فإحدى هذه المراتب ما يكون من لوازم الإيمان؛ أي أنّه لا يمكن أن يكون الإنسان مؤمنًا بالله ولا يوجد في قلبه أي درجة من المحبّة؛ مثلما أنّ من لوازم الإيمان أداء العمل الصالح، ذلك لأنّ العمل هو من المقولات المختلفة عن مقولة الايمان. فلا يمكن أن يكون الإنسان مؤمنًا، ويقرّر مثلًا أن لا يطيع الله بأيّ وجهٍ من الوجوه؛ مع الالتفات إلى أنّ الإيمان هو أمرٌ اختياريّ، وهو غير العلم، وقد يحصل أيضًا بدون اختيار؛ كما قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[1].

فإن لم يؤدِّ المؤمن أيّ عملٍ صالح، فإنّ إيمانه يكون كاذبًا؛ لأنّ الإيمان يعني الالتزام بالرّبوبيّة الإلهيّة؛ ومن لوازمه قبول الربوبيّة والطّاعة، وإن لم يؤدِّ جميع الفرائض والواجبات، أو أنّه لم يجتنب كلّ المعاصي بسبب ضعف إيمانه.

فالذي يرى كلّ النعم من الله ويعتبر أنّه تعالى هو من يؤمّن حاجاته كيف يمكن له ألّا يحبّه؟ كيف يمكن للإنسان أن يحبّ نفسه، ولكن لا يحبّ مقوّمات وجوده أي من منحه الوجود ومن يؤمّن له حاجات حياته وبقائه؟ إنّ ذاك الأصل التكليفيّ الذي يتعلّق بالإيمان، له علاقة بالمحبّة أيضًا، ويكون واجبًا بصورةٍ تلقائيّة. وإذا تجاوزنا هذه المرحلة، نصل إلى مرتبة أخرى من المحبّة التي تكون عاملًا مانعًا من ارتكاب الذنوب، ذلك لأنّه في بعض الأحيان، يكون حُسن أي عمل ومطلوبيّته ذا بعدٍ آليّ ومقدّماتيّ؛ أي أنّ الإنسان يؤدّي ذلك العمل لأجل الوصول إلى نتيجةٍ ما؛ ولكن من الممكن أن يكون هذا العمل مزاحمًا لرغبات الإنسان، وهنا تُطرح قضية الاختيار والتكليف؛ مثلما أن يكون هناك طعامٌ لذيذٌ ولكنّه مضرٌّ بصحّة الإنسان، فيحتاج هنا الإنسان ليختار ما بين أن يجتنب الطعام اللذيذ من أجل الحفاظ على صحّته أو أن يتناول ذاك الطعام اللذيذ ويهمل صحّته، فهذا الأمر يرتبط بما يحبّ أكثر. في الأحكام الدينية الأمر على هذه الشاكلة أيضًا، فالصوم مثلًا، الذي يحصل فيه اجتناب تناول الطعام أثناء النّهار، يتعارض مع حبّ الإنسان لتناول الطعام. إنّ اختياره

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٣٦.

يرتبط بإيمانه وحبّه لله والآخرة، ذلك لأنّه إن لم يمتلك أيّ إيمان أو محبّة، فإنّه سوف يتناول الطعام. إنّ هذا الحكم يجري في كل المحرّمات والواجبات، وإذا غلبت محبّة الله سُيحجم الإنسان عن ارتكاب المعصية ويتّجه نحو الطّاعة وبالعكس. فلا شكّ أنّ المحبّة إذا كانت قويةً ستؤدّي إلى عدم نسيان المحبوب.

بناءً عليه، إنّ ذلك المقدار من المحبّة الذي يؤدّي إلى فعل الواجب وترك الحرام، له وجوب عقليّ من باب المقدّمة الواجب، وفي هذا المجال يوجد الكثير من الآيات والروايات، كما يقول تعالى بشأن المشركين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[1].

فإنّ هؤلاء يحبّون الأصنام كما يحبّون الله. وهنا تتعارض هاتان المحبّتان كما تتعارض القوى المتساوية التي تتحرّك بالاتّجاهات المختلفة حيث يحصل الاصطكاك والسكون والتّضارب ويمنع من التحرّك. إنّ حبّ الله من لوازم الإيمان، وينبغي أن يكون أكثر من حبّ الآخرين، وإلا عُدّ ذلك نقصًا في الإيمان؛ وكذلك يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

وهذا التّهديد والتّحذير متوجّهٌ إلى أولئك الذين يحّبون آباءهم وأبناءهم وأقاربهم وتجاراتهم ومساكنهم أكثر من الله؛ ففي هذه الحالة ينبغي أن ينتظروا العقاب الشديد. لهذا، فإنّ تحصيل هذا المقدار من المحبّة الإلهيّة، الذي يمكن التغلّب في ظلّه على الشيطان وأهواء النّفس، هو أمرٌ مطلوبٌ، وإن لم نعتبره واجبًا شرعيًا، فإنّ له وجوبًا عقليًّا من باب مقدّمة الواجب.

ولكن ما هو أعلى من هذه المحبّة هو تلك المحبّة التي تؤدّي إلى القيام

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٢٤.

بالمستحبّات، واجتناب المكروهات وحتّى المشتبهات والمباحات، ولهذه المحبّة مراتب مختلفة يصعب تعيينها.

رواية وحكاية جميلة

تبيّن أنّ تحصيل بعض مراتب محبّة الله هو أمرٌ واجبٌ لأنّه يؤدّي إلى الحفظ من الوقوع في المعاصي، وإلى أداء الواجبات. وكلّما كان الإيمان أكثر خلوصًا وأكمل، فإنّ المحبّة ستكون أكثر. يقول الإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال: «لا يُمَحِّضُ رَجُلٌ الايمانَ بِاللهِ حَتّى يَكُونَ اللهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَبيهِ وَأُمِّهِ وَوُلْدِهِ وَأَهْلِهِ وَمالِهِ وَمِنَ النّاسِ كُلِّهِم».

وقد نُقل في هذا المجال قصّةٌ تعليميّةٌ ملهمةٌ ينبغي الالتفات إليها كثيرًا وهي تحكي عن ملاقاة شابٍّ حدث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«سَلَّمَ عَلَيْهِ غُلامٌ دُونَ الْبُلُوغِ بَشَّ لَهُ وَتَبَسَّمَ فَرَحًا بِالنَّبِي صلى الله عليه وآله وسلم، فَقالَ: أَتُحِبُّني يا فَتى؟ فَقالَ لَهُ: اي وَاللهِ يا رَسُولَ اللهِ. فَقالَ مِثْلَ عَيْنَيْكَ؟ فَقالَ: اَكْثَرُ. فَقالَ لَهُ: مِثْلَ أَبيكَ؟ فَقالَ: أَكْثَرُ. فَقالَ: مِثْلَ أُمِّكَ؟ فَقالَ: أَكْثَرُ. فَقالَ: مِثْلَ نَفْسِكَ؟ فَقالَ أَكْثَرُ وَاللهِ يا رَسُولَ اللهِ. فَقالَ: مِثْلَ إلهِكَ؟ فَقالَ: اللهَ اللهَ اللهَ يا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ هذا لَكَ وَلا لأحَد وَإِنَّما أَحْبَبْتُكَ لِحُبِّ اللهِ. فَالْتَفَتَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مَنْ كانَ مَعَهُ، فَقالَ: هكَذا كُونُوا. أَحِبُّوا اللهَ لإحسانِهِ إِلَيْكُمْ وَإِنْعامِهِ عَلَيْكُمْ وَأَحِبُّوني لِحُبِّ اللهِ».

تحليل لهذه الرّواية

التفتوا إلى هذا الفتى الذي لم يبلغ بعد، كم كان يحمل من المعرفة والوعي في نفسه حيث كان ينظر ببشاشة وابتسامة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويسلّم عليه، بحيث أدرك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكلّ الحاضرين معه أنّ وجوده مليءٌ بالعشق والمحبّة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

فيسأله: أيّها الفتى، هل تحبّني؟ والملفت هنا أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يناديه

بالفتى لا بالغلام احترامًا منه وتقديرًا. وبعد أن تلقّى منه جوابًا بالإيجاب؛ سأله: أتحبّني أكثر من عينك؟ أي لو دار الأمر بين أن تبقى عينك سالمةً وأتأذى أنا، أو أن تتلقّى عينك الأذى وأبقى أنا سالمًا، أيّهما ترجّح؟ وإذ بهذا الغلام، الذي لم يبلغ سنّ التكليف بعد، وإلى الآن لم يكن قد أمضى وقتًا طويلًا في ظلّ التربية الإسلاميّة، يُجيب بمثل هذا العشق وهذه المحبة، قائلًا: إنني أحبّك أكثر من عينيّ. أي لو اقتضى الأمر أن أضحّي بعيني وأن يُحفظ الروح المبارك لرسول الله ﷺ، فأنا مستعدٌّ لذلك. والمذهل هنا أنّه حين سأله رسول الله إن كان يحبّه هو أكثر أم الله، تعجّب قائلًا: وهل يمكن أن يحبّ المرء أحدًا أكثر من الله؟ وأجاب: أنا أحبّك لأنّني أحبّ لله، وأحبّ الله لجزيل إحسانه إليّ. فهنا يوصي رسول الله ﷺ أصحابه أن يكونوا مثل هذا الفتى فلا يحبّونه بنحوٍ مستقلّ في مقابل الله، بل أن يحبّوه حبًّا لله.

وهكذا نجد كيف أنّ الإسلام يربّي مثل هذا الفتى الناشئ بين أولئك الجهلة ليكون قدوة في المعرفة للكبار والشيوخ.

لهذا، لا ينبغي مقارنة حبّ الله مع أي شيء آخر. فهذه هي الدرجة الأولى من المحبّة، وهي أعلى بقليل من الحدّ الواجب؛ حتى أنّه يمكن للإنسان أن يقدّم إرادة الله على إرادته في الموارد المستحبّة أو حتى إرادة صديقه أو زوجته أو ابنه[1].

وكما بيّنّا سابقًا، يمكن للمحبّة الإلهيّة أن تكون بالذّات أو محبّة بالغير (تبعيّة)؛ أي يمكن للإنسان أحيانًا أن يحبّ الله فقط وفقط لأجل الله، لا لأجل نعمه وألطافه. فلو فرضنا أنّ الله لم يعطه أيّ نعمة، فإنّه يبقى يحبّه. ولكن أحيانًا أخرى، يمكن للإنسان أن يتوجّه في البداية إلى النّعم من قبيل

(١) بالطبع، يمكن في بعض الموارد أن يرجّح الإنسان إرادة الآخرين على إرادة الله بسبب حكم إلهيّ. على سبيل المثال، يكون الصوم المستحب مرادًا لله تعالى ولكن لو طلب أخوه المؤمن منه أن يفطر فهنا يجب أن يقدّم إرادة هذا الأخ المؤمن على إرادة الله وذلك لأنّها في سياق حكم الله وحبه المبنيّ على إدخال السرور على قلب المؤمن والذي يكون له ثوابٌ أكبر.



الطعام والمسكن والزوج والأولاد و... ولأنّ الله قد أعطاه إيّاها فسوف يحبّه، فتكون محبّته في البداية متعلّقةً بالنِعم، ومن ثمّ تسري إلى الله. وبعدها حين يفكّر فإنّه سوف يحبّ الله أكثر من النِعم. بناءً عليه، حين يحصل التّعارض والتّزاحم، سيقدّم إرادة الله. وبالتعبير العلميّ تكون محبّة الله تابعةً لمحبّة الخلق أي النّعمة؛ ومن ثمّ فإنّه يلتفت شيئًا فشيئًا إلى أنّ محبّة وليّ النعمة، الذي هو ثابتٌ، هي أفضل من محبّة النّعم التي هي أمور متغيّرة.

أيّها العزيز هل الشكر أفضل أو من صنعه؟
أيّها العزيز هل القمر أفضل أو من خلقه؟

أمّا أعلى مراتب المحبّة فهي حين يتفكّر الإنسان بشأن الكمالات الإلهيّة؛ ولأنّه في فطرته عاشقٌ للحُسن والكمال فإنّه سوف يحبّ صاحب تلك الكمالات. فلو أنّ إنسانًا عرف الكمالات الذاتيّة والصّفات الجلاليّة والجماليّة الإلهيّة والمخلوقات كمظاهر للكمال الإلهيّ، بحيث لم يعد يرى لأي شيء كمالًا مستقلًّا بذاته، بل يرى كل شيء انعكاسًا لوجه المحبوب ومصداقًا لكمالاته، مثلما جاء في أدبيّات وأشعار العرفاء، فإنّ محبّته لله ستكون بالذات وللكمالات الأخرى بالتبع وبالغير. ولأن هذه الصّفات الكمالية موجودة دائمًا في الله ولا يمكن أن تزول، فإنّ حبّه لله يكون دائميًّا، في حين أنّ حبّه لإنسانٍ سخيٍّ سيبقى طالما أنّ هذا السّخاء موجودٌ فيه، وما إن يزول هذا السّخاء من وجوده سيزول معه الحبّ. إذًا، من المعلوم أنّ متعلّق الحبّ في الأصل هو للسّخاء الذي يُعدّ كمالًا، وكذلك الأمر بالنسبة للكمالات الأخرى، كالجمال والشجاعة، فإنّ لها الحكم نفسه.

وبما أنّ صفات الله هي عين ذاته، ولا يوجد تعدّدٌ في الحيثيات فيما يتعلّق بالله، فلو عرف الإنسان ربّه جيّدًا لا يمكن أن يقول إنّني أحبّ ذات الله لأنّني أحبّ صفته أو أن يقول إنّني أحبّ صفته ولكن لا أحبّ ذاته. فبالنسبة لأمثالنا ممّن لديهم هذه المعرفة والإيمان الناقصان، فإنّنا نحبّ الله بالذات ونحب الكمالات الأخرى بالغير وبالتّبع. ولكن هناك أشخاصٌ يرون كل هذا الجمال وكل هذه الصّفات الحُسنى أشعّة كمال الله. المسألة هنا ليست مسألة تبعيّة، كما

جاء في دعاء عرفة: «إلهي أَنْتَ الَّذي أَشْرَقْتَ الْأَنْوارَ في قُلُوبِ أَوْلِياءِكَ حَتّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ وَأَزَلْتَ الْأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبّائِكَ حَتّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ».

أجل، فهؤلاء قد رأوا حتّى النبيّ الأكرم ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام جلوةً من كمال الله، ولهذا يحبّون الله ويحبّون هذه التجلّيات الإلهيّة. رغم أنّ تحصيل هذه المرتبة من المحبّة غير واجبٍ، ولكن من الجدير أن يكون الإنسان بصدد الوصول إليها وأن يدرك مقام القرب الإلهيّ، وإذا ما وُفّق لذلك فإنّه لن يكون من الممكن بعدها مقارنة مثل هذا التوفيق بأيّ توفيقٍ في هذا العالم.

وقد جاء في الحديث القدسي[1] أنّ الله خاطب نبيّه داوود عليه السلام قائلًا: «يا داوُدُ... تَواضَعْ لِمَنْ تُعَلِّمُهُ وَلا تُطاوِلْ عَلَى الْمُريدينَ، فَلَوْ عَلِمَ أَهْلُ مَحَبَّتي مَنْزِلَةَ الْمُريدينَ عِنْدي لَكانُوا لَهُمْ أَرْضًا يَمْشُونَ عَلَيْها»[2].

نقطتان مهمّتان

توجد نقطتان في هذا الحديث القدسيّ:

١- يظنّ الإنسان في البداية أنّ المُراد من المريدين في هذا الحديث هم مريدو النّبيّ داوود عليه السلام، وأنّ الله يوصي نبيّه بهم. ولكن بالتأمل يمكن أن ندرك أنّ المقصود هم أولئك الذين أرادوا القرب الإلهيّ وإن لم يقطعوا لحدّ الآن المراتب والمراحل الكثيرة، وقد أوصى الله تعالى نبيّه باللطف والرّحمة وعدم التشدّد معهم.

٢- في قوله «أرضًا يمشون عليها»، لم يشاهَد مثل هذا التعبير في أيّ روايةٍ أخرى. وهذا التعبير عالٍ جدًّا وبليغ، ويُفهم منه أنّ التواضع والتذلّل

---

(١) إنّ الحديث القدسي هو وحيٌ غير تشريعي إلى الأنبياء عليهم السلام، وذلك لأنّ الله كلّم أنبياءه على نحوين: أحدهما ما كان مرتبطًا بالشريعة، والآخر ليس بعنوان رسالة إلى الناس بل بعنوان حديث ومناجاة. وقد نُقل في كتبنا الروائية مثل هذه الأحاديث القدسيّة. وقد جمع صاحب **وسائل الشيعة** (الشيخ الحرّ العاملي) كتابًا مستقلًا في هذا المجال يحتوي على جميع تلك الأحاديث القدسية. والأنبياء، الذين خاطبهم الله تحت عنوان "الحديث القدسي" كثيرون وكان عيسى ابن مريم عليهما السلام وموسى عليه السلام وداوود عليه السلام من هؤلاء الأنبياء.

(٢) الملّا محسن فيض الكاشاني، **المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء**، الجزء ٨، صفحة ٦٢.

لمريدي طريق الله هو من المسؤوليات المهمّة الملقاة على عاتق الأنبياء العظام مثل داوود عليه السلام.

وقد جاء في حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْمُحِبُّ أَخْلَصُ النّاس سِرًّا للهِ وَأَصْدَقُهُمْ قَوْلا وَأَوْفاهُمْ عَهدًا... بِهِ يُعَمِّرُ اللهُ تَعالى بِلادَهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُمُ الْبَلايا بِرَحْمَتِهِ. فَلَوْ عَلِمَ الْخَلْقُ ما مَحَلُّهُ عِنْدَ اللهِ وَمَنْزِلَتُهُ لَدَيْهِ ما تَقَرَّبُوا إِلى اللهِ إِلّا بِتُرابِ قَدَمَيْه»[1].

والنّقطة المهمّة في هذه الرّواية هي أنّ الوسيلة الوحيدة للتقرّب إلى الله قد ذُكرت تحت عنوان: «تُراب أقدام عباد الله المحبين لله»، فلو قال: «لَتَقَرَّبُوا إِلَى اللهِ بِتُرابِ قَدَمَيْهِ»، لعلمنا أنّ هناك وسائل أخرى للتقرّب وإحداها هي تراب أقدام المحبّين، ولكن بحسب التّعبير الوارد في هذا الحديث المذكور يتّضح أنّه لا توجد وسيلةٌ أخرى فاعلة.

ألا تكفي هاتان الرّوايتان ليتجرّع الإنسان من هذا البحر العظيم للطف الله وعنايته؟

وقد ورد أيضًا في روايةٍ أخرى: «إِنَّ اللهَ تَعالى انْزَلَ في بَعْضِ كُتُبِهِ: عَبْدي! أَنَا وَحَقّي لَكَ مُحِبٌّ، فَبِحَقّي إِلَيْكَ كُنْ لي مُحِبّا»[2]. ولو كانت هذه الرواية بهذه الألفاظ ولم يحصل فيها أي تصحيف، لكانت بهذا المعنى الذي ذُكر. ولكن لعلّها هي بهذه الصّورة اللفظية: «أَنَا وَحَقِّكَ عَلَيّ لَكَ مُحِبٌّ، فَبِحَقّي عَلَيْكَ كُنْ لي مُحِبّا».

وهذا التّعبير يتضمّن لطفًا أكثر من التّعبير الأوّل، ذلك لأنّه في هذه الحالة يكون الله قد أعطى النّاس حقًا، وهو يُقسم بهذا الحقّ كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٦٧، صفحة ٢٣.

(٢) **إرشاد القلوب**، الديلمي، الجزء١، صفحة ١٧١.

(٣) سورة **الروم**، الآية ٤٧.

آثار المحبّة الإلهيّة

قد أُشير في بعض الرّوايات إلى آثار المحبّة ونتائجها، كما ورد في حديثٍ قدسيّ: إنّ الله تعالى خاطب نبيّه موسى عليه السلام قائلًا: «يَا ابْنَ عِمْرانَ! كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّني فَإذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نامَ عَنّي. أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبيبِهِ؟»[١].

فهل يكون الإنسان صادقًا إذا ادّعى المحبّة ولكنّه ينام الليل كلّه ولا يذكر محبوبه فيه؟

وقد جاء في روايةٍ أخرى أنّ الإنسان حين يقوم في الليل للصّلاة فليدعُ ببعض الأدعية ومنها: «الهي غارَتْ نُجُومُ سَمائِكَ، وَنامَتْ عُيُونُ أَنامِكَ، وَغَلَّقَتِ الْمُلُوكُ عَلَيْها أَبْوابَها وَطافَ عَلَيْها حُرّاسُها، وَخَلا كُلُّ حَبيب بِحَبِيبِهِ، وَأَنْتَ الْمَحْبُوبُ إلَيّ»[٢].

أجل، حين يقوم الإنسان من فراشه النّاعم والدافئ وينظر إلى السّماء ويرى آيات الله، فسوف يترنّم لسانه قائلًا: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣]، فيخلو حينها بمحبوبه.

على أيّ حال، فإنّ العلامة البسيطة للمحبّة هي أنّ المحبّ يحبّ سماع اسم محبوبه كثيرًا وأن يتوجّه إليه كثيرًا. فهذا اختبارٌ جيّدٌ. فلو أنّ الإنسان شعر بالبهجة والسّعادة عند سماع اسم الله، وأصغى أكثر ليسمع أكثر ولا يسأم، فهذا علامة على أنّه يحبّ الله. لكن إذا لم يكترث وتعب بسرعة وسئم من سماع الكلام الإلهيّ، فمن الواضح أنّ محبّته ضعيفة أو أنّها تقارب الصّفر.

إنّ الذي يحبّ الله سوف يحبّ كل ما ينتسب إلى الله مثل الكعبة (بيت الله الحرام) وسائر المساجد، وحين يدخل إليها فإنّه يصلّي ركعتَي التحيّة ويفرح ويبتهج بمشاهدة بيت محبوبه.

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ١٣، الباب ١١، الرواية ٧، صفحة ٣٢٩.

(٢) **شرح الأخبار**، الجزء ٣، صفحة ٢٥٥.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٩٠.

إنّ الـذي يحبّ الله يحبّ أولياء الله وحرمه وعتباته كما نقول في الزيارة: «مَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ. مَنْ أَرادَ اللهَ بَدَءَ بِكُمْ...»[١]. ذلك لأنّ أعمق مطالب أيّ حبيب هو أنّ نحبّ محبوبه. فالمُحبّ يصبح أكثر ابتهاجًا حين يشعر أنّهم يحبّون حبيبه، وهو يحبّ كلّ علامةٍ وصورةٍ واسمٍ يُظهر هذا المحبوب ويقدّسها.

فكلّ حديثٍ وإشـارةٍ وعينٍ ويدٍ وفعلٍ وهديةٍ تأتيه من المحبوب فإنّه يُقدّرها ويُظهر محبّته لها. فعلى سبيل المثال، إنّ الهديّة بذاتها قد لا تكون ذات قيمة لكنّها تصبح كذلك إذا انتسبت إلى المحبوب.

إنّ الذي لا يفعل شيئًا من أجل أن يحبّه الله، لا يكون صادقًا في ادّعاء محبّته. والآن يجب أن نرى من هم الذين يقول عنهم الله تعالى: إن قمتم بهذا الفعل، فإنّني سأحبّكم. هل هم أولئك الذين لا يهمّهم إن أحبّوا الله أم لم يحبّوه؟ فهل هم أولئك اللامبالون؟ كلا. بالطبع، إنّ الله لا يقول لأمثال هؤلاء مثل هذا الكلام، بل إنّ كلامه هذا هو لأولئك الذين يريدون أن يحبّهم الله.

محبوبو الله

لقد ورد في القرآن وفي موارد عديدةٍ ملاكات وعلامات للمحبّة الإلهية، وهي عبارة عن:

١- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[٢].

الملفت هنا هو أنّه لم يقل التائبين، ذلك لأنّ الإنسان لا يذنب مرّةً واحدةً في عمره حتّى يجبرها بتوبةٍ واحدة، بل هو يعصي ويذنب باستمرار، وعليه أيضًا أن يتوب باستمرار. وهذا هو فخّ الشيطان الذي يقول للإنسان بعد أن يفسخ توبته مرّاتٍ عدّةً إنك لست من أهل التوبة. لكنّ الله تعالى يقول

(١) الزيارة الجامعة.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٢٢.

إنّني أحب أولئك الذين يتوبون كثيرًا، أي أنّ الله يحبّ للإنسان أن يتوب عند كلّ زلةٍ ولا يخجل من ذلك.

٢- ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]..

إنّ التّطهير يبدأ من الطّهارات الظّاهريّة ومن الطّهارات الشّرعيّة كالوضوء والغسل، وخصوصًا الأغسال المستحبّة، لكي يصل إلى الطّهارة القلبيّة التي لا نهاية لدرجاتها، فالله يحبّ أولئك الذين يطهّرون قلوبهم من الحقد وسوء الظنّ والشرّ تجاه الآخرين و...

٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[2].

من الفئات التي يحبّها الله أولئك المجاهدون الذين يقاتلون في سبيله بإخلاصٍ وجدّيّةٍ ويُضحّون بأنفسهم بسخاءٍ ومنتهى الجود ويجعلون كلّ وجودهم في سبيل الله.

وفي هذا المجال توجد آياتٌ أخرى أيضًا لكنّنا نكتفي بهذا المقدار[3].

ونتوقّف فقط عند روايةٍ منقولةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «طَلَبْتُ حُبَّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَوَجَدْتُهُ في بُغْضِ أَهْلِ الْمَعاصي»[4].

وعلى أساس هذه الرّواية إذا أراد شخصٌ ما أن يحبّ الله ويحبّه الله، عليه أن يبغض أعداء الله ويعادي أهل المعصية، ذلك لأنّه لا يمكن أن يحبّ

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٢٢.

(٢) سورة **الصف**، الآية ٤.

(٣) كمثالٍ على ذلك الآية ١٨٥ من سورة **البقرة** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ الآيتان ١٤٨ و١٣٤ من سورة **آل عمران**، والآية ١٣ من سورة **المائدة**؛ والآيتان ٩٣ و٧٦ من سورة **آل عمران**، والآيتان ٤ و٧ من سورة **التوبة**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ والآية ١٤٦ من سورة **آل عمران**: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ والآية ١٥٩ من سورة **آل عمران**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾؛ والآية ٤٢ من سورة **المائدة**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ وراجعوا الآية ٩ من سورة **الحجرات**، والآية ١٠ من سورة **الممتحنة**.

(٤) **ميزان الحكمة**، الجزء ١، صفحة ٥٠٤.

أولياء الله وأعداءه معًا. بالطّبع المقصود من العُصاة ها هنا، ليس أولئك الذين يقعون أحيانًا في الغفلة والخطأ بل عليه أن يُحسن إلى أمثال هؤلاء ولا يبخل في هدايتهم وإرشادهم، وإنّما المقصود هم العُصاة الذين نهضوا لعداوة الله.

ماذا نفعل لكي نكون محبّين ومحبوبين عند الله؟

من الأسئلة الدّائمة التي يطرحها بعض المحبّين للسّلوك، وخصوصًا المحبّين الأعزّاء، هي أنّه ما الذي ينبغي أن نفعله لأجل زيادة محبّة الله ولكي نصبح من المحبوبين عنده؟

وفي الجواب عن هذا السّؤال، لو أردنا أن نعرض كلامًا تعبّديًّا ونقليًّا فسوف يتّسع الأمر كثيرًا. ويوجد الكثير من الآيات والروايات في هذا المجال. ولكن نقول تحت عنوان أصلٍ كلّيّ مؤيَّدٍ بالتجارب الشخصيّة أيضًا في أنواع المحبّة العادية:

كلّما تفكّر الإنسان في محاسن أيّ شخصٍ فسوف يحبّه أكثر.

وفي الحديث القدسيّ جاء أنّ الله خاطب نبيّه داوود عليه السلام قائلًا: «حبّبني إلى خلقي. فسأله داوود عليه السلام وكيف أفعل ذلك؟ فقال الله: اذكر آلائي ونعمائي»[1]. فالإنسان يحبّ بفطرته كل من يُحسن إليه ويتفضّل عليه. لهذا كلّما تفكّر الإنسان بشأن النّعم الإلهيّة وبالصّفات، التي هي منشأ هذه النّعم، فسوف يزداد حبّه لله، مثلما أنّ النّاس كانوا يحبّون «حاتم الطائي» بسبب سخائه في حين أنّهم لو انتفعوا من سخائه هذا لأحبّوه أكثر.

---

(١) عَنْ إِسْرَائِيلَ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِدَاوُدَ عليه السلام: أَحِبَّنِي وَحَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي قَالَ يَا رَبِّ نَعَمْ أَنَا أُحِبُّكَ فَكَيْفَ أُحَبِّبُكَ إِلَى خَلْقِكَ؟ قَالَ: اذْكُرْ أَيَادِيَّ عِنْدَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا ذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُمْ أَحَبُّونِي. [**بحار الأنوار**، الجزء ١٤، صفحة ٣٨]؛ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عليه السلام: حَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي وَحَبِّبْ خَلْقِي إِلَيَّ؛ قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَفْعَلُ؟ قَالَ: ذَكِّرْهُمْ آلَائِي وَنَعْمَائِي لِيُحِبُّونِي... [**مستدرك الوسائل**، الجزء ١٢، صفحة ٢٤٠].

فلو فهم الإنسان أنّه غارقٌ في بحر نعم الله، وأدرك مدى العون الذي يصله منه، وكيف أنّ الله حفظ سمعته في أماكن ومواطن كثيرة، وما دفع عنه من البلاءات، وما دلّه عليه من طرق الخير، وما جنّبه من مقدّمات الذّنوب والأخطاء و... فلا شك أنّ حبّه له سيزداد أكثر فأكثر.

بناءً عليه، فالجواب عن السؤال المذكور هو أنّ على الإنسان أن يقوم بهذَين الفعلَين لأجل زيادة محبّته لله:

١- أن يتعرّف إلى محاسن وكمالات ونِعَم الله، والتي هي دون أي مبالغة آلاف وملايين ومليارات: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها».

يجب أن يبحث الإنسان عن كلّ علامات الله وآياته في حياته لكي يسطع في قلبه نور محبّة الله شيئًا فشيئًا.

٢- أن يركّز ويتوجّه بعمق نحو هذه المحاسن والكمالات والنِعَم، ذلك لأنّ الإنسان قد يُبتلى بالغفلة بسبب مشاغل الحياة وابتلاءاتها. فلو أحبّ المرء إنسانًا وابتعد عنه، بعد مدّةٍ فإنّ هذه المحبة والعاطفة ستقلّ شيئًا فشيئًا، وبحسب القول المشهور «بعيدٌ عن العين بعيدٌ عن القلب». فالإنسان بسبب هذه الابتلاءات اليوميّة، والمشاغل الحياتيّة، والغفلات التي يقع فيها، يغفل أيضًا عن محاسن وكمالات الله ونعمه؛ وهكذا تقلّ المحبّة في القلب. ولكن لو توجّه الإنسان دائمًا إلى هذه الصّفات، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى اشتعال شعلة جذوة المحبّة في القلب وازديادها.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا جميعًا لكي نشرب من كأس محبّة الله ولطفه اللامتناهي وأن ينوّر قلوبنا بنور معرفته ومحبّته.

آمين

وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.



روائع المناجاة

شرح المناجاة الشعبانية ومناجاة المريدين

سنكون في هذا الكتاب مع وقفةٍ تأمليةٍ مع موضوعة المناجاة، التي شكّلت مصدرًا أساسيًا من مصادر تشكيل الوعي الديني عند الإنسان المؤمن، وعاملًا مركزيًا من عوامل تحديد أُطر العلاقة بينه وبين ربّه، وذلك لما تمثّله المناجاة من مستند يقدّم حال المعصوم ومقاله في إزاء تخاطبه مع الله سبحانه وتعالى.

وعلى وجه التخصيص، فإننا سنكون مع "المناجاة الشعبانية" و"مناجاة المريدين"، حيث يقدّم الكتاب مجموعة دروس للمؤلف حفظه الله، قدم فيها بشكل متسلسل شرحًا للمناجاة الشعبانية، ومجموعة أخرى قدمها في شرح مناجاة المريدين.

نأمل لهذا الكتاب أن يكون معينًا للسائرين من المؤمنين على درب الحبيب، ورافدًا لهم في حركتهم.





دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah



إِلٰهي تَوَلَّ مِنْ أَمْرِي ما أَنْتَ أَهْلُهُ، وَعُدْ عَلَيَّ بِفَضْلِكَ عَلى مُذْنِبٍ قَدْ غَمَرَهُ جَهْلُهُ

اللهمّ! إنّ مقتضى عمري من الذنوب والمعاصي هو أن تعاقبني وذلك لأنّ الرد على العصيان ليس التكريم والثواب، لهذا فإنّني لا أليق للثواب بل ينبغي أن أعاقَب، ولكنّك أهل الإحسان والكرم والصفح، فإن عفوت لن يعترض عليك أحد، فاجعل يا ربّي أموري وعاقبة أمري بما أنت أهله. يا ربي عاملني بمقتضى كرمك وعطفك وليس بمقتضى ذنوبي.

وفي هذا الموضع تُعرض على الإنسان حالة الانبساط والأنس والرّجاء، وذلك لأنّ أحوالنا مختلفة ومتنوّعة، فمنها ما يقتضي أن نتوّجه إلى أسماء الجلال، ومنها ما يقتضي التوجّه إلى أسماء الجمال. فمثلًا حين يُبتلى الإنسان بعدوٍّ ظالمٍ فإنّه يتوجّه إلى قاهريّة الله وجبّاريّته فلا يقول: «يا ربّي العطوف»، بل يقول: «يا ربّي القهّار والمنتقم انتقم من هذا العدوّ». وحين يطلب منه الرحمة والعفو فإنّه يذكّره باسمَي «الغفور والرحيم».

ونظرًا لأنّ دعاء الجوشن الكبير يحتوي على أسماء الله المختلفة، فله مثل هذه الجامعيّة الخاصة. إنّ أكثر من نصف المناجاة الشعبانية هي طلبٌ للطهارة من الأرجاس، والباقي منها هو ذكرٌ لكمالات الله وصفاته الحسنى على أمل إفاضة البركة والرحمة. فالقسم الأوّل يُهيّئ الأرضيّة، لأنّ أكثر كلمةٍ تُستعمل فيه هي العفو ومشتقاتّه.

حين نقول: «يا جواد يا صاحب الجود»، يتوجّه ذهننا إلى هذه الصفة الإلهية، لهذا نقول: يا جواد! إنّ جودك قد زاد من رجائي ووسّع من أملي.

إنّ للإنسان أملًا بالمقامات والكمالات واللّذات والأفراح (ما كان منها واقعيًا أو وهميًا). إنّها آمالٌ محدودةٌ، وذلك بالالتفات إلى الظروف الخارجية، لأنّها إن لم تكن متناسبةً مع الظروف الخارجية فلن تكون محلّ استحسان العقل والعقلاء، بل ستكون محلّ استهزائهم. فلو تمنّى أحدٌ أن يكون كائنًا له جناحٌ يُغطّي شرق العالم، وجناحٌ يغطّي ويظلّل غربه، فمثل هذا التمنّي أحمق، لأنّ الظروف الخارجية للإنسان لا تتناسب مع مثل هذه الأمنية. لهذا، يجب أن تتناسب الأمنية مع الظروف الخارجية وإن كان تحقّقها يحتاج إلى زمنٍ طويلٍ. أمّا لو افترضنا للإنسان ظروفًا، خلاف هذا العالم المحدود، ولها مبدأٌ ومنبعٌ غير محدودٍ، كأن لا ينقص منه شيء مهما أعطى وجاد، وإذا أراد ان يؤدّي أيّ فعلٍ فلا يجد أمامه أيّ مانعٍ، فإنّ طلب الحاجات الصغيرة والحقيرة في مثل هذه الظروف لن يكون حسنًا.

فلو كنتم تقفون بجانب بحرٍ عظيمٍ وتمنّيتم الحصول على كوبٍ من الماء، فسيكون هذا أمرًا مستغربًا! وكلّ من يسمع بذلك سيقول: لا أحد يطلب مثل هذه الأمنية، فأنت تستطيع أن تأخذ من هذا البحر ما تريد.

والآن التفتوا إلى بحر لطف الله اللامتناهي الذي: «لا تزيده كثرة العطاء إلا جودًا وكرمًا».[1] فهنا لا ينبغي أن تجعلوا أمنيتكم محدودةً، لأنّ بحر رحمته لا ينقص ولا تعرض عليه سبحانه أي حالةٍ من التعب أو صرف الطاقة، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

ففي هذا المقطع من الدّعاء، يظهر أمامنا مطلبٌ جديد وهو أنّ الله يتفضّل على العصاة الذين ارتكبوا المعصية بسبب الجهل وهم يسيرون على غير هدًى، فاجعل يا الله ذاك الفضل الذي حففت به هؤلاء العصاة الجاهلين متوجّهًا إليّ أيضًا.

لا شكّ بأنّ جميع المعاصي تنشأ من الجهل، ولكن ليس الجهل بأصل المعصية بل بنتائجها وتبعاتها، لأنّ أغلب المعاصي التي نرتكبها ناشئةٌ من

---

(١) **مفاتيح الجنان**، دعاء الافتتاح.

(٢) سورة **يس**، الآية ٨٢.

جهلنا بنتائجها؛ فلو أدرك الشخص مدى حرمانه من السعادة بسبب ارتكابه لهذا الذنب أو ذاك، ولو أنّه أدرك ما سيناله من سعادةٍ لو سلك طريق العبودية، فلن يرتكب المعصية. ذاك الذي يسعى وراء المخدّرات، لو علم في تلك اللحظة ما هي الآثار الوخيمة وما الذي سيحلّ بحياته وكيف أنّه سيسقط في الهاوية ويخسر سمعته ويُسلب القدرة على العمل والحياة، فإنّه لن يُقبل على هذا الفعل السفيه بأيّ شكل.

فهو على الرغم من أنّه يعلم بأنّ هذا الفعل هو فعلٌ قبيحٌ، لكنّه في البداية يريد أن يطعمه ليرى أيّ لذّةٍ له تجعل البعض يندفعون إلى سلوك طريق الإدمان والمخدرات. بدايةً يحصل على لذّةٍ عابرة وشيئًا فشيئًا يدخل إلى ذاك المحلّ الذي يصعب الخلاص منه بعدها.

إذًا لقد غاص العاصي في الجهل وهو لا يعلم عواقب وتبعات معصيته، ولا يعلم أنّ المعصية تؤدّي إلى الكفر والإنكار بحيث إذا وضعوه على حبل المشنقة فإنّه لا يكون مستعدًّا لطلب العفو. ولعلّه قد كان من أهل الصلاة والعبادة في النّهار وإحياء الليل أيضًا، إلّا أنّ المعصية قد جرّته إلى مثل هذا اليوم. أجل، إنّ مثل هذا الشخص لا يمكن أن يُغفر له لأنّ المغفرة ستكون هنا خلاف الحكمة ومبطلة لفلسفة الخلقة، حيث يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾[1].

بناءً عليه، لو غفر الله لمثل هؤلاء الذين ليسوا مستعدّين لطلب العفو والاعتذار بأي شكلٍ من الأشكال، فإنّه يكون قد نظر إلى هؤلاء وإلى أولئك الذين ارتكبوا المعصية عن غفلةٍ بعينٍ واحدةٍ، وهذا خلاف الحكمة الإلهيّة. إنّ الجهل الذي يؤدّي إلى المعصية وقد عاد صاحبه إلى نفسه الآن وهو يطلب العفو، فإنّه قابل للعفو، وهذا الرجاء قد وُجد فيه نتيجة طلبه للعفو.

إذًا، يتم الاستناد في هذا المقطع، بالإضافة إلى الإقرار بالذنب وطلب

---

(١) سورة **الملك**، الآية ٢.

الرحمة، وهو ما أشير إليه في المقاطع السابقة أيضًا، يتمّ الاستناد إلى عنصر الجهل، ويقول إنّي وإن كنت قد عصيت وأستحقّ العقاب إلّا أنّ ذلك كان بسبب جهلي فليشملني فضلك.



إِلـهي قَدْ سَتَرْتَ عَلَيَّ ذُنُوبًا في الدُّنْيا وَأَنا أَحْوَجُ إِلى سَتْرِها عَلَيَّ مِنْكَ في الأُخْرى، إِذْ لَمْ تُظْهِرْها لأَحَدٍ مِنْ عِبادِكَ الصّالِحينَ، فَلا تَفْضَحْني يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى رُؤُوسِ الأَشْهادِ

اللهمّ! إنّني أقرّ بالمعصية، وأنت الكريم الذي كنت تستر عليّ طوال عمري ولم تفضحني، لكنّ احتياجي إلى ستّاريّتك في الآخرة هو أشدّ، لأنّني إذا فُضحت في الدّنيا فسوف يرتفع عنّي عذاب الآخرة، وإن لم تكن لتفضحني أمام الخلق وتكشف مستوري أمام من هم مثلي الآن، فاجعل ستّاريّتك دائمةً عليّ في الآخرة لأنّ حاجتي إليها هناك ستكون أكثر ممّا هي عليه في الدنيا.

وهـذا المقطع من الدّعاء يرتبط أيضًا بطلب الرّحمة، ولا خبر فيه عن الاستدلال والبرهان والجدل، حتّى يقول لقد سترت عليك ذنوبك في الدّنيا حتى تخجل، لكنّك أسأت الاستفادة من ذلك، لذا، فيجب الآن أن أعاقبك؛ فمنطق الاسترحام لا يحكم بذلك.

يمكن إضافة نقطة جديدة هنا بالإضافة إلى النقاط المذكورة في المقاطع السابقة، وهي عبارة عن: اللهمّ! إنّك لم تكشف مستوري في هذه الدنيا لأيّ أحدٍ من عبادك الصالحين، فإذا فضحتني في الآخرة، فسوف يُهرق ماء وجهي أمامهم. فلو أذنب الإنسان في الدنيا وعلم أصدقاؤه بذلك ولم يهتمّ، فذلك لأنّ هؤلاء أقرانه وعشيرته؛ ولكن إذا علم بذلك من هم من أهل الصلاح، الذين لا يقترفون مثل هذه الأفعال، فإنّه سيخاف، والله يتلطّف ولا يُهرق ماء وجهه

أمام الصالحين في الدنيا حتّى لا يوبّخوه، ولكن في الآخرة فإنّه سينكشف حسن وقُبح الجميع. هناك سيرى أهل الجنّة أهلَ النّار، ولا يدخل أحدُ الجنّة أو جهنّم خلسةً: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[١].

فإذا لم يستر الله عيوب الإنسان في الآخرة، سيعلم الجميع أنّه كان شخصًا سيّئًا. أحيانًا، لا يرغب الإنسان بأن يطّلع على أعماله القبيحة أحد، حتّى لو كان طفلًا صغيرًا، ولكن يوم القيامة حيث يُحشر جميع الخلائق من بداية الخليقة وإلى يومنا هذا في ساحة الحشر، فإنّ فضيحة ذلك اليوم ستكون أشدّ سوءًا بآلاف المرّات من فضيحة الدّنيا، لذلك فإنّ حاجته إلى ستّاريّة الله هناك أكثر بكثير منها في الدنيا. بناءً عليه، يتمّ التركيز في هذا المقطع على نقطةٍ أخرى، إلى جانب النقاط السابقة، وهي وخامة الفضيحة في الآخرة مقارنةً بالدنيا لأنّ جميع الناس سيدركون ماهية هذا الإنسان.

وما دام الأمر لا يخالف الحكمة، فإنّ الله لا يمسك رحمته لأجل ذلك. إنّ أولئك الذين يعذّبون في البرزخ أو يوم القيامة بسبب شدّة معصيتهم فإنّهم في النهاية ينالون الشفاعة. يقول رسول الله ﷺ: «إدَّخَرْتُ شَفاعَتي لأهل الكَبائِرِ مِنْ أُمَّتي».[٢] فهذه الشفاعة النّبويّة هي لأولئك الذين لم يتطهّروا في المراحل المختلفة، وقد تكون هذه البلاءات مثل تلك النيران التي تُحمى عليها المعادن لكي تصفو. يُبتلى العصاة في الدنيا بالبلاءات لكي تطهر أرواحهم وينتقلوا منها براحةٍ. فإن لم يتطهّروا في الدينا، يتطهّرون في سكرات الموت حتّى لا يواجهوا أي صعوبةٍ في عالم البرزخ، وما لم يحصل في سكرات الموت فقد يحصل بضغطة القبر، وكذلك ما لم يحصل بضغطة القبر يكون ببلاءات البرزخ وإلّا ففي أهوال الحشر، وفي النهاية بشفاعة النبيّ ﷺ يتطهّرون ويردون حوض الكوثر، لأنّ الجنّة ليست محلّ المدنّسين. وعلى أيّ حال، يجب أن يطهر الإنسان لكي يرِد الجنّة.

---

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ٢١.

(٢) **بحار الأنوار**، الجزء ٨، صفحة ٥٨.

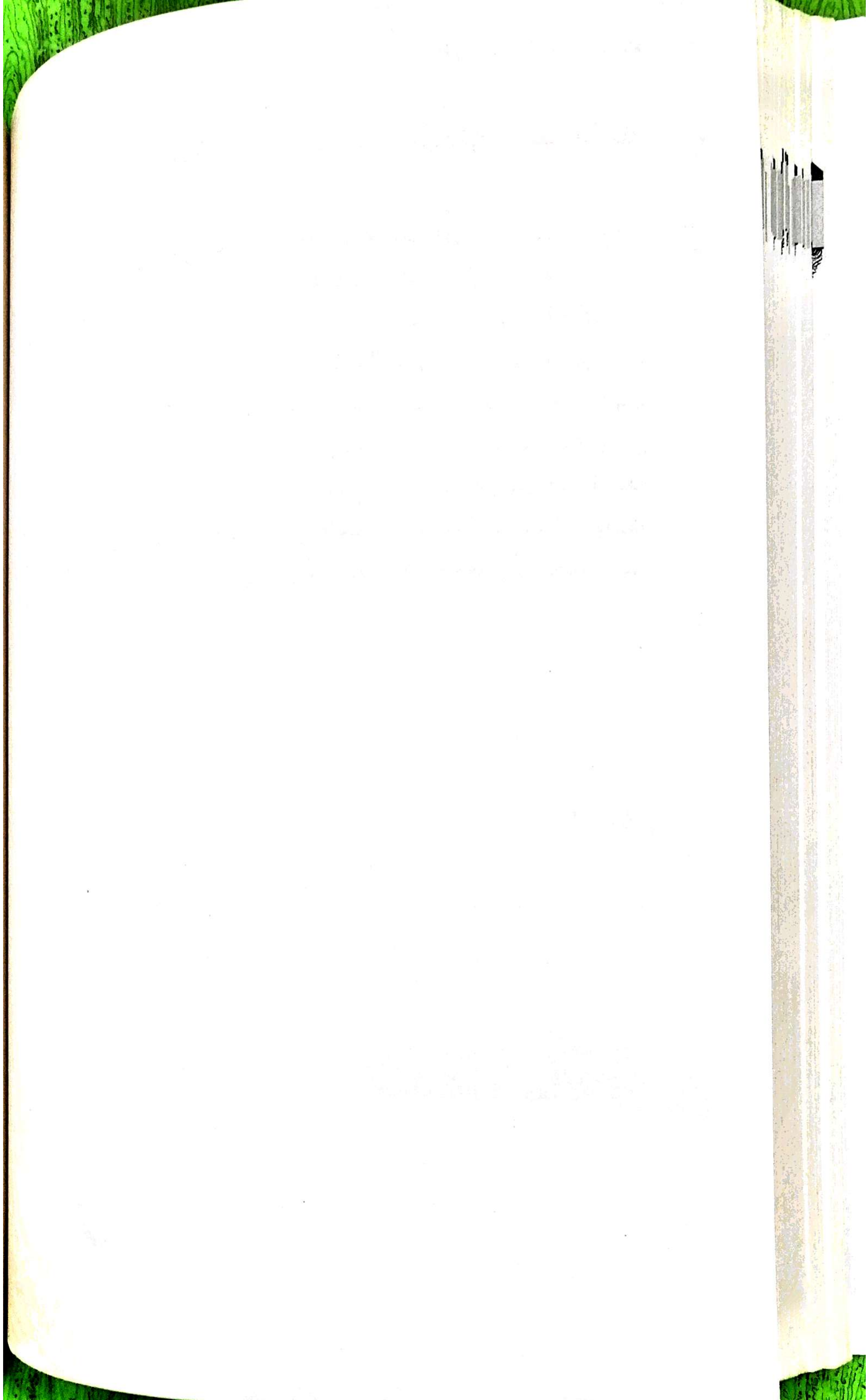


إنّ أكثر رجائنا يتعلّق بهذه الشفاعة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[١].

إنّ رضا النبيّ صلّى الله عليه وآله وبحسب الرّوايات هو في مقام شفاعته في الآخرة. ولكن جاء في الرّوايات أيضًا أنّ شفاعة النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام ترتبط بالآخرة، وهم لم يعِدوا بالشّفاعة في عالم البرزخ. هناك أشخاصٌ قاموا بأعمالٍ معيّنةٍ كزيارة الإمام الرضا عليه السلام وزيارة سيّد الشهداء عليه السلام وسائر الأئمّة الأطهار عليهم السلام استوجبت نظر هؤلاء الأطهار إليهم، ما أدّى للتخفيف من آلامهم وربما إلى ارتفاع العذاب عنهم بالكلّيّة. وعلى أيّ حالٍ، ما لم يتطهّر هؤلاء في عالم البرزخ على الرغم من كلّ هذه السّعة من الوقت، وما لم تتمكّن حوادث يوم القيامة وأهوالها من غسل ذنوبهم، وبقي هناك شيءٌ عالق، في النهاية ستدركهم شفاعة محمدٍ وآل محمدٍ عليهم السلام وستُنجي المؤمنين.

---

(١) سورة **الضحى**، الآية ٥.



إلـهي جُودُكَ بَسَطَ أمَلي، وَعفْوُكَ أفْضَلُ مِنْ عَمَلي

لأجل توضيح هذا المقطع من المناجاة وإدراكه بنحوٍ أفضل، يجب أن نذكّر بهذه النقطة وهي: أنّ التفاتنا إلى الله تعالى يكون في العادة بالاستعانة بالمفاهيم الذهنيّة، حتّى حين يأتي ذكر الله على لساننا، يتداعى إلى ذهن كلّ شخصٍ معنًى خاصٌّ منه، والمعنى الذي يُتصوّر عادةً هو خالق العالم. كلمة «الخالق» نفسها، التي هي مفهومٌ ذهنيّ، يكون لها مفهومٌ خاصّ لدينا أثناء الدعاء بحسب حاجتنا. فالذي يطلب من الله الرزق سيفهم من كلمة الله «الرّازق»، ومن هو مُبتلًى بمصيبةٍ سيفهم منها كلمة المنقذ، ومن هو مريض سيأتي إلى ذهنه معنى «الشافي». بالطبع، قد يحصل أحيانًا للبعض، في حال الدّعاء والمناجاة والصّلاة بحضور قلب وفي الخلوة في الليالي الحالكة وأثناء السجود وجريان الدموع، حالاتٌ لا يتوجّهون فيها إلى أيّ مفهوم خاصّ، ولا يمكن أن يُقال إنّهم في تلك الحالة قد توجّهوا إلى مفهوم أو معنىً معيّنٍ حول الله وإنّما أدركوا حالةً من الأنس. إنّ هذه مرتبة ضعيفةٌ من الإدراك الشهوديّ وهي تحدث للأشخاص العاديّين، أمّا المراتب الكاملة منها فهي مختصّة بأولياء الله.

إنّ أغلب النّاس يرتبطون بالله بواسطة المفاهيم، والمفاهيم بدورها تدلّ على بعدٍ أو زاويةٍ خاصّة. فبقولنا «رحمان» و«رحيم» ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار شخصًا يترحّم الله عليه. وبقولنا «الخالق» و«الرازق» نحتاج لأن نتصوّر شخصًا يخلقه الله ويرزقه. فكلّ أسماء الله الحسنى في مقام الفعل، تدلّ على فعلٍ من أفعال الله أو تبيّن كيفية ذلك الفعل. يمكن أن نقسّم الأسماء والصّفات الإلهيّة التي توجّه عقولنا وأذهاننا إلى الله من زاويةٍ خاصّة إلى فئتَين:

١- أسماء الجمال، أي تلك الأسماء التي تدلّ على الرحمة واللطف الإلهيّين مثل الرحمان والرحيم والغفار والكريم و...

٢- أسماء الجلال، أي تلك الأسماء التي تدلّ على القهر والسلطان الإلهيّ كالعزيز والسلطان والجبّار والمتكبّر و...

حين تُطرح أسماء الجمال يشعر الإنسان أنّه يريد أن يأنس بالله ويتقرّب إليه. وحين تُطرح أسماء الجلال يشعر الإنسان بالانكسار وعدم الجرأة على مواجهة الله، بل بعدم القدرة على مكالمته ومخاطبته بسهولة. بناءً عليه، حين يتوجّه الإنسان إلى رحمة الله ينطلق لسانه ويقول يا ربي ارحمني والطف بي، حين ينظر الإنسان إلى نفسه في مقابل هذا البحر اللامتناهي، فإنّه يجد في نفسه تلك الآمال الكبيرة والواسعة فلا يأمل بغفران ذنوبه فحسب، بل يرجو الوصول إلى مقاماتٍ عاليةٍ شامخةٍ جدًّا. لا تنسوا أنّنا في البداية نكون في مقام التوبة، لهذا يجب أوّلًا الالتفات إلى قبائح أفعالنا حيث إنّنا الآن في مقام طلب الإحسان الإلهيّ فنبدأ بالاسم «الجواد» ونقول: إن جودك بسط آملي. في الحقيقة، إنّ آمالنا كثيرة جدًا من جهة، ومن جهةٍ أخرى إنّ ذنوبنا أيضًا كثيرة، والأمر دائرٌ بين أن نُعاقب أو يُعفى عنّا، وفي مقام المقارنة بين أعمالنا وعفو الله نجد أنّ ذنوبنا مهما كانت كثيرةً وكبيرةً ولكن هل ستكون أكبر من عفو الله ومغفرته؟! إنّ معصيتي هي شأن من شؤوني. إنّ معصيتي بالرغم من كبرها فهي لا تُحسب شيئًا مقابل العفو الإلهيّ. تصوّروا أنّ عددًا كبيرًا يملأ كلّ هذه المجرّات، ولكن حين يُقاس بالمطلق يبقى محدودًا. إنّ معصيتنا وإن كانت تشبه ذلك العدد الكبير ولكنّها ليست بشيء مقابل العفو الإلهيّ.

إلـهي فَسُرَّني بِلِقائِكَ يَوْمَ تَقْضي فيهِ بَيْنَ عِبادِكَ

إنّ كلمة اللقاء قد وردت في النّصوص الدينيّة والقرآن والروايات، وقد استُعملت في كلمات الأعاظم على نحوَين:

١- ذاك المعنى الذي ورد غالبًا في الكتب الدينية حيث يُحذف المضاف إليه مثل لقاء الحساب ولقاء الأجر ولقاء يوم الدين و...

٢- ارتفاع الحجب والأستار، أي تنحية هذه الدنيا، وفي القيامة حيث يتحقّق يوم انكشاف المخفيّات وسقوط الحجب، يرى كلّ العباد أنفسهم في حضور الله ويسمعون نداء «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» حيث يجيب الله «للهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ»، لأنّه لا يوجد من له قدرة الإجابة.

إنّ أكثر الناس إنكارًا سيقولون: «رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا».

ومن أسماء يوم القيامة «يوم لقاء الله»، ومثل هذا اللقاء لا يختصّ بشخص معيّن، بل إنّ الجميع يلاقون الله في هذا اليوم. وفي هذا المجال نقرأ في القرآن المجيد قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[١].

فسواء كان الإنسان كافرًا أو مؤمنًا سيلقى الله، وسيكون هذا اللقاء شاملًا بحيث يصل كل النّاس إلى لقاء الله بعد سقوط وزوال الحجب والأستار.

---

(١) سورة **الانشقاق**، الآية ٦.

بالطبع، إنّ هذا اللقاء يتفاوت بين شخصٍ وآخر، ولا يكون مفرحًا للجميع، بل سيكون بالنسبة للكفار سببًا للعذاب ولا يُعطى الكفار حقّ التكلّم ويُقال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1].

ويوجد لقاءٌ آخر أيضًا يختصّ بأولياء الله حيث يتحقّق في آخر مراحل السّير والتّكامل.

وقد ورد في إحدى مناجاة الامام السجاد عليه السلام: «وَرُؤْيَتُكَ حاجَتِي»[2].

وقد ورد بشأن الشهيد أيضًا أنّه: «ينظر إلى وجه الله». فمثل هذه اللقاءات هي غير اللقاءات العامّة، فالمراد من اللقاء في هذا المقطع من المناجاة «فسُّرني بلقائك»، مع افتراض وجود معاصٍ كثيرةٍ، هو لقاءٌ لا يختصّ بالكاملين وبأولياء الله، بل هو السّرور أثناء اللقاء العام، هذا اللقاء الذي يكون فيه البعض مسرورًا والبعض مضطربًا، لهذا نسأل الله أن يرضى عنّا في ذلك اليوم الذي يُقضى فيه بين النّاس ولا يلاقينا بغضبه.

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ١٠٨.

(٢) مناجاة المريدين.

إِلـهي اعْتِذاري إِلَيْكَ اعْتِذارُ مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ قَبُولِ عُذْرِهِ، فَاقْبَلْ عُذْري يا أَكْرَمَ مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُسِيؤونَ

وهذا المقطع من المناجاة هو أيضًا لطلب الرّحمة وجلب العطف الإلهيّ.

أنواع الاعتذار وقبول العذر

افرض أنّك اختلفت مع صديقك وتجرّأت عليه وتحدّثت معه بطريقةٍ قبيحةٍ، ثمّ ندمت وعزمت على الاعتذار منه. هذا الاعتذار لا يعني أنّك لم تترك خطأً، بل إنّك تعترف في البداية، ومن ثمّ تطلب العذر وتصغّر نفسك حتّى لا يُعطي لعملك قدرًا.

الذي يعتذر قد يفكّر أنّ الاعتذار كمالٌ، ولهذا لكي يكون متأدّبًا فإنّه يعتذر عن عمله السيّئ، وهو لا يهتمّ بعدها إذا ما كان الطّرف الآخر سيقبل عذره أو لا، بل ما يهمّه هو القيام بهذا الواجب الأخلاقيّ وليس شيئًا آخر. مثل هذا الاعتذار هو اعتذار من يجد نفسه مستغنيةً عن قبول العذر.

ولكن قد يرتكب أحدٌ جريمة قتل ويصدر بحقّه حكم الإعدام، وما لم يرضِ وليّ الدّم فلا مجال لخلاصه. هنا بالذات حين يذهب هذا الشخص للاعتذار عند أولياء دم المقتول فإنّه لا يمكن أن يكون غير مكترثٍ بشأن قبول عذره، لأنّ مصيره رهنٌ بقبوله. بناءً عليه، فإنّه سيبالغ في الالتماس والخضوع وطلب الرحمة والاعتذار عسى أن يقبل وليّ المقتول عذره لأنّه لا طريق له غير هذا. وفي هذا المقطع من المناجاة يكون الاعتذار على هذا النحو، لا على النحو الأوّل النابع من عدم الاكتراث. ولقبول العذر صورٌ مختلفةٌ، فقد

يكون أحيانًا بقبول عذر الشخص، وأحيانًا إضافةً إلى قبول العذر، يلتمسون له العذر بالقول: نحن نعرفك، وأنت لست من الأشخاص الذين يقومون بمثل هذا الفعل عن عمدٍ وإصرار. وأحيانًا بالإضافة إلى قبول عذره يذكّرونه بكيفيّة الاعتذار. وأحيانًا، قد يعتذر منه الشخص المقابل ويواسيه ويخفّف عنه.

أي أنّ الشخص العادي يكون في الحدّ الأقصى ممّن يقبل الاعتذار، أمّا من هو أفضل من ذلك فإنّه يعلمه بطريقة غير مباشرة طريقة الاعتذار، ومن هو أعلى يتقدّم عليه في الاعتذار ويواسيه ويخفّف عنه.

الدوافع المختلفة لقبول العذر عند الناس

بالطّبع تختلف دوافع قبول الاعتذار عند النّاس، وهذه الدوافع هي عبارة عن:

١- قد يقبل شخص اعتذار شخصٍ آخر أحيانًا على أمل أنّه إذا احتاج إليه يومًا ما فإنّه سوف يستفيد من قبول اعتذاره لتأمين حاجته.

٢- وأحيانًا، قد يقبل شخص اعتذار شخصٍ آخر من أجل أن يقبل الآخر اعتذاره أيضًا.

٣- وأحيانًا يكون لأجل تجديد عهد الصداقة والاستفادة منها.

٤- قد يقبل الإنسان عذر شخصٍ عسى أن يغفر الله له ذنوبه. ففي كلّ هذه الموارد ينظر الناس إلى الأجر البشريّ أو الثواب الإلهيّ. أمّا الله، إذا قبل اعتذار أحدٍ، فإنّه لا يطلب منه أجرًا ولا يتوقّع منه ثوابًا، بل لعلّ أعظم النّاس هو الذي يعتذر منه السيّئون. والله تعالى لا يقبل الاعتذار فحسب، بل يعلّم الناس أسلوب الاعتذار، وما أعجب ذلك!

إِلـهي لا تَرُدَّ حاجَتي، وَلا تُخَيِّبْ طَمَعي، وَلا تَقْطَعْ مِنْكَ رَجائي وَأَمَلي

وفي هذا المقطع من المناجاة كأنّ المتكلّم قد أدرك شعورًا خاصًّا يُشير إلى أنّه أصبح من أهل رحمة الله وعفوه، وذلك وفق هذه العبارات المتعدّدة والتوجّه الخاصّ إلى صفات الجمال وصفات الرحمة والعفو الإلهيّ. لهذا، ولأجل التأكيد على مطالبه السّابقة، يرتقي درجةً ويقول: لأنّك وفّقتني وشملتني بهذه الدرجة من هدايتك، فأنا متفائلٌ بالخير ومعلومٌ أنّه يُراد بي خيرٌ، وأنّك تريد أن تجعل عاقبة أمري خيرًا، وإلّا لما وفّقتني. في حين أنّه لو اطّلعت السّماوات على معصيتي لاختطفتني، ولو اطّلعت الأرض على معاصيّ لخسفتْ بي، ولو اطّلع البحر لأغرقني، لكنّك لم تفضحني بجريرتي وأبقيتني بين الناس، وها أنا اتعلّم وأستفيد من المؤمنين.



إِلـهي لَوْ أَرَدْتَ هَواني لَمْ تَهْدِني، وَلَوْ أَرَدْتَ فَضيحَتي لَمْ تُعافِني

إنّني استدلّ على عدم فضحيتي وكشف مستوري لأنّك لم ترد إراقة ماء وجهي، وتريد أن ترشدني إلى طريق الخير لكي يُختم لي بخير. اللهمّ! بالإضافة إلى أنّني وقفت على ساحل بحر رحمتك المطلقة، وأنا أرجو رحمتك التي وسعت كلّ شيء، فلي خصوصيةٌ أخرى وهي أنّك لم تفضحني بل شملتني بالمزيد من لطفك، ولهذا اشتدّ رجائي بك.

إِلـهي ما أَظُنُّكَ تَرُدُّني في حاجَةٍ قَدْ أَفْنَيْتُ عُمْري في طَلَبِها مِنْكَ

لو كان لمسكينٍ أو سائلٍ مطلبٌ فإنّ كلّ واحدٍ سيُجيبه بحسب شخصيّته وموقعيّته. ولو أنّ هذ المسكين مدّ يد الطلب عشر مراتٍ أو مئة مرّةٍ، فإنّ الإنسان الجليل لن يتركه من دون جواب من أوّل مرّةٍ، فكيف إذا جاء إلى داره؟! فلا شكّ بأنّه لن يخيّب أمله. ولو أنّ شخصًا مدّ يد الاحتياج عشر مرّات، فمن البعيد جدًّا أن يردّه خائبًا، فكيف إذا أفنى عمره في طلب شيءٍ منه؟

للإنسان مطالب كثيرةٌ من الله تعالى، وهو يدعوه بالكثير من الأدعية طوال عمره. لكنّ المؤمن من بداية سنّ التكليف، حين يبدأ الملَكان بكتابة سيّئاته ويصبح محتاجًا إلى العفو والمغفرة، يطلب من الله الغفران ويستغفر في صلاة الليل «سبعين مرةً» ويقول «العفو» ثلاث مئة مرّةٍ، وبهذا فإنّه لا يظنّ أنّ الله تعالى سيحرمه من عفوه ورحمته، بل هو مطمئنٌّ تمامًا أنّه بهذا التأدّب سيصبح مشمولًا بعفو الله ورحمته.



إِلـهي فَلَكَ الْحَمْدُ أَبَدًا أَبَدًا دائِمًا سَرْمَدًا، يَزيدُ وَلا يَبيدُ كَما تُحِبُّ وَتَرْضى

وها هو المناجي، الذي لم يكن يعرف الطّريق إلى حرم المحبوب بدايةً، إلى أن تيقّن من إجابة دعائه، فإنّه حتمًا قد قطع مسافةً، والآن يشعر أنّه قريبٌ جدًّا، لهذا فإنّه ينطق بالثّناء والحمد ويقول: «وها أنا الآن قد أصبحت مطمئنًّا إلى عفوك، فإنّني أنهض إلى مقام حمدك والثّناء عليك دائمًا، وهو ذاك الثّناء الذي تحبّه وتحمده، وليس ذاك الذي يحصل في لحظةٍ عابرة، ولا الذي يؤدّي إلى التّعب والملل فأتركه، بل هو الحمد الذي يزداد يومًا بعد يوم».

إلـهي إِنْ أَخَذْتَني بِجُرْمي أَخَذْتُكَ بِعَفْوِكَ، وَإِنْ أَخَذْتَني بِذُنوبي أَخَذْتُكَ بِمَغْفِرَتِكَ، وَإِنْ أَدْخَلْتَني النّارَ أَعْلَمْتُ أَهْلَها أَنّي أُحِبُّكَ

انظروا جيّدًا تلك المراحل التي قطعها المناجي، كيف بدأ وبأي وسيلةٍ وأسلوبٍ وإلى أين وصل، فلأجل توضيح هذه المراحل المختلفة، التفتوا إلى هذا المثال:

افرضوا أنّ والـدًا أهـدى ولـده جوهـرةً نفيسةً، وأكـدّ عليه كثيرًا وأوصـاه بحفظها، ولكنّ هذا الولد تساهل وأضاع تلك الجوهرة، فمثل هذا الولد سيرتعد في البداية مقابل والده وسيستوحش وسيرى نفسه مستحقًا للعقاب، ولن يكون أمامه سوى الاعتذار لأنّ حياته ومعيشته بيد والده. ولأجل ذلك ولأنّه لا يجرؤ على التقدّم، فإنّه يبتعد قليلًا ويُطأطئ رأسه ويعتذر بهدوءٍ قائلًا: أنا لم أفهم، وأعلم أنّ ضياع هذه الجوهرة النفيسة ليست له أهمية عندك، ويمكنك أن تعطيني ما هو أهمّ منها بمئات المرّات، وأنا سوف أنتبه أكثر من الآن فصاعدًا.

ولو كان يعلم كيف يستجلب عطف والـده، لكان تحدّث معه بلطفٍ وأدبٍ لكي يهدّئ روعـه، وشيئًا فشيئًا يقترب منه، وبعد الاعتـذار الكثير وإظهار الخضوع والخشوع يصل أمره إلى أن يسحب يد والده ويضعها على رأسه ويُصبح مطمئنًّا إلى أنّه لن يعاقبه، بل قد يبتسم له جرّاء عطفه ورأفته فيزول خوفه، ويقترب على أمل أن يحتضنه والـده ويقبّله، وحين يُصبح في حضن الوالد ينطلق لسانه بالحديث معه ويشكره، وشيئًا فشيئًا يقول في حالة من الدلال والراحة: لو أردت يا والدي أن تؤاخذني على جرمي فإنّني سوف أطالبك وآخذك بعفوك. ولو قلت لي لماذا ارتكبت تلك الجريمة وتساهلت

بشأنها؟ فإنّني سوف أتعلّق بذيل عفوك وأقول فأين عفوك إذًا؟

لو قلت لي ما هي عاقبة عملك السيّئة؟ فإنّني سأقول فأين عظمتك وصفحك؟ ولو أردت أن تضربني، سأقول لمن حولي أثناء ضربك لي إنّك تحبّني، ولو أردت أن تُلقي بي في السجن فسوف أقول للمساجين إنّني أحبّ والدي. فلو كان الولد ينطق بهذا الكلام منذ البداية، لكان هذا بعيدًا عن الأدب تمامًا، ولكن حين رأى نفسه في حضن الوالد فإنّه يرى لنفسه الحقّ في أن يقول ذلك.

وهكذا، فإنّ المناجي هنا قد عبر كل هذه الحالات، وهو الآن في مقام الدلال والغنج ويقول: لو أنّك ادخلتني النار سأقول لأهلها: إنّ إلهي الذي أحبّه قد ألقى بي في جهنّم. حينها ماذا ستفعل؟

لو أنّ شخصًا خاطب ربّه بهذا الكلام في الأوضاع العادية لوبّخوه وقالوا له: يا قليل الأدب إنّك بهذا الكلام تستحقّ العذاب والعقاب الأكبر، ولكن حين يرى نفسه في حضن رحمة الله فإنّ لسانه سينطق بالغنج والدلال.

بعض الأساليب التي يُستفاد منها في مقام مناجاة الله موجودة فقط في كلمات أهل البيت عليهم السلام، ولو شاهدناها في أشعار أو كلمات الآخرين سواء كانت باللغة العربية أو الفارسية فإنّها تكون نقلًا بالمضمون عن كلمات هؤلاء الأطهار في الصحيفة العلوية وفي الصحيفة السجادية[1] وفي أدعية أمير المؤمنين عليه السلام في مفاتيح الجنان و...

وبحسب تعبير الإمام الخمينيّ قدس سره نقلًا عن أحد أساتذته: «الدعاء هو القرآن الصاعد[2]، وللأسف لا يُعرف قدره»[3].

---

(١) كتبت تكميلات على الصحيفة السجادية وهي غير هذه الصحيفة السجادية المعروفة وطُبعت تحت عنوان الصحيفة الكاملة أي أنّ لدينا الصحيفة الثانية والثالثة والرابعة أيضًا.

(٢) للأسف، إنّ انشغالاتنا بالأمور العبثية تمنعنا عن الإقبال على هذه الكتب أو المرور عليها مرّةً واحدةً بالحدّ الأدنى. للأسف أنّه من بين كل هؤلاء المسلمين، ومن بينهم فقط نسبة قليلة هم شيعة، ومن هؤلاء الشيعة توجد فقط نسبة قليلة ترتبط بمعارف أهل البيت عليهم السلام وهم أيضًا لا يجدون الفرصة للمرور على هذه المناجاة والأدعية، وهذا ظلمٌ وجفاءٌ بحقّ أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

(٣) **صحيفة النور**، بحث الدعاء.

إلـهي إِنْ كانَ صَغُرَ في جَنْبِ طاعَتِكَ عَمَلي فَقَدْ كَبُرَ في جَنْبِ رَجائِكَ أَمَلي

قلنا إنّ الابـن حين صار في حضن أبيه بـدأ بالغنج والـدلال. ولكن ينبغي الالتفات إلى عدم صوابية إطالة هذه التعبيرات الدلالية، وإلّا لانفصمت عرى العلاقة بين الأب وابنه ولتفكّكت. بناءً عليه، فإنّ ذاك الابن الذي كان يقول: لو فعلتَ كذا فإنّني سأفعل كذا، عليه أن يتراجع بسرعة عن هذا القول ويعود إلى تحمّل مسؤوليّته وطاعته لأبيه. لأجل ذلك فإنّ عبارات الغنج والدلال في المناجاة تحظى بمقدارٍ قليل جدًّا مقارنةً بغيرها من المناجاة، وما يزيد عن هذا المقدار سيؤدّي إلى خروج الإنسان عن حدود الأدب وتضييع هذه الحالة. بالطبع، فمثلما أنّ الابن لا يرمي نفسه في حضن والده دفعةً واحدةً، بل يصل شيئًا فشيئًا إلى هذه الحالة، فعلى العبد أيضًا أن يتراجع شيئًا فشيئًا إلى ذاك الحدّ الذي يتمكّن معه من أداء حقوق وآداب العبودية، إذا ما أراد رعاية حرمة الله.

وهـكـذا، فبعد هـذه العبارات التـودّدية يرجع إلى حالة الأدب ويقول بمنتهى اللطف والدقّة: لقد قصّرت في أداء واجبات العبوديّة، والأعمال التي كان ينبغي أن أقوم بها تحت هذا العنوان ليست بشيء إذا ما قورنت بما هو حقّ ربوبيتك يا الله! ولكن في الوقت نفسه فإنّ جودك وكرمك قد بعث فيّ الأمل برحمتك فجعلني آمل كثيرًا بهذه الرحمة. فصحيحٌ أنّ عملي قليلٌ ولكنّ رجائي كثيرٌ، وكأنّ هذا يجبر ذاك.



إلـهي كيف أنْقَلِبُ مِنْ عِنْدِكَ بِالَخْيبَةِ مَحْرومًا، وَقَدْ كانَ حُسْنُ ظَنّي بِجُودِكَ أنْ تَقْلِبَني بِالنَّجاةِ مَرْحُومًا

اللهمّ! فطالما أنّني علّقت قلبي بلطفك إلى هذا الحدّ، وأصبحت مؤمّلًا راجيًا وأحسنت ظنّي بتحقّق آمالي وأمنياتي، فكيف يمكن أن تطردني من بيتك، وترجعني خالي اليدين؟! فلو لم تحقّق لي أملي، فإنّ هذا لا يتناسب مع جودك وكرمك. فصحيحٌ أنّ عملي قليلٌ ولكن في النهاية إنّ أملي هو الذي تعلّق بجودك. وهكذا يرجع المناجي من قمّة الدّلال شيئًا فشيئًا، إلى القوس النزوليّ ويستقرّ في التواضع.



إِلـهي وَقَدْ أَفْنَيْتُ عُمْري في شِرَّةِ السَّهْوِ عَنْكَ، وَأَبْلَيْتُ شَبابي في سَكْرَةِ التَّباعُدِ مِنْكَ

هذا المقطع هو بيانٌ آخر يرتبط بتقوية روحيّات الأدب بين يدَيّ الله، واستثارة بحر رحمة الله مجدّدًا وإدراك الاستعداد واللياقة لإدراك الرّحمة الإلهيّة.

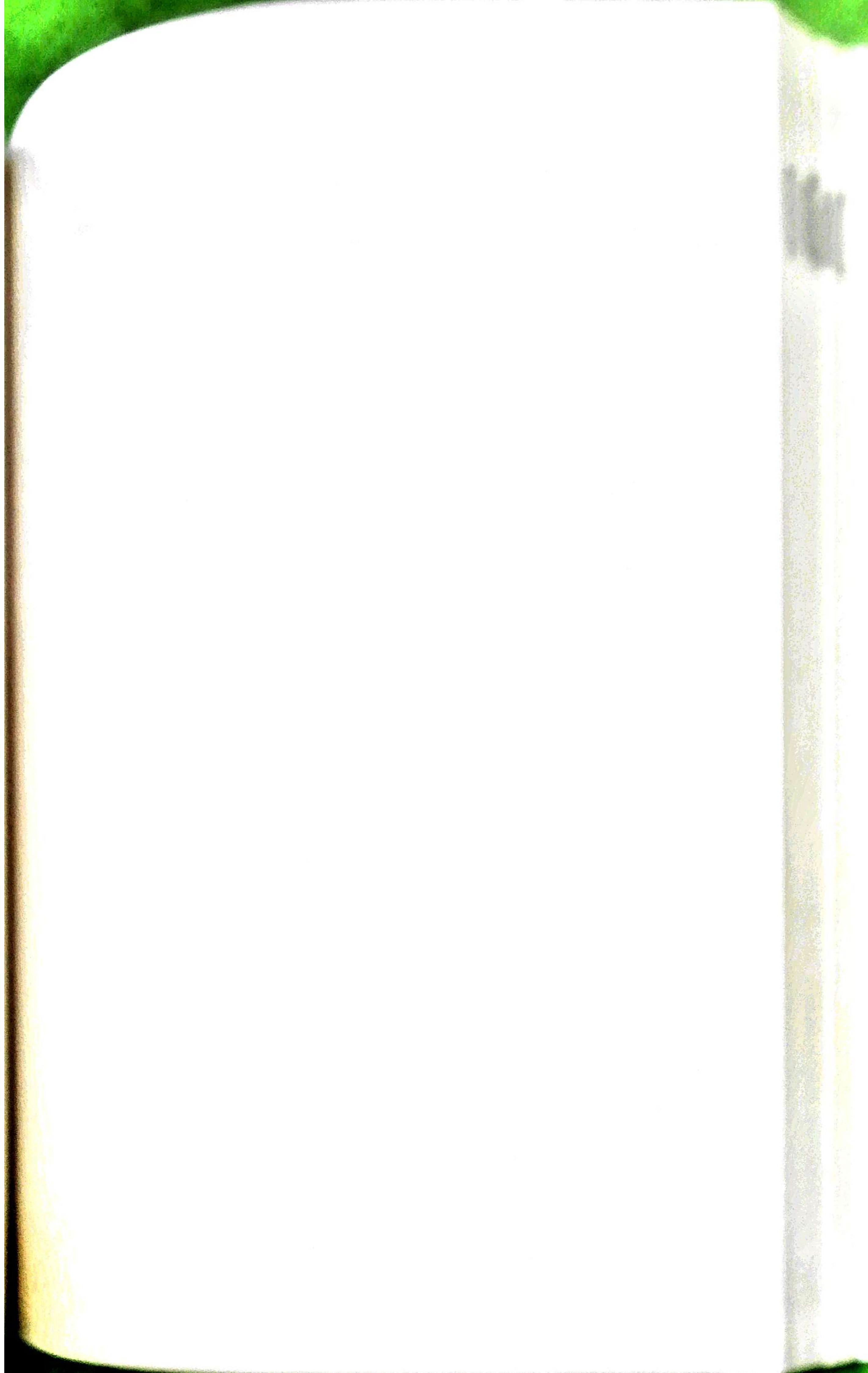
اللهمّ! إنّني أنظر إلى نفسي وإلى عمري الذي قضيته في الشرّ والغفلة والجهالة. بالطبع، هناك تفاوتٌ واختلافٌ بين أنواع الغفلة وعدم الإدراك. فأمثالنا يمكن أن يُبتلوا بحالةٍ من الغفلة عن الذنوب الكبيرة، أمّا أولئك الذين يرتعون في المراتب العالية، فلو ضعُف لديهم عمق النظر بشأن وجوب أن يكونوا في ذكر الله أثناء التوجّه إلى الحياة وحاجاتها المادية، فإنّهم يعدّون ذلك نوعًا من الغفلة. فبالتوجّه إلى الحاجات الدنيوية المشروعة يغفلون عن عمق التّوجه إلى ما وراء المادّة والطبيعة. كلّ إنسانٍ يقضي حياته منذ بداية الطفولة ولسنواتٍ مديدةٍ بالسهو والغفلة. يمكن للغفلة أن تصاحب الإنسان مدى الحياة، وخصوصًا في مرحلة الشباب، التي تُعدّ قمّة الحيويّة والنّشاط. وقد يُبتلى الإنسان بحالةٍ تكون سببًا لندمه وخجله. حين يُبتلى الإنسان بمثل هذه الحالات بمقتضى طبيعته، وإن لم يُبتلَ بالمعصية، فإنّه سوف يخجل من ظهور هذه الحالات في محضر الله. وقد يُعبّر عن هذه الحالة بالسّكر، حيث لا يعمل عقل الإنسان في هذه الأثناء بشكلٍ صحيحٍ. فكل من يتذكّر أوج شبابه ويتحسّر على ضياعه، فذلك لأنّه كان في حالةٍ تشبه السّكر في بعده عن الله. بالطبع، إنّ شباب أولياء الله يختلف حتمًا عن أحوالنا نحن الأشخاص العاديّين.





إِلـهي فلَمْ أَسْتَيْقِظْ أَيّامَ اغْتِراري بِكَ وَرُكُوني إِلى سَبيلِ سَخَطِكَ

إلهي! كنت أستطيع أن أخرج من هذه الحالة من السّكر والاغترار، لكنّني لم أفعل ذلك بل تعلّق قلبي بذلك السبيل الـذي يبعدني عنك وابتُليت بسخطك وغضبك، وها أنا أستيقظ الآن بعد انقضاء العمر وقلّة العمل وضياع الفرص.





إِلهي وَأنَا عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ قائِمٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، مُتَوَسِّلٌ بِكَرَمِكَ إِلَيْكَ

إلهي! ها أنا وأبي وأمّي وكل أسلافي كنّا وما زلنا عبيدك وأبناء عبيدك. لست أنا عبدك فحسب، بل كلّ أسلافي قد كانوا عبيدًا لك، وليست مالكيتك لنا جديدةً مستحدثةً. وها أنا آمل وأرجو كرمك وجودك عسى ان أجبر تلك الغفلات والجهالات ولا أريد أن أرجع إلى ما كنت عليه.



إِلـهي أَنَا عَبْدٌ أَتَنَصَّلُ إِلَيْكَ مِمَّا كُنْتُ أُواجِهُكَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ اسْتِحْيائي مِنْ نَظَرِكَ، وَأَطْلُبُ الْعَفْوَ مِنْكَ إِذِ الْعَفْوُ نَعْتٌ لِكَرَمِكَ

لعلّنا لا نجد مثل هذا التعبير «أتنصّل» في أيّ دعاءٍ آخر (سوى دعاء واحد). فكلمة «أتنصّل» مشتقةٌ من كلمة «نصل» وهي بمعنى تحرير السهم مع الضغط الشديد على القوس، بحيث لا يمكن بعدها أن يرجع السهم إليه. وفي هذا المقطع من المناجاة نقول «اللهم إنّنا نبتعد عن حالتنا السابقة إلى تلك الدرجة التي لا نريد أن نرجع إليها أبدًا، وهي حالة قلّة الحياء التي كنت عليها في السابق وفي محضرك».

إنّ ماضيّ هو ماضٍ غير مرغوبٍ به وخطرٌ بحيث أريد أن أتخلّص منه كما يتخلّص المرء من السهم بقوّةٍ، وأن أصل إلى تلك الحالة من النّفور من قلّة حيائي في السّابق وسكرة شبابي التي جعلتني أرتكب تلك الأعمال القبيحة في محضرك. فلا أريد أن أرجع إلى تلك الحالة من قلّة الحياء، تمامًا كالسهم الذي يُطلق ولا يرجع إلى القوس أبدًا.

لقد كنت في السابق غافلًا سكرانَ جاهلًا حيث لم أكن أقدر على الالتفات إلى أنّك حاضرٌ وترى قبائحي، وها أنا رجعت عن تلك الحالة وأطلب العفو منك.

لقد لاحظتم كيف أنّ الإنسان يتراجع شيئًا فشيئًا عن حالة الغنج والدلال تلك، التي كان عليها في حضن رحمة الله، وكيف أنّه يرجع إلى رعاية الأدب

وإظهار الخجل. وهذا السير والسلوك قد وصل شيئًا فشيئًا إلى حدّ النصاب في المناجاة، ولا يرى العاصي لنفسه مخرجًا سوى الرّاحة في ظلّ عفو الله.

أتذكرون حين قلنا: حين يتواجد الإنسان في المحضر الإلهيّ، فإنّه يريد أوّلًا أن يُحفَظ من المخاطر، ثمّ يعرض بعدها حاجته ورغباته ويطلب إزالة بلاءاته، ثمّ بعدها يطلب الكمالات والفضائل حتّى يصل إلى مقام القرب الإلهيّ؟ وكل هذا إنّما يحدث إذا أُزيلت الموانع الابتدائية أي القذارات والأرجاس، وحصول الطمأنينة بالتطهّر منها. كذاك الوعاء الذي يُصبح مناسبًا لأنّ يُملأ بالحليب أو العصير. فالمناجي له أوجٌ وحضيض، وها هو قد وصل إلى حدٍّ من النصاب الذي يمكّنه من أن يعرض حاجاته الأساسية ويُناجي لأجل رفع مشاكله، فها هو قد حصل على طهارة وعائه وهو مستعدٌ الآن لتلقّي وجذب العطف.



إِلهي لَمْ يَكُنْ لي حَوْلٌ فَأَنْتَقِلَ بِهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ إِلّا في وَقْتٍ أَيْقَظْتَني لِمَحَبَّتِكَ، وَكَما أَرَدْتَ أَنْ أَكُونَ كُنْتُ، فَشَكَرْتُكَ بِإِدْخالي في كَرَمِكَ، وَلِتَطْهيرِ قَلْبي مِنْ أَوْساخِ الْغَفْلَةِ عَنْكَ

إلهي! قد قضيت عمري في الغفلة وسكرة الشباب. في ذلك الوقت الذي غصت فيه في مستنقع المعصية وسيطرت عليّ أهواء النفس ووساوس الشيطان، لم أكن أستطيع أن أنجو بنفسي من هذا الوضع وأن أنتقل من حالة العصيان إلى حالة الطاعة والعبادة، إلا حين أيقظتني ونبّهتني ووجّهتني إلى محبّتك، وهكذا صرت كما تريد. لقد شملتني بهذا اللطف وأيقظتني من سُبات الغفلة والسّكر، وها أنا أشكرك لأنّك جعلتني في دائرة لطفك وطهّرت قلبي من أرجاس الغفلة وأخرجته منها. وتوضيح ذلك: إنّنا كلّما أردنا أن نؤدّي عملًا باختيارنا، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، يجب حتمًا أن يدخل فيه عاملان وأن يوجد لأجل تحقّقه شرطان أيضًا:

أوّلًا: يجب أن تكون هناك طاقة نستطيع من خلالها أن نقوم بالعمل، مثلما إذا كان هناك جسمٌ يريد أن ينتقل من نقطةٍ إلى نقطةٍ، فيجب أن تكون لديه الطاقة لذلك. وفي الأفكار القلبية والروحية أيضًا يجب أن تكون هناك طاقةٌ بدنيةٌ مناسبةٌ معها وإن كنّا لا نشعر بها. فإرادتنا مشروطةٌ بعمل الخلايا الدماغية واستهلاك الطاقة، بل ينبغي أن تكون هناك طاقة خاصّة في الروح لكي تتحقّق هذه الإرادة، وإلّا كان الفكر مثل ذلك الجسم السّاكن الذي لا تَرِد



عليه أيّ طاقة ويكون بذلك محتاجًا في حركته إلى قوّة خارجية أو ديناميكية ذات طاقة داخليّة.

الأمر الآخر، من أجل معرفة اتّجاه الحركة، فإنّنا بحاجة إلى الوعي والإدراك. فحين يتحقّق هذان العاملان والشرطان يمكن للإنسان حينها أن يؤدّي كلّ عملٍ اختياريٍّ. فإذا أراد الإنسان مثلًا أن يؤدّي عبادةً اختياريةً[1]، فإنّه بحاجة إلى القدرة والمعرفة، وفي حال تحقّق هذان الشرطان تصبح هذه العبادة قابلةً للتحقّق.

فمن باب التشبيه بالماديات، ينبغي أخذ مكان معيّن بعين الاعتبار لهذه الطاقة، فاعتبرنا القلب هو ذاك المكان. هذا القلب الذي بحسب تعبير القرآن ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[2]، مكانه في الصدر. ينبغي لهذا الوعاء أن يكون خاليًا، أي أن لا يكون فيه توجّه نحو جهةٍ خاصّة. فمثلًا حين يُقال: «إنّ لقول الله أكبر ثوابًا»، نحن نستطيع أن نقول ذلك بسهولة لأنّه لا توجد في قلوبنا قوى متضادّة، ولا يوجد لدينا توجّه لترك ذلك، ولكن لو وُجدت قوّة أخرى، لواجهته وأحبطته، كذلك الجسم الذي تتنازعه قوّتان متساويتان من جهتين مختلفتين فيؤدّي ذلك إلى بقاء هذا الجسم في مكانه ثابتًا لأنّ هذه القوى العارضة عليه ستحبط كل واحدة منها الأخرى ويكون ناتجهما صفرًا.

الافتراض الآخر هو وجود قوّةٍ أو دافعٍ آخر أيضًا في القلب، ويصبح مانعًا من فاعلية الإرادة بسبب كونها قوّةً أقوى. فعلى سبيل المثال، نحن نحبّ أن نصلّي الصلاة أوّل الوقت، أو أن نصلّي صلاة الليل، وهذا هو دافعنا القلبيّ، ولكنّ ميلنا إلى الرّاحة هو قوّة أقوى تقف بوجه هذه الإرادة. بناءً عليه نجد أنّنا نُخمد صوت المنبّه ثمّ ننام مجدّدًا أو أنّنا نبتعد عن هذا الدافع القلبيّ لحججٍ وأعذار مختلفة. أو كما في حال ذلك الشخص الذي كرّر ارتكاب معصيةٍ ما بحيث أصبحت

---

(١) إنّ قيد الإرادة والاختيار في العبادة، بسبب أنّه إذا لم تكن العبادة اختيارية فلا يكون لها أثرٌ إيجابيٌ في الإنسان.

(٢) سورة **الحج**، الآية ٤٦.



عادةً لديه، فهناك قوّة قوية ستسيطر على قلبه، وتدعوه دائمًا إلى ارتكاب هذه المعصية، وتكون تلك القوّة الجديدة، التي هي عبارة عن إرادة ترك المعصية، غير قادرة على مواجهتها، فعليه هنا أن يجاهد كثيرًا حتّى يتغلّب عليها.

وهكذا يصوّر المناجي حالته: إنّه قضى عمرًا بالغفلة والتعوّد على القبائح والشهوات، والآن قد شمله اللطف الإلهيّ بحيث استطاع أن يتغلّب على تلك القوّة السّابقة التي كانت شديدةً، ولولا ذلك لكان لا يزال إلى اليوم في مستنقع الفساد، لأجل ذلك يقول: إلهي! إنّني أريد قوةً ابتدائيةً[١] لكي أتغيّر وأحبط القوى السّابقة. الآن أريد قوةً أخرى لكي أتحرّك في الاتّجاه الصحيح. ففي البداية كان الحول مطلوبًا لكي أخرج من المرحلة السّابقة، لكنّني لم امتلكه، لأنّني قد استعملت كلّ قوايَ في الاتّجاه المخالف وفي السّكر وفي القبح، لكنّك أيقظتني وأرجعت لي تلك القوّة لكي أذوق طعم محبّتك فأتغلّب على كلّ القوى الشيطانيّة والنفسانيّة وأهزمها، وقد كان هذا لطفًا منك، فعليّ أن أشكرك لأنّك أدخلتني في دائرة لطفك وطهّرت قلبي من تلوثّات وقذارات الغفلة[٢].

شبهة الجبر والإجابة عنها

من الممكن أن تعرض شبهة تُشغل ذهن الإنسان وتسلبه حالة المناجاة وتسوقه نحو الجبريّة، وهي أنّه إذا لم يكن أثناء الابتلاء بالمعصية قادرًا على

---

(١) الملفت هو أنّه في هذه المناجاة، قد عُبّر عن هذه القوّة بـ «الحول» وهذا اللفظ يتناسب مع التحوّل والحال ذلك لأنّ على الإنسان أن يتحوّل ويتحرّك إلى الجهة الأخرى التي تُخالف الجهة الموجودة، ويبدّل واقعه الحالي. وأحيانًا قد تُستعمل قوّة في الجهة المطلوبة فيُعبّر عنها بالقوّة، ولكن بما أنّ هناك قوّةً هنا يجب أن تواجه القوّة السابقة وتجرّ الإنسان إلى الصراط المستقيم فإنّه يُعبّر عنها بـ «الحول». لهذا نقول «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، أو نقول في الصلاة «بحول الله وقوّته أقوم وأقعد» أي أنّه بحاجة إلى هاتَين القوّتَين فينبغي أن يتحرّك وينتقل من الحالة السّابقة التي هي عبارة عن الجلوس والسكون بعون الله، وكذلك لأنّه يريد أن يتحرّك حركةً جديدةً، ولا يوجد مانع على طريقنا فإننا نريد قوةً أخرى لأجل الاستمرار في التحرّك.

(٢) من الملفت أنّه أطلق على الغفلة صفة القذارات، وذلك لأنّها توجد هذه الكدورة والظلمة والعفونة، ولكن نور المحبة قد طهرها، وجعل مكانها النور والبياض والضياء.

تخليص نفسه منها، فهذا يعني أنّه مجبورٌ عليها، ولهذا لن يكون هناك تكليف، وحين يتخلّص من فخّ المعصية، فإنّ الله يكون قد أمدّه وأودع محبّته في قلبه، وفي هذه الحالة يكون الفعل أيضًا فعل الله. وكذلك الآيات كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1]، يمكن أن توجد مثل هذه الشبهات أيضًا.

فإذا لم نكن نعلم إلى أين ينبغي أن نذهب، وأيّ هدفٍ ينبغي أن ننشد، وأنّ الله ينبغي أن يهدينا، وإذا كانت القوّة وكذلك الهداية من الله، فما هو دورنا في مثل هذه الحوادث؟ لقد كانت هذه القضية مورد تساؤل لدى النّاس منذ القدم، فكانت تعرض عليهم ولا سيّما على المتديّنين منهم.

بالطبع، إنّ الإجابة عن هذه السؤال والشبهة تحتاج إلى أبحاثٍ عميقةٍ وتخصصيّةٍ لأنّها من أعقد القضايا العقلية. وكما تعلمون فقد نُهي عن التفكّر فيها في العديد من الروايات، وقد شُبّهت بالطريق الوعر أو البحر المتلاطم أو الصحراء الخطرة. لكنّنا سنسعى لتقديم جوابٍ سهلٍ نسبيًّا لرفع الشبهة.

يُدرك الإنسان بالعلم الحضوريّ أنّه لو كان مجبرًا لما أمكنه أن يختار بين عملَين فيختار الأوّل ويترك الثاني مثلما قال مولانا: «إنّ قولك أفعل ذلك أو ذاك هو دليل الاختيار أيّها الصنم».

الأمر الآخر أنّنا نمدح أولئك الذين يقومون بالأفعال الحسنة ونذمّ مرتكب الأفعال القبيحة، في حين أنّه لو كان الإنسان موجودًا مجبرًا لما استحقّ الإهانة أو التعظيم، وفي النتيجة لما استحقّ الثواب أو العقاب. فهذان الدليلان يمكن أن يقنعا الإنسان قناعةً تامّةً بأنّه مختارٌ وحرٌّ في القيام بالأفعال.

فما المقصود من هذه الآيات إذًا، من قبيل قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾[2] أو ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾[3] أو ﴿إِنَّكَ لَا

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٥٦.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٨٦.

(٣) سورة **الروم**، الآية ٢٩.

تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[١]، في حين أنّ الإنسان يدرك بالوجدان أنّه يمتلك القدرة على الفعل والترك؟

للإجابة عن هذا السؤال من اللازم ذكر نقاطٍ عدّة:

إنّنا نُدرك وجود عاملَين عند القيام بأيّ فعلٍ:

أ- كون هذا الفعل حسنًا أو قبيحًا.

ب- نعلم إن كنّا نمتلك القدرة على القيام به أو لا. كمثال: نحن جميعًا نعلم أنّ الطفل اليتيم والجائع يحتاج إلى المساعدة، كما يمكننا مساعدته أو صفعه على خدّه، ونعلم ضمنًا أنّ إعانته أمرٌ حسن وأنّ صفعه أمرٌ قبيحٌ.

فلا يشكّ أيّ إنسانٍ عاقل في دور هذَين العاملَين (العلم والقدرة). فكلّ واحدٍ منّا يعلم أنّ الأداة التي يدرك الإنسان بواسطتها وجود هذَين العاملَين هي العقل، الذي يُعدّ معيار الفهم، وأنّ الله قد منح الإنسان هذا العقل. أولئك الذين يُبتلون بهذا النوع من المرض الخاصّ وتُصاب بعض خلايا دماغهم بالآفات يصبحون فاقدين للعقل (مجانين)، وفي الوقت الذي يمتلكون فيه البصر والسمع واليد والرجل مثل غيرهم، إلّا أنّهم لا يستطيعون أن يميّزوا بين الحسن والقبح جيّدًا. فنحن نفهم أنّنا لا ندرك شيئًا بذاتنا، بل نُدرك حسن الأفعال وقبحها على ضوء العقل الذي وهبنا الله إيّاه، وأيضًا بهداية الأنبياء عليهم السلام وعن طريق الكتاب والسنّة، وأنّ الذي أرسل الأنبياء عليهم السلام وأنزل القرآن هو الله، وأنّ العين والأذن واللسان التي يفهم الإنسان بواسطتها القرآن ويسمعه هي نعمٌ إلهية. فكلّ الأفعال التي نؤدّيها باختيارنا هي من خلال هذه النعم التي منحنا الله إياها، وإلّا لما كنا قادرين على القيام بشيءٍ.

فلو أراد أيّ إنسانٍ أن ينطق بكلمة يجب أن يمتلك اللسان والهواء والحنجرة والأوتار الصوتية، وإن فُقدت إحدى هذه الأشياء، لما تحقّق

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٥٦.

النّطق، وكل هذه مخلوقةٌ من قِبَل الله. فلأجل القيام بأي عملٍ سواء في البعد العلميّ أو العمليّ هناك حاجةٌ إلى الأدوات والآلات التي قد خلقها الله. فينبغي تضافر آلاف العوامل حتّى يتحقّق فعلٌ واحدٌ. وإنّ دور الإنسان من بين هذه العوامل كلّها هو شيءٌ قليلٌ جدًا، وفي الوقت نفسه يمكن للإنسان باختياره أن يقوم بهذا الفعل أو يتركه. فلو أدّى الإنسان عملًا حسنًا، تكون حصّة الله أكثر بكثير من حصّة الإنسان فيه، ولهذا يقول الله: «أنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني»[1].

من الواضح أنّ كلّ العوامل الحسنة هي من الله، وإنّما تظهر فقط باختيار الإنسان. لقد جعل الله كلّ وسائل المعصية بيد البشر، إلّا أنّ المعصية هي نتيجة سوء اختيار الإنسان، لأنّه وظّف جميع هذه العوامل في الطريق الخاطئ، على الرُّغم من أنّه كان قادرًا على الاستفادة منها في طريق العبادة، ذلك لأنّها كلّها لم تُخلق للمعصية. لقد كان اللسان قادرًا على ذكر الله، إلّا أنّ صاحبه استعمله للسباب، وكان يمكنه بالتنفّس أن يتعبّد، ولكنّه جعله بسوء فعله وسيلةً لارتكاب المعصية.

ولأجل رفع هذه الشّبهة نكتفي بهذا المقدار، وإن كنّا نعترف أنّ القضية أعمق من ذلك. أولئك الذين سلكوا طريق العبودية يطّلعون على الأسرارِ ويحلّون تلك القضايا بالشهود والعرفان. فحين يُقال: إنّني لم أكن قادرًا على الإقلاع عن المعاصي السّابقة وقد استعملت نِعَمك بصورة سيّئة بحيث أصبحت المسألة عادةً لديّ، واحتجتُ إلى عونك وقد أعنتني، فهذا لا يعني من الناحية الفلسفية أنّني لم أكن مختارًا. افرضوا أنّ شخصًا رمى بنفسه من على السطح فلا شكّ أنّه لن يتمكّن من اجتناب ذلك في مرحلة سقوطه بين السماء والأرض، فإذا وقع على الأرض وحطّم دماغه لا يُقال إنّه ليس مذنبًا لأنّه ندم أثناء سقوطه. فمثل هذا الإنسان، شاء أم أبى، قد هيّأ تلك المقدّمات التي ترتّبت عليها مثل هذه النتيجة. وبحسب التعبير العلميّ «الاضطرار

---

(١) **الكافي**، الجزء١، صفحة ١٥٧.

بالاختيار لا ينافي الاختيار»، فلو لم يختر هذه المقدّمات منذ البداية بسوء اختياره لما وصل إلى هذه العاقبة.

التفتوا إلى مثالٍ آخر، وأرجو منكم التّأمّل فيه: لو أنّ شخصًا بدأ بالرّكض في منحدرٍ شديد وقيل له إنّك إذا استمرّيت بالرّكض هكذا فإنّك لن تتمكّن بعدها من السّيطرة على نفسك، لكنّه لم يعتنِ بهذا التّحذير واستمرّ بالرّكض حتّى وصل إلى حيث لم يعد قادرًا على السّيطرة على نفسه، فسقط أرضًا وحطّم دماغه؛ فمثل هذا الشّخص لن يسلم من التّوبيخ ولا يمكن لأحدٍ أن يبرّئه بحجّة أنّه لم يتمكّن من السيطرة على نفسه أثناء الانحدار، وذلك لأنّه كان بإمكانه أن يتوقّف في بداية الطريق، لذلك فهو شخصٌ مقصّرٌ.

حين يقف شخصٌ على منحدر المعاصي يصبح مصداق «من أضلّ الله»، في حين أنّ الله لا يُضلّ إنسانًا من دون سبب، وإنّما يُسقط الله من يسلك المنحدر الشديد بسرعة، أمّا الذي يمشي على الصّراط المستقيم المعبّد بتؤدةٍ فلن يسقط على الأرض. إنّ سلوك الطرق المعوجّة وارتكاب الذنوب الكثيرة يصل بالإنسان إلى حيث لا يقدر بعدها على التمييز بين الحسن والقبح، ويُسلب في النهاية قدرة الفهم: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1].

فصحيحٌ أنّ الله يهدي النّاس لأنّ أسباب هداية الجميع منه، فلو أسأنا استخدام تلك الأدوات سوف نضلّ، ويمكن القول إنّ الله قد أضلّنا من جهة أنّ الله هو الذي وضع تلك الأدوات تحت تصرّفنا، لكن لا بمعنى أنّنا مُجبرون. وعلى فرض أنّنا لم نكن نمتلك أيّ اختيار أثناء ارتكاب المعصية، فإنّ هذا لا يُعفينا من المسؤولية لأنّنا قمنا بمقدّمات ذلك باختيارنا.

وبشأن قوله: «أيقظتني لمحبّتك وكما أردتني أن أكون كنت»... توجد احتمالاتٌ عديدةٌ:

---

(١) سورة **الروم**، الآية ١٠.

١- لو أنّك لم توقظني بلطفك ومحبّتك، لما كنت لأخرج من حالة الغفلة. إنّ الغفلة هي أساس كلّ أنواع التّسافلات والدّناءات، واليقظة هي أوّل خطوةٍ للإصلاح. والشاهد على هذا الاحتمال قوله: «ولتطهير قلبي من أوساخ الغفلة عنك»، أي أنّني أشكرك لأنّك طهّرت قلبي من أوساخ الغفلة، وفي هذه الحالة فإنّ حرف «اللام» في قوله «لمحبتك» تعليل أي أنّ علّة وسبب يقظتي هي محبّتك ولطفك، مثلما جاء في القرآن أيضًا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[1].

٢- «اللام» في «لمحبتك» متعلّقة بأيقظتني لأنّ المعنى اللغويّ لليقظة هو الانتباه والتوجّه؛ أي أنّك وجّهتني لمحبّتك. بناءً عليه، حين وجّهتني لمحبّتك استطعت أن أخرج من حال القبح وأنتقل إلى العبادة، فمحبّتك هي من باب إضافة المصدر إلى الفاعل أي أنّك وجّهتني لتحبّني، وهذا ما أدّى إلى أن أترك أهوائي النفسانيّة، لأنّني أخجل أن أعصيك مقابل محبّتك ولطفك. لهذا فإنّ حرف (اللام) في هذه الصورة ليست للتعليل.

٣- فإذا استطعتُ أن أنجوَ من هذه الأوساخ فذلك لأنّك وجّهتني إلى ضرورة محبّتك؛ أي أنّك أيقظت فيّ ضرورة التّوجّه إلى محبّتك، وقد فعلت أمرًا لكي أتوجّه إلى ضرورة أن أحبّك، أو أنّك أيقظت هذه المحبّة الفطريّة التي كانت كامنةً في نفسي، ذلك لأنّ الفطرة تقول إنّ عليك أن تحبّ من يفعل لك الخير «الإنسانُ عُبَيْدُ الإحْسانِ». فلو أدرك الإنسان كم أنّ الله يحبّه وينعم عليه لأحبّه، فإذًا «لمحبّتك» بمعنى لمحبّتي لك، وهي إضافة المصدر إلى المفعول. بناءً عليه، الفاعل في هذه المحبّة هو العبد ومتعلّق المحبّة هو الله، و«اللام» في «لمحبّتك» متعلّقة باليقظة.

ويبدو أنّ هذا الاحتمال أقوى من الاحتمالَين السابقَين، ونتيجته هي أنّني استطعت أن أقلع عن المعصية حين ظهرت محبّتك في قلبي.

---

(١) سورة **النور**، الآية ٢١.

توضيح بشأن الاحتمال الثالث

حين يرتكب الإنسان معصيةً فذلك يكون بسبب عاملٍ جاذبٍ جذبه إليها؛ أي ينبغي للإنسان أن يشعر بالميل واللذة والرّغبة تجاه كل عملٍ اختياريّ وإراديّ. لذلك إذا أراد أن يخرج من دائرة جاذبيّة المعصية يجب أن تكون هناك جاذبة أقوى تحبطها وهي تلك الجاذبة الإلهيّة التي تبهت عندها كلّ الأشياء.

لهذا نقول في هذا المقطع من المناجاة «اللهمّ! لقد استطعت أن أتحرّر من قبضة الشيطان حين أدركتني جاذبة محبّتك، ولقد كنت أنت سبب ذلك. فالعالم هو عالم الأسباب والمسبّبات والعلل والعوالم، وليس عالم الجُزاف. قبل ذلك، لم أكن موافقًا لإرادتك، وها أنا الآن أصبحت كما تريد ولا شكّ أنّ هذه الإرادة هي الإرادة التشريعية لا التكوينية؛ لأنّه لا يوجد أي ظاهرةٍ يمكن أن تُخالف الإرادة التكوينية، لكنّ الله يحبّ أن يكون الكلّ أخيارًا تشريعيًّا، بينما البعض هم أشرار.

من هنا ندرك أهميّة محبّة الله ودورها في سعادة الإنسان. ومن المعلوم أنّ المحبة هي عامل تذويب المعصية ونجاة الإنسان من مستنقع الفساد، وهي الإكسير الذي يتفوّق على آلاف الصفات الإنسانية الجميلة.

إنّ الذي يؤدّي الأعمال الحسنة مع المعصية، هو مثل ذاك الذي يضع قطع الذهب والجواهر النفيسة في كيسٍ مثقوب أو أنّه يضع مادةً مفسدةً إلى جانب الفاكهة والأطعمة الجيّدة، لهذا ينبغي أن نستعمل علاج هذه المعصية وهو المحبّة الإلهيّة.

كلامٌ بشأن إكسير المحبّة

إنّ جاذبية الأشياء المادّيّة هي كالجاذبيّة التي اكتشفها «نيوتن» تحت عنوان «الجاذبية العامّة»، وهي أيضًا مثل جاذبية الحديد والمغناطيس قد أدّت إلى أن يعتقد بعض الفلاسفة بوجود شعورٍ خفيٍّ وضعيفٍ في الأشياء المادّيّة. وهذا الانجذاب هو دليلٌ على ذلك الشّعور الخفيّ والضّعيف. ولكن علماء العلوم التجريبيّة لم يقبلوا هذا المطلب.

ومثلما أنّه توجد هذه الجاذبية بين الأشياء المادية، هناك جاذبيةٌ واعيةٌ (وليست فيزيائيةً فاقدةً للاختيار) بين شيءٍ ما وقلب الإنسان. إنّ هذه الجاذبيّة التي هي جاذبيّة روحية واعية نسمّيها المحبّة. فهذا الانجذاب الذي يدركه الإنسان يشبه شيئًا يجرّ الإنسان نحوه. وقد تكون هذه الجاذبية بين إنسانَين هما كائنان واعيان، وقد تكون بين شيءٍ ماديٍّ فاقد للشعور والإنسان، مثل الجاذبية الموجودة بين الزّهرة الجميلة والإنسان. فالزهرة تجذب الإنسان نحوها من دون أن تكون مدركةً أو شاعرةً، وهذه هي المرتبة الضعيفة من المحبة.

أمّا الحبّ الموجود بين الإنسان والله فهو أعلى وأفضل مراتب الجاذبيّة، ذلك لأنّ الله يمتلك أعلى مراتب الإدراك والشّعور. وهذه الجاذبية واعيةٌ ونابعةٌ من الشعور وذات اتّجاهَين، وإن كانت في البداية ذات طرفٍ واحد، لكنّها ستنتهي إلى الطّرفين. يقول الله في كتابه العزيز: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[١]. كذلك تشير هذه الآية القرآنية إلى هذا المطلب: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾[٢].

أمّا البحث حول عوامل هذه المحبّة فهو بحثٌ طويلٌ ومفصّل، وقد طرح الغزالي في الربع الأخير من كتابه «إحياء العلوم» هذا الأمر تحت عنوان المنجيات في باب المحبّة والشوق والأنس والرضا، وأورده المرحوم الفيض كما هو في كتاب «المحجّة البيضاء»[٣].

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٤.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ١١٩.

(٣) إنّ أغلب الأبحاث التي طرحها الغزالي هي أبحاثٌ ناضجة ودقيقة، وإن كان فيها بعض الانحرافات أيضًا، وقد سعى المرحوم الفيض (رحمه الله) لتنقيحها وحذف تلك الأخطاء والروايات الضعيفة وغير الصحيحة التي نقلها عن المتصوّفة وأورد مكانها تلك الروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام. إنّ كتاب **المحجّة البيضاء** هو كتابٌ مهمٌّ جدًّا لا يوجد في باب الأخلاق ما هو أهم منه، وهو المتن المنقّح عن **إحياء العلوم**، وقد بحث في أوّل المجّلد الثامن (من الطبعات التي عرضته في ثمانية مجلدات) حول قضيّة المحبة.

أبسط طرق انبعاث حبّ الله

إنّ من أسهل عوامل حبّ الله هو ذاك الطّريق الذي علّمه الله تعالى لكليمه موسى عليه السلام[١]، هناك حيث يقول له: «حَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي وَحَبِّبْ خَلْقِي إِلَيَّ. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَفْعَلُ؟ قَالَ: ذَكِّرْهُمْ آلَائِي وَنَعْمَائِي لِيُحِبُّونِي»[٢].

لقد جعل الله هذه الخاصّيّة في روح بني آدم وهي أنّهم إذا علموا أنّ هناك من يخدمهم من دون طمعٍ أو مآرب فسوف يحبّونه.

بالطبع، إنّ هذا الأثر طبيعيٌّ وليس اختياريًّا، وإن كان النّاس يتفاوتون في درجة هذا الاستعداد ويختلفون في مستوى الشّكر والتّقدير، ولكن من غير الممكن أن لا يحبّ الإنسان من يُحسن إليه. لقد أعطى الله الإنسان ما يفوق كلّ خدمةٍ يمكن أن تستجلب محبّة الإنسان بآلاف آلاف المرّات، هذا بالإضافة إلى أنّ الله قد خلق الناس وأوجد فيهم إرادة الخير وأسباب ذلك، حتّى يتمكّنوا من خدمة هذا الإنسان. فعلى سبيل المثال، إن محبّة الأمّ، التي هي أطهر أنواع المحبة فطريةٌ، خاليةٌ من الطمع، وهي مضرب مثل في جميع آداب الشعوب والملل في العالم. فالأم التي تضحّي من أجل ولدها، قد أودع الله فيها محبةً بحيث إنّها إن لم تعطف على ولدها أو ترضعه فسوف تتألم. على الرُّغم من أنّ محبّة هذه الأم والخدمات التي يقدّمها الآخرون مهمّة جدًّا، إلّا أنّها لا يمكن أن تُقاس بالنعّم الإلهية التي هي أوسع من جميع الجهات. إنّ الموجودات ذوات الشعور وغير ذوات الشعور، كالأرض والسماء والسحاب والأمطار والشمس والبحر والجبال و... كلّها نِعمٌ إلهية. إنّها نِعم أوسع بكثير من تلك الخدمات التي يقدّمها الآخرون للإنسان.

إنّنا نرى محبّة الأم، لكنّنا نغفل عن محبّة الله؛ لهذا فإنّنا لا نعلم كم يحبّنا. فلو أنّ العين انفتحت وشعر القلب وأدرك محبّة الله، فسوف يفهم أنّ كلّ محبّة الدنيا ومحبّة أمّهات العالم لو جُمعت فإنّها ستكون كالقطرة في بحر

---

(١) كان موسى عليه السلام من أكثر الأنبياء كلامًا مع الله، وبهذه المناسبة سُمّيَ بكليم الله.

(٢) **مستدرك الوسائل**، الجزء ١٢، صفحة ٢٤٠.

محبّة الله، أو كذرّةٍ في ذلك الفضاء، بل أقلّ من ذلك. ولإدراك هذا المعنى نحتاج إلى شعورٍ فوق كلّ أنواع المشاعر العادية.



نظرةٌ عابرةٌ إلى النّعم الإلهيّة

انظروا فقط إلى عضوٍ صغير في هذا البدن كالعين مثلًا، وتأمّلوا ما فيها من تفاصيل بحيث إنّه لو تعطّل أحد أجهزتها لتعطّلت، وأصبح صاحبها مستعدًّا لبذل الغالي والنّفيس من أجل استرجاع بصره. لكنّنا لا ندرك قدر هذه النّعمة. وتُعلم قيمة وأهمية سائر الأعضاء والأجهزة الموجودة في أبداننا بمقارنتها بالعين.

وأعلى من ذلك آلة الفكر والتعقّل في الإنسان، بحيث إنّه لو كانت جميع أعضاء بدنه سليمةً وجميلةً، لكنّ عقله كان ناقصًا، فلن يكون لها أيّ قيمة. فهل أنّ الله تعالى قد باع الإنسان هذه الأجهزة والأعضاء؟ وهل أنّ الله قد تلقّى مالًا مقابل ذلك؟ لقد أعطانا الله تعالى العين والأذن واليد والرجل والأصابع والقلب والرئة والكبد، وهذه الأجهزة الكثيرة التي يؤدّي كلٌّ واحدٍ منها دورًا عظيمًا في حياتنا بالمجّان ومن دون مقابل.

ذاك الذي يكون مستعدًّا لأن يتبرّع بأحد أعضائه، كالكلية أو القلب أو بعض الأجهزة الأخرى، لمحتاجٍ، كم سيكون مورد محبّة وتقدير؟ وكم سيحبّ المريض وأقاربه ذاك الذي تبرّع له بهذا العضو؟ والآن انظروا كم لله من منّةٍ علينا أن وهبنا كل هذه الأعضاء ومن دون مقابل؟

إنّ أسهل طرق محبّة الله، والتي سيكون من آثارها الإقلاع عن المعاصي، هو التفكّر بنعمه. فبالإضافة إلى النّعم الجسمانية، فهناك العقل، والأنبياء عليهم السلام، والكتاب السماويّ الذي أنزله لهدايتنا، والشّأنيّة التي لنا في المجتمع، والعيوب التي سترها الله علينا. كلّ واحدةٍ منها هي نعمةٌ إلهيّة فائقة الأهمّيّة. ألا يُعدّ مثل هذا الإله العطوف جديرًا بالمحبة؟



إلـهي انْظُرْ إِلَيَّ نَظَرَ مَنْ نادَيْتَهُ فَأجابَكَ، وَاستَعْمَلتَهُ بِمَعونَتِكَ فَأطاعَكَ

لأجل توضيح هذا المقطع من المناجاة يجب الالتفات إلى نقاطٍ عدّةٍ:

١- ذكرنا أنّ لسان المناجاة هو لسان التضرّع وطلب العفو وأمثال ذلك وهذا ما يتطلّب لحنًا خاصًّا.

٢- توجد بيننا وبين الله سلسلة من الرّوابط والنِّسَب التي تكون ثابتةً على الدّوام ولا تتعرّض لأدنى تغيير، كنسبة الخالق إلى المخلوق التي لا تتبدّل. فالله تعالى هو الخالق دومًا ونحن البشر مخلوقون، وكذلك علاقة الرازق والمرزوق وأمثال ذلك، التي تُعدّ من الروابط التي لا تقبل التغيير. وتوجد نِسَب أخرى أيضًا تتبدّل بتبدّلنا نحن البشر، فمثلًا نحن لسنا أهل للرّحمة الإلهيّة، لكن يمكننا، من خلال إجراء بعض التغييرات، أن نصبح مشمولين برحمة الله. فالذي تغيّر هو حالنا لا الرّحمة التي هي في حالة دائمة من الإفاضة. ففي حال المعصية، تكون العلاقة بيننا وبين الله هي علاقة «عدم إفاضة الرحمة». وبعد المغفرة، تصبح العلاقة علاقة إفاضة الرحمة.

٣- إنّ الرابطة بيننا وبين الله هي رابطة تكوينيّة لا اعتباريّة، فنحن لا يمكننا تغييرها. كألوهية الله ومخلوقيتنا، فالله خالقنا تكوينًا ولا يمكن لأيّ مخلوق أن يغيّر هذه الرّابطة، حتّى أنّ الله لا يغير رابطة الخالق والمخلوق، وذلك لأنّ القدرة لا تتعلّق بالمُحال. فمن المحال أن يُصبح البشر إلهًا، لهذا فإنّ تغيير هذه الرابطة غير ممكن.

فالله تعالى ربٌّ تكوينًا وخالقٌ ومدبّرٌ ورازقٌ لنا. إنّ الأسماء الحسنى التي تُذكر عادةً في دعاء الجوشن الكبير وأمثاله (غير بعض الصفات مثل الحيّ والعليم و... والتي هي من صفات الذات سواء كنّا موجودين أو لا) لها مفاهيم إضافيّة؛ أي قد لوحظ فيها الرّبط بين الخالق والمخلوق. فأحيانًا تكون هذه الرابطة تكوينيةً وغير قابلة للتغيير، وأخرى تكون جعليةً؛ أي ينبغي أن نقوم باختيارنا بأداء فعلٍ ما لكي نغيّر هذه الرابطة، ونحن نطلب من الله أن يغيّر هذه الرابطة. الأشخاص العاديّون هم في الغالب ممّن يقومون بالأعمال الحسنة والسيّئة. فعلى سبيل المثال، الإيمان بالله ومناجاته هي من أعمالنا الحسنة، وباختلاف حالاتنا تختلف نسبة العلاقة بيننا وبين الله؛ فالرابطة حين الطّاعة تختلف عن الرّابطة في حال المعصية.

وفي هذا المقطع من المناجاة نقول: «اللهمّ! نحن عُصاة وفي الوقت نفسه نؤمن بك».

اللهمّ! إنّك قادر أن تنظر إلينا على نحوين: فإمّا أن تنظر إلى معاصينا ونكون في هذه الحالة نحن العُصاة وأنت الذي عصيناه، وإمّا تنظر إلى أفعالنا الحسنة، كالإيمان والطاعة، وفي هذه الحالة نكون نحن المطيعون وأنت المُطاع. إلهي! انظر إلينا كنظرك إلى أهل طاعتك، لا إلى أهل معصيتك. انظر إلينا نظرة لطف لا نظرة قهر. وفي بعض الأدعية، نقول: «انْظُرْ إِلَيْنا نَظْرَةً رَحيمَةً»[1]؛ أي افعل ما من شأنه أن يوجد تلك الظّروف في أنفسنا التي تجعلنا أهلًا لعطفك ولطفك. بالطّبع، إنّ هذا الحوار والمناجاة نفسهما هما علامة على تغيير الحال، التغيير من حالة الغفلة والجهل، إلى حالة التّوجّه والأنس.

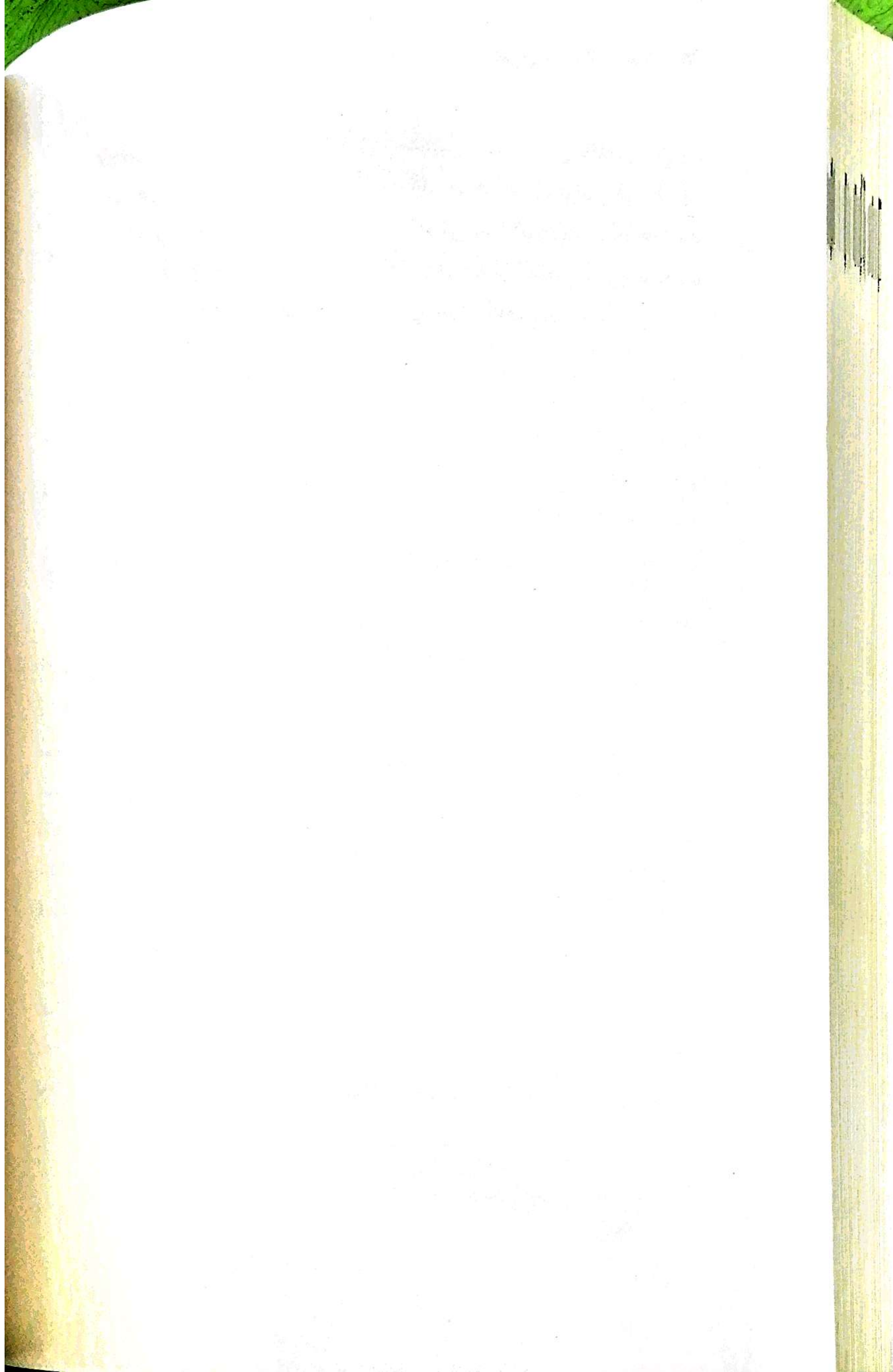
اللهمّ! أنت قادرٌ على أن تنظر إلى عبدٍ ذليلٍ وعاصٍ من مقام العزيز المقتدر الجبّار القهّار، وقادرٌ على أن تنظر من مقام المولى العطوف الرحمن الرحيم، إلى عبدٍ خاضعٍ طائعٍ يطلب العفو، يجيبك حين تناديه، ويطيعك حين تأمره.

---

(١) دعاء الندبة.



«نظر من ناديته»، هي إضافة إلى المفعول لأنّه متعلقٌ بالنظر، أي أنّ المنظور إليه هو الذي أجاب نداءك (لا أنّه قد نظر). لقد دعوتني في القرآن وقلت: «ادعوني أستجب لكم». كنت قد أمرتني وأنا أطعتك. بالطّبع، لقد قمت بهذا العمل بعونك وتسديدك، مثلًا، من خلال القدرة التي أوجدتها فيّ أو التوفيق الذي أفضته عليّ، فلا تنظر إليّ بعين الغضب.





يا قَريبًا لا يَبْعُدُ عَنِ المُغْتَرِّ بِهِ، وَيا جَوادًا لا يَبْخَلُ عَمَّنْ رَجا ثَوابَهُ

لقد ابتعدنا عنه لسنوات، وها نحن الآن نريد أن نتقرّب إليه. لهذا ينبغي أن نذكر الاسم القريب ونقول: «يا من اقترب إلى من اغترّ[1] وتجاسر وانخدع بالشيطان ونسي مقامك وعظمتك». وكذلك ينبغي أن نأتي على ذكر اسم الجواد ونقول: أيّها الجواد الذي لا يبخل عمّن يأمل ويرجو ثوابه. فالجواد ليس الذي يُعطي المستحقّ فحسب، بل الذي يُعطي الجميع، الأهل وغير الأهل، لأنّ الحديث هو عمّن رجا ثوابه، وليس عمّن يستحقّ ثوابه. إنّ اتّصافك بالجود يقتضي أن لا تحرم أحدًا.

---

(١) إنّ استخدام الاغترار مكان الاجتراء، أي إعطاء الجرأة للنفس، من باب الإشراف أو ضمنًا أو الاستعارة أو الكناية، هو بالمعنى الأخصّ. وأمّا الغرور في «ما غرّك بربّك الكريم»، هو بمعنى الاغترار وإيجاد جرأة مخادعة، وعصيانه وتمرّده على مولاه.



إِلهي هَبْ لي قَلْبًا يُدْنيهِ مِنْكَ شَوْقُهُ وَلِسانًا يُرْفَعُ إِلَيْكَ صِدْقُهُ، وَنَظَرًا يُقَرِّبُهُ مِنْكَ حَقُّهُ

وفي هذا المقطع من المناجاة يعرض ثلاثة طلباتٍ بين يدَيّ الله تعالى:

١- القلب الذي يشتاق إلى الله.

٢- اللسان الصّادق.

٣- النّظر التّابع من الحقّ، أو نظرة الحقّ.

لعلّنا كنّا نستطيع أن نطرح هذه الطّلبات الثلاثة على الشكل التالي: «إلهي هبْ لي قلبًا شائقًا ولسانًا صادقًا ونظرًا حقًّا». ولكن لقد أُعطي لكلّ واحد من هذه وصفٌ خاصٌّ، هو عبارة عن:

الأوّل: قلبٌ يكون شوقه مقرّبًا للإنسان إلى الله. فهو لا يحتاج إلى قلبٍ مشتاق فحسب، بل إلى قلبٍ يكون شوقه مقرّبًا إلى الله.

الثاني: لسان يكون قوله للحقّ رافعًا للإنسان إلى الله. فهو لا يحتاج إلى لسانٍ صادق فحسب، بل الذي يكون صدقه وقوله للحقّ موجبًا لارتقاء الإنسان إلى الله.

الثالث: نظرة تكون حقيقتها موجبةً للتقرّب إلى الله. فهو لا يحتاج إلى نظرة الحقّ فحسب، بل أن تكون حقيقتها سببًا لتقرّبه إلى الله. والاحتمال القويّ هو أنّ المقصود ها هنا من النظر هو البصيرة لا العين الباصرة، أي



النظر والرؤية التي تكون في حقّانيتها سببًا لتقرّب الإنسان إلى الله[١].

إنّ الطلب الأوّل في هذا المقطع من المناجاة هو القلب المشتاق إلى الله الذي يكون باعثًا على تقرّب صاحب القلب إلى ربّ العالمين. والآن يجب أن نرى ما هو معنى الشّوق إلى الله، ومن ثمّ نحلّل كيف يمكن للقلب المشتاق أن يقرّب صاحبه إلى الله.

ظنٌّ خاطئ والجواب عليه

يظنّ البعض أنّ حبّ الله هو أمرٌ غير صحيح، وإنّما ينبغي أن نحبّ رحمة الله، أو ثوابه، أو جنّته، أو بالحدّ الأقصى أولياءه، ولأنّ الحبّ يتعلّق بالشّيء المرئيّ والذي يقبل الالتذاذ والأنس، فإنّ محبّة الله تكون بلا معنى. ولكن بسبب وجود نصّ صريح في القرآن يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٢]، فإنّ مثل هذا التصوّر غير صحيحٍ، وكل هذه العبارات المدهشة الواردة في الأدعية والمناجاة، وخصوصًا في دعاء عرفة، لا تُبقي أي مجالٍ للشكّ بأنّ المقصود هو حبّ الله. لذلك فإنّ الظن بأنّ الحبّ لا يتعلّق إلّا بالمحسوسات هو ظنٌّ خاطئ. إنّ الحب هو حالةٌ جعلها الله في روح بني آدم تتعلّق بكلّ شيء جميل سواء كان مرئيًّا ومحسوسًا أو غير محسوس، وقد جُمعت كلّ الفضائل في الله، وإنّ أعلى مصداق للحبّ هو حبّ الله.

سؤالٌ وجوابه

هنا يبرز هذا السّؤال وهو: ما معنى الشّوق إلى الله؟ التفتوا إلى هذا التّوضيح والمثال.

---

(١) بحسب ظاهر اللفظ فإنّ ضمير يقرّبه يعود إلى النّظر، ولكن من المستبعد أن يكون هذا هو المُراد، بل هذا من الموارد التي يرجع فيها الضمير إلى المصاحب، أي ينبغي أن يُقال هكذا: نظرًا يقرّبه منك حقّه؛ أي أعطني نظرًا يقرّب صاحب النّظر، الذي هو "أنا"، إليك.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

إنّنا نحبّ العدالة، لكنّنا لا نستطيع أن نقول إنّ الإنسان مشتاقٌ للوصول إلى العدالة، وذلك لأنّ الشّوق يكون مطروحًا حين يرى الإنسان أحدًا ويتعلّق به ويحبّه، والآن أصبحت هناك مسافة بينه وبين محبوبه توجب انبعاث الشّوق للوصال من جديد. فالشّوق إذًا حالةٌ بعد الحبّ. إنّ اشتياق القلب إلى الله هو بمعنى أنّ القلب يحبّ الله ويريد أن يصل إليه، لكنّ يده قاصرةٌ مع إمكانية حصول هذا القرب.

ومن الأبحاث المعقّدة جدًّا، التي طُرحت في المعارف الدّينيّة، وقام أصحاب الجمود الفكريّ بتأويلها أو التزموا الصّمت والسكوت بشأنها وتوقّفوا عندها هي قضية رؤية الله. فالقرآن الكريم يذكر بشأن موسى عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[1]، وقد كان جواب الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾[2].

ولا شكّ بأنّ موسى عليه السلام لم يكن شخصًا جاهلًا بحيث يدّعي أمرًا أو يطلبه عن جهل، أو يسأل الله شيئًا مستحيلًا، فكيف طلب مثل ذلك؟[3]

وهناك آيات أخرى من قبيل: «وُجُـوهٌ يَوْمَئِذ ناضِـرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَة»، والكثير من العبارات المرتبطة بالرّؤية والمشاهدة ولقاء الله، التي وردت في القرآن والرّوايات والمناجاة، والتي ينبغي شرحها وتوضيحها.

لا شك أنّ رؤية الله لا يمكن أن تتحقّق بهذه العين الباصرة، لأنّ هذه العين لا ترى سوى لون المحسوسات وهي لا تقدر على إدراك الرّوائح والأوزان والأصوات وغيرها، فكيف بالأمور غير المحسوسة؟! إنّ العين لا ترى سوى الألوان والله ليس لونًا ولا لون له، لذا لا يُعقل أن يُرى سواء كان ذلك في الدّنيا أو في الآخرة. بعض الإخوة من أهل السّنّة الذين قالوا برؤية الله

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٣.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٣.

(٣) إنّ البعض قد لجؤوا إلى تأويلات بعيدة عن الإنصاف العلميّ وقالوا إنّ هذا الكلام شعر.

في الآخرة لم يلتفتوا إلى أنّ المستحيل العقليّ لا ينحصر بالدّنيا، لأجل ذلك تمّ التركيز في نهج البلاغة على: «لا تَراهُ الْعُيُونُ بِمُشاهَدَةِ الْعِيانِ وَلكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقائِقِ الإيمانِ»[١].

فرؤية الله بالقلب ممكنةٌ، ولهذا يشتاق الإنسان إلى رؤيته، ويوجد ما هو أعلى من ذلك في المناجاة الخمس عشرة وأمثالها مثل عبارة «الوصول إلى الله» والتي يمكن أن تُفسّر بهذه الرّؤية الحقّة والدّرجة الأعلى من الرّؤية في الآخرة، والتي هي من مختصّات أولياء الله. وسرّ ذلك أنّ البنية الجسمانيّة في الدّنيا لا يمكن أن تتحمّل التجلّيّات الإلهيّة، حتّى أنّ الجبل لم يقدر على ذلك، وكذلك موسى عليه السلام قد صُعق، ولو حصلت له الرؤية الكاملة لما بقي منه أي شيء[٢].

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وَلَوْلا الآجالُ الَّتي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْواحُهُمْ في أَبْدانِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن»[٣].

قد تكون الحالات الرّوحيّة الفوّارة قويّةً إلى درجةٍ يُصبح تحمّلها صعبًا، بل غير ممكنٍ أيضًا. وقد يؤدّي لقاء عزيزٍ كان بعيدًا عن الإنسان لمدّةٍ طويلة إلى غشيان الإنسان، فالبدن ليس لديه قدرة تحمّل مثل هذه اللذّة الفجائيّة التي تعرض على الرّوح.

لا شكّ بأنّ نيران الشّوق ستشتعل في قلب الإنسان الذي يعلم أنّه يمكنه أن يرى ربًّا محبوبًا بعين القلب، وكلّما قويَ هذا التّوجّه إلى هذه الحقيقة، فإنّ شوق اللقاء سيزداد أيضًا. بالطّبع إنّ العلم بهذا المطلب ليس كافيًا، بل من الضروريّ وجود التّوجّه إليه؛ أي يجب أن نعلم أوّلًا بأنّ الله هو الكمال المطلق، وأنّه أكثر شيءٍ محبوب؛ حينها فإنّ هذا الاعتقاد القلبيّ

---

(١) **نهج البلاغة**، كلام ١٧٩.

(٢) لكن لأنّ وجود الإنسان في الآخرة، التي هي دار الحيوان، يكون وجودًا أقوى ولا وجود للموت فحين تتحقّق الرّؤية الكاملة ستتحمّل البنية الجسمانية ذلك.

(٣) **نهج البلاغة**، خطبة المتقين.

والمعرفة مع التّوجّه إلى الله والغفلة عمّا سواه سيثمر، وسيقوى الشوق إلى لقائه في نفوسنا؛ بحيث كلّما ازداد التّوجّه سوف يزداد الشّوق إلى لقائه أيضًا.

أجل، أحيانًا توجد أمور تتسبّب بتلهّي القلب وغفلته عن الله، وتكون النتيجة أن لا يعود هناك شوقٌ في القلب للقاء الله. لقد سمعنا عن بعض المجذوبين إلى الله الذين فقدوا السّكينة والقرار، ولم تعد قلوبهم تأنس بما سوى الله؛ فهؤلاء ليسوا مثلنا نحن الأشخاص العاديّين الذين ننشغل بالملاهي العبثيّة وبكل هذه المتاعب؛ فهؤلاء على هذا اليقين الذي يقول: «وكُلُّ جَمالِكَ جَميل».

قد نطلب أحيانًا بعض الحاجات، من قبيل التّوسعة في الرّزق والسّلامة وشفاء المرضى و... من أعماق قلوبنا، وذلك لأنّنا قد آمنّا بأنّها حاجات جدّيّة، ولو عانينا مدّةً ما من الانتقال من دارٍ إلى دار، ومن متاعب الاستئجار فسوف نطلب من الله من أعماق قلوبنا أن يرزقنا منزلًا.

لو أحبّ إنسانٌ شخصًا ما، وفي الوقت نفسه لم يستطع أن يراه لمدّةٍ طويلة، فإنّه لا شك سيكون منتظرًا للقائه بفارغ الصّبر، فإذا انشغل بشيء غير هذا الشّوق، فإنّ هذا الشّوق سيخمد. بناءً عليه، نجد الأطبّاء يوصون أولئك الذين ابتُلوا بأنواع العشق الشّديد وما يترتّب عليه من أمراض، أن ينشغلوا بأمورٍ محدّدة، لأنّ الذهن والقلب كلّما ركّز على ذكر المحبوب أو أحوال المعشوق فسوف يزداد لهيب اشتياقه.

فالمرجوّ أن نطلب من الله شوق لقائه، وأن يكون طلبنا هذا جدّيًّا وصادقًا، ومثل هذه الحالة لا تحصل إلا بالمقارنة مع سائر الأمور المناسبة.

إنّ الشّوق للقاء الله يستلزم ذكر الله. فكلّما أصبح الذّكر والتّركيز أكثر، فسوف يزداد الشّوق أيضًا. لأجل تجربة هذا الأمر، قوموا عدّة ليالٍ في السّحر لمدّة ساعة في مكانٍ خالٍ، فيه ضوءٌ خافت، ووجّهوا قلوبكم إلى الله (سواء بالذّكر اللفظي أو بدونه). فالليل هادئ ولا توجد فيه عوامل تشغل القلب. يجب اختيار مكانٍ بعيدٍ عن الأبصار، ومن خلال التّمرين والتّكرار، يمكنكم أن

توجدوا في أنفسكم هذا الشوق بالتدريج، وإن كان الأمر في البداية صعبًا وشاقًّا.

ليس غريبًا أن يأمر الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾[1]، وأيضا: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ [...] وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[2]، ذلك لأنّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[3].

نحن نعتقد أنّه في أعماق قلوبنا وباطن فطرتنا يوجد طريق إلى الله، وهناك لا وجود للحديث عن المفاهيم، فالقلب في أصل وجوده مستأنسٌ بالله، و﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[4]، دليلٌ على المعرفة الفطريّة بالله. الأغراب أبعدونا عن الله وفصلونا عنه، فلو أعرضنا عن ذكرهم فإنّ القلب سيعود إلى مأنوسه، ولكن ليس عن طريق المفاهيم، فالمفاهيم ترتبط بعالم الذهن، بل عن طريق معرفة القلب، فالله الذي هو أيضًا مشتاقٌ لخلقه، يقول وفق إحدى الرّوايات: «إنّ أحبائي يشتاقون إليّ وأنا أشوق إليهم».

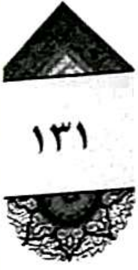
---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٧٩.

(٢) سورة **المزمّل**، الآيات ٢و ٤.

(٣) سورة **المزمل**، الآية ٦.

(٤) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٢.



إلـهي إنَّ مَنْ تَعَرَّفَ بِكَ غَيْرُ مَجْهُول، وَمَنْ لاذَ بِكَ غَيْرُ مَخْذُول، وَمَنْ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ غَيْرُ مَمْلُول

يعلم الإنسان، بالإجمال، أنّ كل أمر وكل حال إنّما يتحقّق، وكلّ مطلبٍ إنّما يدخل حيّز التنفيذ في ظلّ الارتباط بالله، وعلى أثر قطع الارتباط بالله يحصل الفشل والهزيمة والشقاء. لكن طبيعة الإنسان هي بحيث إذا أدرك أمرًا بالتفصيل وبوضوح، يكون له أثرٌ أكبر في أعماق وجوده. فعلى سبيل المثال، لو قلنا على نحو كلّيّ: «إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير، وإنّه الرازق، وإنّ كلّ موجود سيحصل على رزقه منه، وقمنا بتوضيح ذلك على نحوٍ مفصّل، وعلمنا أيضًا أنّه لا يحرم حتّى الطفل الرضيع من رزقه «يا رازِقَ الطِّفْلِ الصَّغير». فلو كان هناك كائنٌ حيّ في أقصى الصّحراء أو في قعر البحار أو في أوج السّماء، فإنّ الله يوصل إليه رزقه. إنّ هذا الكلام سيؤثّر في أرواحنا أكثر.

وفي هذا المقطع من المناجاة نشير إلى نماذج عدّةٍ من الأمور التي تتحقّق في ظلّ الارتباط بالله. بالطبع، يمكن الإشارة إلى نماذج كثيرة بشأن هذه القضيّة، ولكن بما أنّه ينبغي أن نُراعي حجم الدّعاء والمناجاة، نكتفي بعدّة موضوعات ونماذج:

١. كلّ من يُعرف بواسطة الله لن يبقى مجهولًا

يوجد لكلمة «تعرّف» معانٍ عدٌّ؛ فأحيانًا، تكون بهذا المعنى أنّ الإنسان يدلّ على نفسه بنحوٍ يجعل الآخرين يعرفونه؛ وهذا المعنى يقابل التنكّر، حيث يرتدي الإنسان لباسه ويكون هندامه بنحو يجعل الآخرين لا يعرفونه.

وتُستعمل كلمة «تعرّف» بالعادة مع حرف إلى أو (ل) فتكون متعديّة، ويُقال: تعرّف إليه وتعرّف له، ونقرأ في دعاء عرفه: «تَعَرَّفْتَ إلَيّ في كُلِّ شَيء حتّى لا أجْهَلَكَ في شَيْء». وبحسب المصطلح العرفانيّ كلّ الأشياء هي مرآة ظهورك، وفي عبارةٍ أخرى نقرأ: «تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْء». أما في هذا المقطع من المناجاة فقد وردت على نحو «من تعرّف بك». بناءً عليه، تكون نتيجتها بلفظِ غير مجهول لا بمعنى غير جاهل. أي لو أنّك قمت بعملٍ فعلم به شخصٌ بصفةٍ ما أو في مكانٍ ما فإنّه لن يبقى مجهولًا. وفي هذه الجملة وبقية الجمل تمّ التأكيد على كلمة «بك»؛ أي أنّ كل شيء يحصل بالارتباط بالله.

إنّ هذا الصّيت وطلب الشهرة المذمومة في علم الأخلاق والتي تعدّ من الرذائل الأخلاقية، هي ميلٌ شيطانيّ ونفسانيّ، ولكن الاشتهار المطروح في هذا المقطع من المناجاة هو أمرٌ حسنٌ، ذلك لأنّ الناس تستفيد من المؤمن نتيجة اشتهاره، كالنبيّ سليمان عليه السلام الذي سأل الله تعالى قائلًا: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[١]، فلم يكن لهذا النبيّ هوسٌ في السلطة أو بالاقتدار الذي يكون لسائر السّلاطين وأصحاب النفوذ، لأن مثل هذا الهوس هو هوسٌ طفوليّ، بل ما كان يريده هو أن ينشر دين الله والتوحيد في ظلّ هذه القدرة والسلطة التي لا نظير لها؛ لذلك، فإنّه بعد الوصول إلى السلطة وامتلاك كل أنواع الإمكانات بقيَ يكتسب معيشته من خلال صناعة الحصير[٢].

هناك أشخاصٌ كانوا صادقين في ادّعائهم هذا، وكانوا عاشقين لهداية الآخرين إلى الدرجة التي كانوا يبحثون فيها عن أي وسيلةٍ تحقّق لهم هذا الهدف، مثلما طلب إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى

---

(١) سورة ص، الآية ٣٥.

(٢) بالطّبع، يمكن لبعض الأشخاص أن يدّعوا مثل هذا الأمر، لكنّ الله يمتحنهم مثلما قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة، ٧٥]؛ لكنّ الله رفع ستار صفة النفاق عنهم وقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾. [التوبة، الآية ٧٦].



ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾[١]. إنّ هذا هو إبراهيم الذي أُمر النبيّ الأكرم ﷺ باتّباعه: ﴿أَتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[٢]. فحين نصّبه الله إمامًا، سأل ذلك لأبنائه أيضًا كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

فإبراهيم عليه السلام الذي كان يريد أن يُذكر اسمه بعد موته بالحسن أو أن ينال أبناؤه الإمامة، هو هذا الإنسان الذي كان يقول بكلّ إخلاص: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[٤].

فما كان يريده من بقاء ذكر اسمه واشتهاره، لم يكن بدافع حبّ الذات (مثل بعض الناس الذين يطبعون أسماءهم وصورهم لأجل الاشتهار بين الناس)، بل من أجل بقاء تعاليمه ليهتدي الناس إلى التوحيد.

يمكن للبعض أن يطلبوا الشهرة، ولكن ليس بدافع الهوس، بل لأجل خدمة الآخرين؛ لأنّه لو كان الشخص مجهولًا فإنّه لن يعتني بكلامه أحد، ولن يعرفوا دروسه وكتبه ولن يستفيدوا منها. أمّا بقاء ذكر العلماء الكبار واشتهارهم ومعرفة الناس بهم، فهو سببٌ لاستفادة الناس من دروسهم وكتاباتهم.

٢. الذي يلجأ إلى الله لن يكون ذليلًا ووحيدًا ومن دون ناصر

الجميع يعلمون أنّ القوى التي يتمتّعون بها لا تكفي لتأمين حاجاتهم، وعليهم أن يستفيدوا من أحد العوامل الخارجيّة لرفع المشكلات التي تواجههم. فعلى سبيل المثال، إذا هدّدهم عدوّ يجب أن يلجؤوا إلى مكانٍ ما. إنّ شأن المؤمن الموحّد هو أنّه كلّما شعر بالحاجة يتوجّه إلى الله، ويلجأ إليه، وهذا اللجوء

---

(١) سورة **الشعراء**، الآية ٨٤.

(٢) سورة **النحل**، الآية ١٢٣.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ١٢٤.

(٤) سورة **الأنعام**، الآية ٧٩.

يختلف بحسب مراتب إيمان المؤمنين؛ فالبعض يكونون كذلك في كلّ أمورهم وأحوالهم، وإذا استفادوا من الأسباب والوسائل فذلك تحت عنوان أداء التكليف، وإلّا فهم يعلمون أنّ الأمور كلّها بيد الله. قلّةٌ هم الذين وصلوا إلى هذه المرتبة من التوحيد.

قد يعيش بعض الأفراد ظروفًا لا يمكن لأحد أن يخدمهم في ظلّها، وبسبب ذلك فقط هم يلجؤون إلى الله. وقد تعرّض القرآن الكريم لهذا الموضوع مرارًا، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾[1]. لو لجأ الإنسان إلى صديقٍ حميم مراتٍ عدّةً ولم يتمكّن هذا الصديق أن يفعل له شيئًا، فإنّه في النهاية سيتركه وهو منزعج، ولكن إذا لجأ إلى الله فلا يمكن أن يشعر بالذلّ أو الهوان بل سوف ينجيه من كلّ بلاءٍ.

٣. من يقبل الله عليه لا يتعب ولا يملّ

الإنسان في العادة بعد مدةٍ من الأنس بأصدقائه وزملائه ومجالستهم يشعر بأنّ هذه اللذة وشدّة الأنس قد نقصت، وشيئًا فشيئًا قد يتعب من التردّد إليهم، ولكن لو أنّ الله أقبل على إنسان، لا يمكن أن يتعب أبدًا، بل إنّ محبّته له ستزداد.

لو أنّنا لم نعمل بحسب مسؤوليّاتنا تجاه الله بشكلٍ صحيح، فإنّ الله لن يُقبل علينا، وفي هذه الحالة ستهجم علينا كل أشكال التعب والإحباط، ولكن لو أنّنا عملنا بوظيفة العبوديّة، فإنّ الله سيوفّر لنا أرضيّة الأنس به ولن نُبتلى بالملل.

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٥.

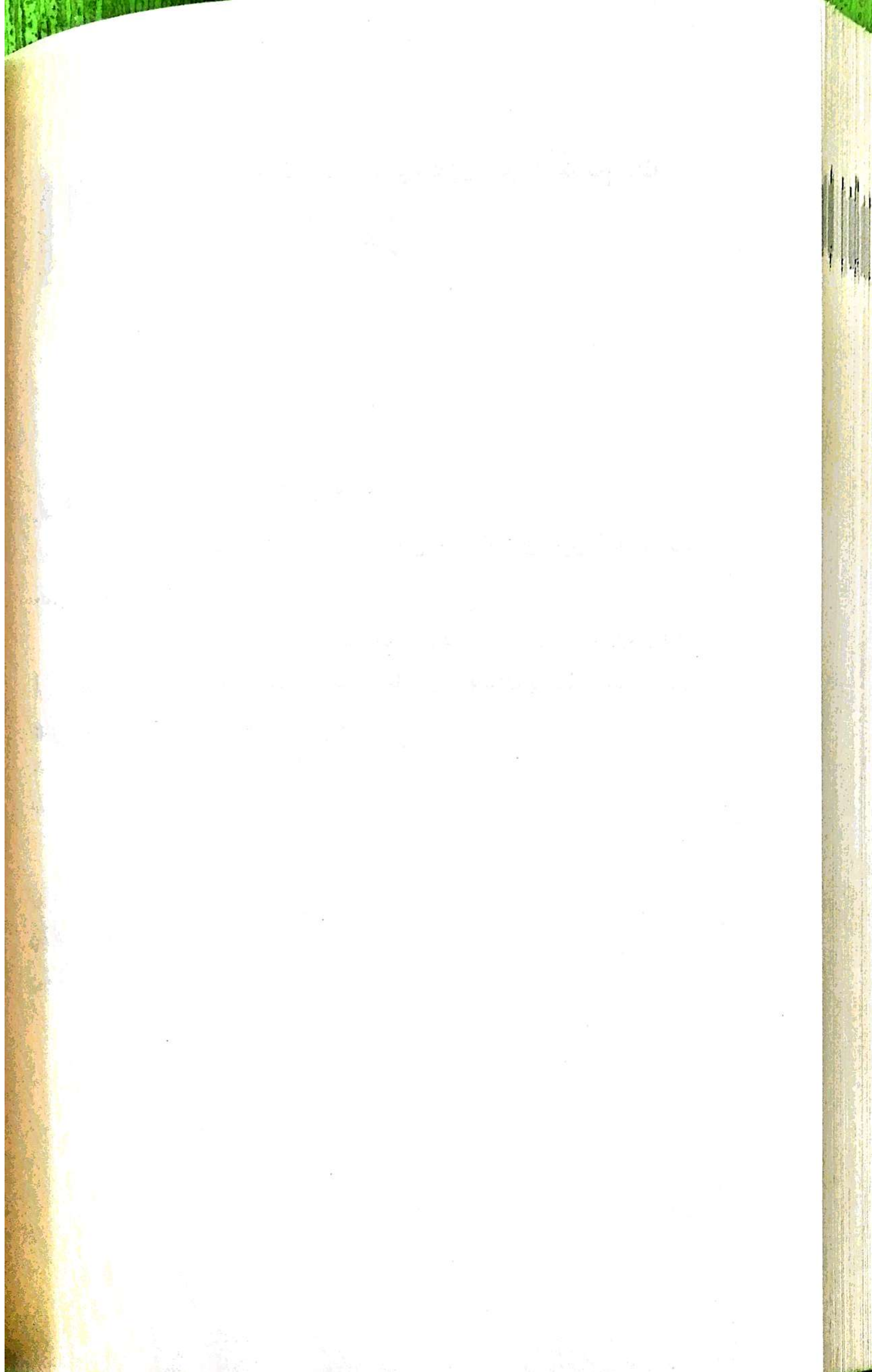


إلهي إِنَّ مَن انْتَهَجَ بِكَ لَمُسْتَنيرٌ، وإِنَّ مَنِ اعْتَصَمَ بِكَ لَمُسْتَجيرٌ

في هذا المقطع من الدعاء يُشار إلى مطلبَين:

الأوّل: إنّ الذي يستمدّ من الله العون لكي يجد الطّريق، فإنّ الله سيعينه حتّى يسلك الطّريق الواضح.

الثاني: إنّ الذي يعتصم بحبل الله فإنّ الله يؤويه. فلو أنّ شخصًا أراد أن يسقط من الأعلى فإنّه يتمسّك بحلقةٍ. فالذي يتمسّك بفضل الله ورحمته على هذا النحو فسوف ينجيه من السقوط.





وَقَدْ لُذْتُ بِكَ يا إلـهي فَلا تُخَيِّبْ ظَنّي مِنْ رَحْمَتِكَ، وَلا تَحْجُبْني عَنْ رَأفَتِكَ

ويُطرح في المقاطع الأخيرة خمس قواعد كليّة كبرى وهي:

١- إنّ كلّ من يصبح معروفًا بالله لن يبقى مجهولًا.

٢- كلّ من يلوذ بالله لن يبقى بلا نصير.

٣- كلّ من يُقبل الله عليه لن يُبتلى بالملل.

٤- كلّ من يسلك طريق الله، فإنّ طريقه سوف يصبح مُضاءً.

٥- كلّ من يتمسّك بالله، فإنّه سيحصل على الملجأ.

وهنا يأتي وقت أخذ النتيجة، لهذا نقول:

«اللهمّ! طالما أنّني لجأت إليك، وأنّك تعصم كلّ من يلجأ إليك وتؤويه، فهل يمكن أن لا تعصمني؟! فلا تُؤيسني من رحمتك ولا تجعل بيني وبين عطفك مانعًا، لأنّ مقصد لطفك ورحمتك موجودٌ فيك، وإن لم أصل إليه فذلك بسبب المانع. اللهمّ ارفع هذا المانع واجعلني أنال ذلك.

إلـهي أقِمْني في أهْلِ وِلايَتِكَ مُقامَ مَنْ رَجا الزِّيادَةَ مِنْ مَحَبَّتِكَ

وبشأن هذا المقطع من المناجاة، من الجدير أن نتفكّر بموضوعاتٍ عدّةٍ:

١- يوجد أشخاص هم من أهل ولاية الله.

٢- يجعل الله أشخاصًا في جمع هؤلاء الأشخاص.

الولاية وأهلها

والآن ينبغي أن نرى ما هي ولاية الله، وما هي خاصيّة أولئك الذين يجعلهم الله من بين أهل الولاية، وكذلك كما أُشير في هذا المقطع من المناجاة، من هم الذين يأملون بزيادة المحبّة، وما هي الرابطة الموجودة بين الولاية والرابطة الإلهيّة.

هذه كلّها أسئلة تحتاج إلى أبحاثٍ طويلة، لا مجال للتعرّض لها الآن. لقد نالت كلمة الولاية في ثقافتنا موقعيّةً خاصّةً، لا سيّما بعد الثّورة الاسلاميّة. لا يوجد معادلٌ لهذه الكلمة في اللغة الفارسيّة. وقد عرض المفسّرون الكثير من الشّروحات لتفسير هذه الكلمة. ولو أردنا أن نبيّن أقرب مفهوم في هذا المجال فهو مفهوم الارتباط. فأحيانًا يكون هناك موجودان، كلّ واحد منهما جنب الآخر، ويؤثّر كلٌّ منهما في صاحبه، فهذا النحو من الارتباط والتأثّر يُطلق عليه في اللغة العربية كلمة «الولاية». ولكن أحيانًا يُلاحظ هذا المفهوم بين طرفين يكون أحدهما مؤثّرًا والآخر متأثّرًا مثلما أنّ الله وليّ الإنسان، رُغم أنّه لا يمكن لأحد أن يؤثّر بالله. وقد عرّف القرآن

الكريم أشخاصًا بأولياء الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[1]. وكذلك نحن نقول في الشهادة بالولاية: «أَشۡهَدُ أَنَّ عَلِيًّا وَلِيُّ الله»، فالله وليّ عليّ عليه السلام، وعليّ عليه السلام وليّ الله، فتكون الرابطة من جهتَين، إلّا أنّ التّأثير يكون فقط من جانب الله تعالى. بالطّبع، قد تكون الرّابطة أيضًا من جانبٍ واحدٍ، مثل الأب الذي يكون وليّ الطفل، بينما لا يكون الطفل وليّ الأب، أو القائد الإسلاميّ الذي يكون وليّ المسلمين، بينما لا يكون المسلمون أولياء أمره. هذا في حين أنّ المسلمين فيما بينهم بعضهم أولياء بعض ولكلّ واحدٍ منهم ولاية على أخيه، ولهم حقّ مراقبة أعمال بعضهم بعضًا، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤثّر كلّ واحدٍ منهم في الآخر. فهم كالجسد الواحد؛ يرحّب كلّ واحدٍ بإرشاد أخيه له، مثلما أنّ العين تُرشد اليد والرّجل، وهذه الأعضاء تشكر العين أثناء طيّ الطّريق، فهي لا تعترض عليها قائلةً لها: لا دخل لك في الأمر!

فالمؤمنون مرتبطون فيما بينهم بصورةٍ منظّمةٍ، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾[2].

كما إنّ الملائكة هم أولياء الإنسان، والرّابطة بينهم وبينه ذات بُعدَين، كما ينقل الله عن لسانهم ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[3]. ومن الممكن أن يكون الجنّ والشّياطين أولياء لبعض النّاس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾[4]، والطّواغيت هم أولياء الكفّار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[5].

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٦٢.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٧١.

(٣) سورة **فصلت**، الآية ٣١.

(٤) سورة **النحل**، الآية ١٠٠.

(٥) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٧.

ولاية الله

الولاية عبارةٌ عن الارتباط القريب بالطّرف المقابل، مع وجود تأثيرٍ سواء كان حسنًا أو سيّئًا. ولله الولاية على جميع الكائنات، وهو أقرب من كلّ موجود إلى نفسه، ويفعل به ما يشاء. إنّ الولاية الإلهيّة العامّة، مثل الربوبيّة العامّة، متساويةٌ بالنسبة لنا جميعًا. أمّا تلك الولاية الخاصّة على الكائنات الشّاعرة والمدركة والمختارة فهي ولاية تتطلّب أن يكونوا لائقين لينالوها. فلو أراد أحدٌ أن يكون تحت لواء الإرادة الإلهيّة ويصبح وليّ الله، بمعنى أن يكون الله مشرفًا على جميع أعماله ويدبّرها ولا يكله إلى نفسه، عليه أن يكون لديه إيمان ويعمل وفق مقتضياته؛ ذلك لأنّ «اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا». فإذا لم يكن الإنسان مؤمنًا لن يتولّى الله أموره ولن يتعهّد بتدبير شؤونه. أمّا الذي يتولّى الله شؤونه، فإنّه يعلم ما الذي ينبغي أن يقوم به وينتهي إلى نفعه، ولن يكون قلقًا. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، لأنّهم يعلمون بأنّ الله يحبّهم ولا يريد لهم سوى الخير، لذا لا مكان للقلق والاضطراب هنا.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «مَا عَجِبْتُ مِنْ شيء كَعَجَبِي مِنَ الْمُؤْمِنِ إِنَّهُ إِنْ قُرِضَ جَسَدُهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ مَلَكَ مَا بَيْنَ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَكُلُّ مَا يَصْنَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَه»[2].

بالطّبع، لهذه الولاية مراتب تتّجه إلى ما لا نهاية. المرتبة الأولى هي تلك التي يكون فيها الإنسان قانعًا بأيّ شيءٍ يناله ويكتفي برزق يومه الحلال والزّوج الجيّد ورفع البلاءات وتأمين حياته. والمرتبة الأعلى هي أن يدرك كم أنّ الله، الذي قد تصدّى لشؤونه وتعهّد بولايته، كم هو لائق للمحبّة وكم يحبّه، فلا يقنع بالمقدار الموجود من محبّته.

ففي هذا المقطع من المناجاة نقول: اللهمّ! اجعلني في أهل ولايتك

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٦٢.

(٢) **الكافي**، الجزء ٥، صفحة ٦٩.

(ولكن في أيّ زمانٍ؟ فمن المعلوم أنّ مقامات أهل الولاية متعدّدةٌ، وبناءً عليه نطلب ذلك)، ومن بين أولئك الذين يأملون بزيادة محبّتك. فيمكن أن نستنتج موضوعاتٍ عدّةً من هذا المطلب:

١- إنّ من لوازم الإيمان وجود رابطةٍ خاصّةٍ مع الله تعالى.

٢- إنّ الله خالق وربّ كلّ شيء، ولكن عنايته لا تشمل الجميع على حدٍّ سواء، فهو يمدّ كلًّا من عباد الدّنيا وعباده، «كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ». ولكن مدد الله متفاوت، فهو يعطي بعض الأشخاص ما يكون لمصلحتهم على الرغم من أنّهم أنفسهم لا يعلمون ذلك، بل ربّما يشتكون، كما يحصل في الفقر والزلازل والسيول، والله تعالى يقول: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾[١]، ذلك لأنّ هؤلاء لا يدركون أسرار التدابير الإلهية وما في كلٍّ منها من حِكَمٍ.

٣- لا يستطيع كلٌّ منّا أن يكون في المقام الذي يريد، بل ينبغي أن يعطيه الله ذلك المقام ويحفظه ويزيده. لهذا، علينا أن نسأل الله العطاء والحفظ والزيادة.

ينبغي للإنسان أن يكون لائقًا حتّى يفيض الله عليه بنور المعرفة. ليست اللياقة بالدّراسة والتّفكير والمباحثة والكتابة وفتح المدارس والإرشاد. أجل، يمكن للإنسان بواسطة هذه الأشياء أن ينطق بالمعرفة، أمّا نورانيّة القلب فشيءٌ آخر: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[٢]. فالتّنوّر لا يجري وفق رغبتنا، وكأنه فتيلة مصباحٍ نرفعها ونخفضها بأيدينا، بل ينبغي أن يزيدنا الله من عنده معرفةً وولايةً وعشقًا ومحبّةً. فقد يطرق الإنسان كلّ بابٍ أحيانًا فلا يُفتح له، وأحيانًا أُخرى يشعر بالاطمئنان وبأنّه قريبٌ من الله، وربما يشاهد الله ويخاطبه.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٦.

(٢) سورة **النور**، الآية ٤٠.

لهذا ينبغي أن نسأله بجدٍّ تامّ ونكون لائقين لذلك أيضًا: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[١]، أمّا إذا لم نسأل ولم نتجّه ولم نتوسّل، فلن يكون من خبرٍ ولا أثر. بالطّبع، إنّ الدّعاء هذا منوطٌ أيضًا بالتّوفيق الإلهيّ، وهو معلولٌ لعوامل ينبغي أن تُفاض من جانب الله، لهذا ينبغي أن نلتفت:

أوّلًا: إنّ قيمة الكمالات المعنويّة هي أرقى وأعلى من الأمور المادّيّة. فإذا أراد الإنسان مثلًا أن ينال بعض الآلاء فعليه أن يتعب ويبذل الجهد ويبحث في الأماكن الصّعبة، فإذا كان الحصول على الأمور المادّيّة يحتاج إلى مثل هذا التّعب، ففي الأمور المعنويّة يكون التّعب أكثر وينبغي أن نكتشف طريق الوصول إليها.

ثانيًا: لأنّ الله يحبّ أولياءه فإنّه يريدنا أن لا نغترّ. لهذا ينبغي أن نتوسّل بأوليائه من أجل الوصول إلى هذه الكمالات، ومن خلال مسيرهم هذا، نُدرك تلك الكمالات.

ثالثًا: لا ينبغي أن نقنع بمرتبةٍ من المحبّة والمعرفة، بل علينا أن نجعل كلّ مرتبةٍ منصّة انطلاقٍ إلى المرحلة التالية، وأن نعلم أنّ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢]. فإذا عملنا بمُقتضى النّورانيّة الحاصلة من كلّ مرتبةٍ، فإنّ الله سيعمل وفق وعده المؤكّد المبنيّ على زيادة ذلك، وفي هذه الآية الشّريفة توجد أمورٌ عدّةٌ تمّ التأكيد عليها.

١. إنّ التأذّن الذي هو من باب التفعّل، هو لأجل زيادة المفهوم؛ أي أنّ الله يُعلن بوضوحٍ تامّ، لكيلا يخفى الأمر على أحد، لأنّ الأذان هو بمعنى الإعلام العام والواضح.

٢. «لئن شكرتم» هي صيغة القسم.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٣٢.

(٢) سورة **إبراهيم**، الآية ٧.

٣ و ٤. «لأزيدنّكم» مع لام القسم مصاحبة بـ «نون» التأكيد الثقيلة.

فالله يقسم بأنّه في حال الشّكر يزيد النّعم المادّيّة والمعنويّة، ويذكر لنا أحيانًا قصصًا، كقصّة «بلعم بن باعوراء» لأجل أن يحذّرنا من أنّ الإنسان يمكن أن يصل إلى أعلى المقامات ثمّ يسقط إلى أسفل سافلين: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

أنواع العباد

كما تعلمون يُقسَّم النّاس في مقام العبوديّة إلى ثلاث فئاتٍ:

الأولى: العبيد الذين لا يعبدون إلّا خوفًا من العقاب والجزاء؛ أي أنّهم يعتبرون الله واجب الطّاعة، ولكنّ دافعهم هو أن يصونوا أنفسهم من العقاب ومن جهنّم. ولو علموا بأنّه لا توجد جهنّم أو نيران، لتركوا العبادة. فعبادة مثل هؤلاء هي ما يُعبّر عنه بعبادة العبيد.

الثانية: التجّار أو الأُجراء، وهم الذين لا يكون دافعهم سوى الوصول إلى الأجر والثّواب، وكأنّهم في عباداتهم يجرون نوعًا من التّجارة مع الله، فيعبدون من أجل الحصول على الجنّة، فيُقال إنّ عبادة هذه الفئة هي عبادة التجّار.

بالطبع، لا يُعتبر أفراد هاتَين الفئتَين سيّئين، وهم ممدوحون في مقابل الغافلين، وقد استفاد القرآن أيضًا من هذه الطّرق والدوافع. والآيات التي تحذّر الإنسان وتهدّده لكي تسوقه نحو وادي العبادة كثيرةٌ، مثل قوله تعالى ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[2]، و﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ

(١) سورة **الأعراف**، الآيتان ١٧٥- ١٧٦.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥.

تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾[٢]، أو ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾[٣]، و﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾[٤]، و﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[٥].

الثالثة: الأحرار وهم الذين لا يعبدون الله إلّا لأجل الشكر أو المحبّة، وعلى فرض لم يكن هناك جنّة أو نار، لما تركوا العبادة. إنّ عبادة هذه الفئة هي عبادة الأحرار. وبتعبير الإمام علي عليه السلام، الذي يُعدّ إمام هذه الفئة القليلة النّادرة، حبًّا له وشكرًا. فحين يصبح الإنسان شاكرًا، فإنّه يخضع لوليّ نعمته ولا يتوقّع منه الأجر والثّواب. فلو أصبح الشّعور بالتّقدير والشّكر في الإنسان قويًّا، كأن يعلم أنّ الله له حقّ الحياة عليه، وحقّ الوجود، وحقّ الهداية، وسائر الشّؤون الرّبوبيّة، لكان ذلك كافيًا بأن يعبده. ولعلّ الأمر بـ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾[٦] هو لأجل إحياء مثل هذا الشّعور في الأشخاص العاديّين بصورةٍ سريعة، لكي يعلموا بأنّ عليهم أن يكونوا شاكرين لوليّ نعمتهم. بناءً عليه، فإنّه يحثّهم على التّفكّر في النّعم وضرورة شكر الله. لو أنّ شخصًا صلّى ركعتَين بدافع الحبّ أو الشّكر، ستكون قيمة صلاته بالحدّ الأدنى ما يُعادل ألف ركعةٍ (ولا أقول ألف سنة) من صلاة الرّجاء بالثّواب أو الخوف من العقاب، بل أعلى من ذلك. إنّ من لوزام المحبّة أن لا يكون الذي يتواضع ويتذلّل لمحبوبه منتظرًا لثوابه. بالطبع، لا يوجد سقفٌ معيّنٌ للمحبّة، بل للمحبّة مراتب غير محدودةٍ، وعلينا أن نسأل الله أن يزيدها كل يوم.

---

(١) سورة **الصفّ**، الآية ١٠.

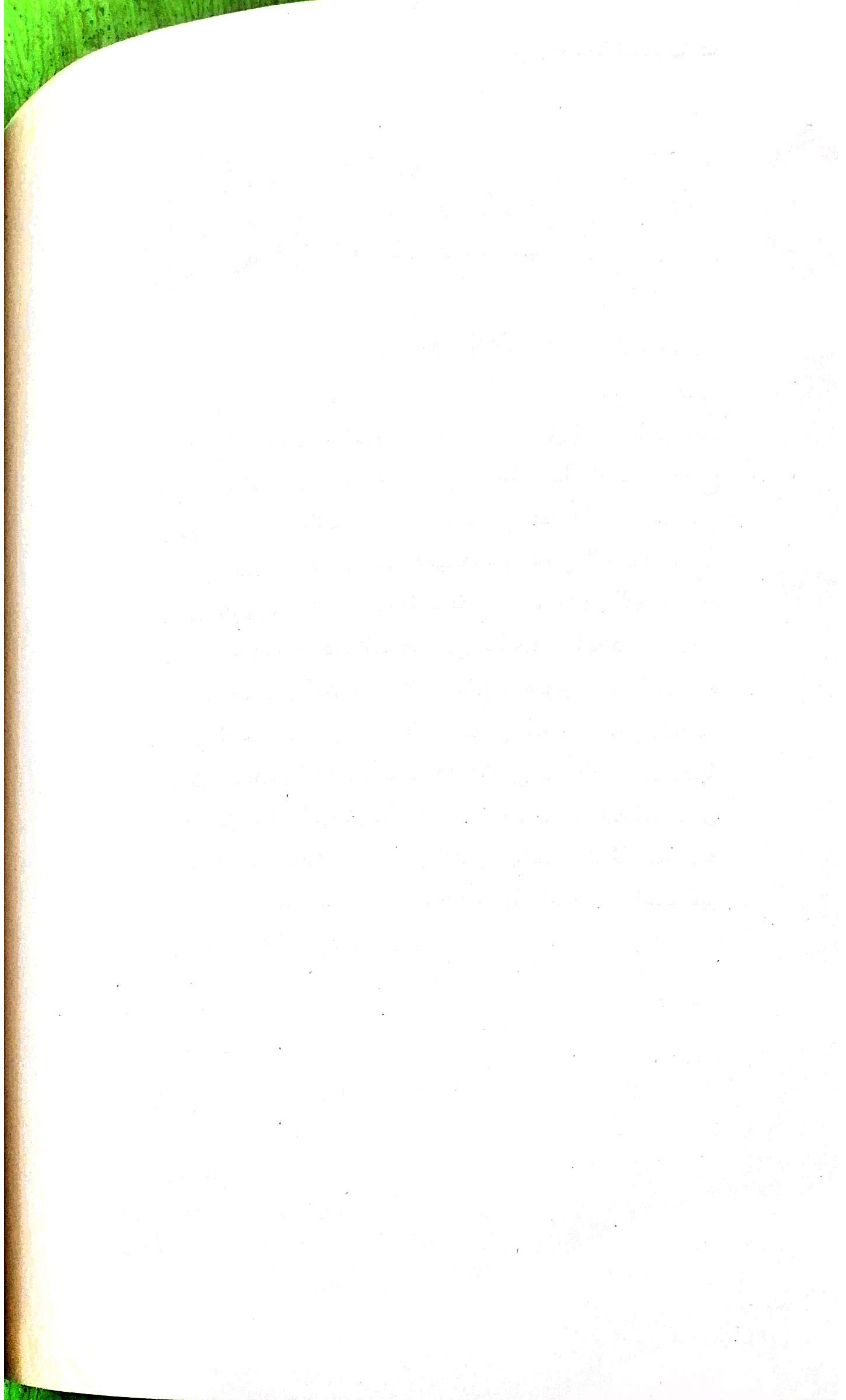
(٢) سورة **التوبة**، الآية ١١١.

(٣) سورة **النبأ**، الآية ٢١.

(٤) سورة **المدّثر**، الآية ٤٢-٤٣.

(٥) سورة **الفرقان**، الآية ٦٥.

(٦) سورة **لقمان**، الآية ١٤.





إلـهي وَأَلْهِمْني وَلَهًا بِذِكْرِكَ إِلى ذِكْرِكَ وَهمَّتي في رَوْحِ نَجاحِ أَسْمائِكَ وَمَحَلِّ قُدْسِكَ

وبشأن الارتباط بالمقطع السّابق لهذه المناجاة، قد يُطرح هذا السّؤال أو الإشكال المقدّر: يا ربّ! لقد فهمت الآن بأنّ عليّ أن أكون شاكرًا لوليّ نعمتي، وأن أكون من أهل المحبّة والولاية، وذلك لكي أزداد حبًّا كلّ لحظةٍ، ولكن ما الذي ينبغي أن أفعله لأصبح كذلك؟ والجواب على هذا السؤال المقدّر هو في هذا المقطع وهو: «إنّ طريق ذلك هو أن تسعوا لزيادة توجّهكم وإقبالكم على الله وذكره في قلوبكم. فعلى أساس علم النفس والتّجربة، كلّما تمركزت قوى الإنسان باتّجاه شيءٍ ما، فإنّ محبّته ستزداد في قلبه، لهذا فإنّ طريق زيادة المحبّة هو طريق الذّكر الإلهيّ».

نقطة في باب الذكر

بالطّبع، لا ينبغي أن يظنّ الإنسان أنّ المقصود من الذّكر هو أن يحمل الإنسان السبّحة ذات الألف حبّةٍ ويقول بعض الأوراد المكرّرة، بل المقصود هو التوجّه القلبيّ إلى الله. كما ينبغي الالتفات إلى أنّ للذّكر درجاتٍ مثل المحبّة، فلا يكفي مجرّد التوجّه القلبيّ إلى الله. التّوجّه إلى قضايا مثل خلق الإنسان والرّزق وحلّ المشكلات ورفع البلاءات التي يفوق عددها النّعم، ونحن لا علم لنا بها و... كلّ ذلك يمهّد للتّفكّر ومن ثمّ للذّكر. إلّا أنّ ذكر الله ينبغي أن يكون أيضًا بالتّوفيق الإلهيّ. ثمّ نقول في هذا المقطع من المناجاة: «اللهمّ! إنّنا نحبّ أن نكون ذاكرين لك، لكنّنا نعلم أنّ توفيق ذلك هو بفضلك وعطائك،

ولأنّنا نريد أن ننال مراتب الذّكر العليا فإنّنا نسألك أن تزيد من قوّة هذا التّوجّه والذّكر القلبيّ ورفعه مراتب ومراتب، بحيث تكون كل مرتبةٍ من الذّكر وسيلة للارتقاء إلى المرتبة اللاحقة. فافرضوا أنّكم تريدون الدخول إلى غرفةٍ مظلمةٍ وتريدون أن تضيئوا مصابيحها، لكنّكم لا تعلمون أين هي مفاتيح هذه المصابيح. ففي البداية تُشعلون قدّاحةً لكي تروا أين هي مفاتيح الإضاءة، ومن ثمّ تضغطون على هذه المفاتيح واحدًا بعد الآخر إلى أن تُضاء الغرفة بأكملها. فالذّكر أيضًا، يكون في البداية ذا مرتبةٍ ضعيفةٍ، تؤدّي بدورها للارتقاء إلى المراتب الأعلى وهكذا.

أولئك الذين يحفرون الآبار، حين يصلون إلى نقطةٍ رطبةٍ فإنّهم يركّزون عليها ويحفرون حتّى يصلوا إلى الماء. الأمر نفسه يحصل لقلب الإنسان، فإذا ظهرت حقيقةٌ ما ووصل إليها فإنّه سيدرك حقيقةً أعمق، فالمعرفة والمحبّة والذّكر الإلهيّ هي أيضًا على هذا النحو، فإذا أدرك الإنسان مفتاحًا صغيرًا وركّز عليه فإنّه سوف يزيد من معرفته وذكره.

بالطبع، كلّ هذه الأمور إنّما تكون بلطف الله، ولكن حيث إنّنا أُمرنا بالمسألة والتّوسّل لكيلا نحتاج إلى الخلق، فينبغي أن نسأل الله زيادة محبّته وذكره في قلوبنا كلّ يوم، وبأن يُوجِد فينا الشّوق والاندفاع حتّى نكون أكثر ذكرًا له. والملفت هنا أنّه تعالى قد دلنّا على الطّريق. ولو كان من المقرّر أن نكتشف هذا الطريق بأنفسنا، لما كان معلومًا كم من الوقت كنّا سنحتاج حتّى نهتدي إليه.

أجل، لا بدّ من الحيرة والعشق والاندفاع. وذاك الذّكر المتيسّر لنا يكون مقدمةً وتمهيدًا لمراحل لاحقةٍ من الذكر.

يجب على الإنسان أن يجعل همّته في المسير الذي تكون نتيجته الرّوح والرّاحة، والذي يحصل عن طريق الوصول إلى الأسماء وإلى محلّ القدس الإلهيّ. ولله أسماءٌ ومحلّ قدسٍ يجب أن يوفّق الإنسان للوصول إليها. فمحلّ القدس ذاك هو محلّ الطّهارة والصّفاء والنّزاهة من أنواع النّقائص. بناءً عليه، فإنّ مرتبةً من الكمال هي الوصول إلى الأسماء الإلهيّة ومحلّ

القدس، وبالوصول إليها يحصل على منتهى اللذة والسّكينة والطّمأنينة والرّوح والرّيحان، ما يفوق تصوّرنا ولا يمكن أن يُقارَن بأي شيءٍ. فهمّة الإنسان ينبغي أن تكون على طريق الوصول إلى هذا الكمال.

ويُعدّ هذا المقطع من الدّعاء في قمّة الكمال. ولا يجري الحديث فيه عن العفو والحاجات الدنيويّة، ولا عن الخوف من العقاب، ولا عن عدم الوصول إلى المطالب الماديّة، بل الحديث هو عن الوصول إلى أعلى اللذات أي الأسماء ومحلّ القدس. ولكن ليس لكلّ الناس مثل هذه الهمّة العالية. ولو لم تكن مثل هذه الأدعية لما كنّا لنتصوّر أبدًا وجود مثل هذه المقامات الرّفيعة، وأنّها يمكن أن تكون من نصيب الإنسان. إنّ همّتنا نحن البشر ضعيفةٌ، وغالبًا ما نصرفها في الوصول إلى الغذاء واللباس والمحل المناسب للاستراحة وأمثال ذلك، أمّا امتلاك تلك الموهبة العالية للوصول إلى الأسماء الإلهيّة وإلى محلّ القدس فهي موهبةٌ إلهيةٌ.

المقصود من الأسماء الإلهية

والآن ينبغي أن نرى ما هو المُراد من الأسماء الإلهية.

لله تعالى أسماءٌ كثيرة من قبيل «الله» و«الرحمن» و«الرازق» و«الخالق» و... وبناءً على روايات أهل البيت عليهم السلام، فإنّ للأسماء الإلهيّة عينيّةً وواقعيّةً، لا بمعنى أنّها موجودةٌ في زاويةٍ من السّماء مثلًا. بالطّبع، إنّنا حين نواجه أيّ مفهوم فإنّنا نتّجه مباشرةً إلى المصاديق الماديّة لأجل إدراكه، ونحن مضطرّون إلى ذلك. فعلى سبيل المثال، حين نقول إنّ للاسم عينيّةً نتصوّر شيئًا قد وُضع في مكانٍ وعلينا أن نصل بأنفسنا إليه، في حين أنّ العينيّة هي بمعنى الواقعيّة. فحين يعبر الإنسان، في أي مرحلةٍ من مراحل معرفة الله، عالم الماديّات فسوف يرى تجلّيات الله في قلبه، وهو ما يُعبّر عنه بالأسماء. والمفهوم اللغويّ للاسم هو العلامة والسّمة. ولأنّ الإنسان يريد أن يصف تلك المشاهدات والتجلّيات، فإنّه يعَنْون مضطرًا تلك المشاهدات تحت ألفاظٍ مثل الاسم والتجلّي والأنوار.

إذًا، الأسماء الإلهيّة ليست منحصرةً بالمفاهيم الذّهنيّة، التي نستحضرها في أذهاننا، لأنّ الكافر أيضًا يمكنه استحضار هذا المفهوم في ذهنه، لكنّه ينكر وجوده الخارجيّ. أمّا نحن فنُثبت الوجود الخارجيّ له. هذه هي المرحلة التي نكون فيها عالقين في الألفاظ والمفاهيم، ومشغولين بالأمور الماديّة. أمّا لو أدركنا تلك الأسماء، فسنفهم أنّها أمورٌ فوق المفاهيم. فنحن مثلًا نشعر بالفرح والسرور، ولكن بالسرور نفسه لا بمفهومه.

أجـل، يجـب أن نُـدرك ذلـك بحسـب الاصـطلاح الفلسـفيّ بالعلم الحضوريّ. أولئك الذين يتحرّكون في المسير الإلهيّ ترتفع من أمام أبصار قلوبهم تلك الحجب شيئًا فشيئًا ويرون في كلّ مرحلةٍ تجلّيًا من تجليّات الله بما يتناسب مع مقامهم وشأنهم، وكأنّهم يرون سرورهم وغمّهم وعشقهم ومحبّتهم. إنّ إدراك الأسماء ومحلّ القدس والوصول إليها هو أمرٌ غير امتلاك المفاهيم.



إِلهي هَبْ لي كَمالَ الانْقِطاعِ إِلَيْكَ، وَأَنِرْ أَبْصارَ قُلُوبِنا بِضِياءِ نَظَرِها إِلَيْكَ، حَتّى تَخْرِقَ أَبْصارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلى مَعْدِنِ الْعَظَمَةِ، وَتَصيرَ أَرْواحُنا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ

وفي هذا المقطع من المناجاة نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يشملنا برحمته التي توصل إلى نهاية الانقطاع إليه وينوّر أبصار قلوبنا بنور النّظر إليه...

ومثل هذه العبارات تكون بالنّسبة لأذهاننا، التي ما زالت في بداية الطّريق، غير مأنوسة. فبالنّسبة لنا نحن الذين لا نعلم إن كانت ذنوبنا قد غُفرت أو لا، مثل هذه المفاهيم هي مفاهيم عالية وبعيدة المنال.

ولتوضيح هذه المفاهيم يمكن القول: «إنّ الإنسان يتوسّل في هذا العالم بالعوامل والأسباب المختلفة لأجل تأمين حاجاته وبلوغ رغباته، وشاء أم أبى، فهو يُدرك في ضميره اللاواعي أنّ هذه الأسباب والعوامل تؤمّن حاجاته. فحين يعطش يشرب، وبعد تكرار هذا الأمر مرّاتٍ عدّةً يصل إلى هذه النّتيجة وهي أنّ الماء يزيل العطش، بناءً على ذلك، فإنّه كلّما عطش يذهب في طلب الماء. وما لم يخضع للتربية الدينية فإنّه لن يتوجّه إلى الله. وكذلك الأمر حين يجوع فإنّه يذهب في طلب الخبز مطمئنًّا إلى أنّ الخبز يُزيل الجوع، ولو لم يكن هناك ماءٌ ولا طعامٌ فإنّه يتفجّع ويذهب بفكره إلى أنّه إذا مرض على أثر الجوع والعطش، عليه أن يذهب إلى الطبيب، وفي النهاية سيرى حياته مرتهنةً بعشرات ومئات الآلات والوسائل ويشعر بالتعلّق بها والتبعية لها.

فالإنسان على مدى عمره، وخصوصًا نتيجة الاكتشافات الجديدة، يُصبح محتاجًا إلى الكثير من الأمور من قبيل المنزل ووسائله، كالأثاث والبرّاد والسيّارة، والتي كلّ واحدٍ منها يخلق عشرات الفروع والشعب من الاحتياجات الجديدة، فيزيد من تعلّقه وتبعيّته لها. ولو عاش هذا الإنسان ألف سنةٍ فإنّ هذا التعلّق سيزداد ألف مرةٍ.

يحبّ الإنسان أيضًا أن يكون له زوج وأولاد وأحفاد وأصهار وأمثال ذلك. ومثل هذه التعلّقات ستحاصره من كلّ جانب مثل شبكة العنكبوت بحيث ينسى أو يغفل في الكثير من الحالات عن وجود الله[١].

لكنّ الله يحب لعباده أن يفكّروا بطريقةٍ أخرى، ويريهم نماذج أولئك الذين أحبّ أفكارهم وثقافتهم ورضيَها. فهؤلاء يعتقدون أنّ هذه الأدوات والأسباب كلّها تحت إرادة الله، وبدون إرادته لا تكون مؤثّرة.

كمثالٍ على ذلك: حين سأل الطاغوت إبراهيم عليه السلام: من ربّك؟ قال له: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾[٢] وهو: ﴿... وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾[٣].

فقد كان إبراهيم عليه السلام يؤمن إيمانًا كاملًا بهذا الكلام، لأجل ذلك حين أُلقي في النّار النّمروديّة، وأثناء سقوطه من الأعلى، وقبل وصوله إلى النّار، جاءه جبرائيل وقال له: «ألك حاجة؟» فأجاب: «أمّا إليك فلا»؛ وهو يعني أنّه لا يحتاج إلى جبرائيل «والله تعالى مطّلعٌ على حالي». لقد كان يعلم أنّ الأمر ليس بيد جبرائيل.

ويقول الله تعالى بشأن معركة بدر ونزول الملائكة فيها: ﴿وَمَا جَعَلَهُ

---

(١) هؤلاء ليسوا الكفّار الذين لا يعترفون بالله، والعياذ بالله، وينكرونه بل مؤمنون سلّموا بالتوحيد الأفعالي وأثبتوا بالدليل "لا مؤثر في الوجود إلا الله"، لكنّهم حين الاختبار ارتبطت قلوبهم بالأسباب فحصل التناقض بين أفكارهم وأعمالهم.

(٢) سورة **الشعراء**، الآية ٧٩-٨٠.

(٣) سورة **الشعراء**، الآية ٨١.

ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾[١].

وهذا المقطع من المناجاة أيضًا يريد أن يمنح الإنسان هذه الحالة من التّوجّه ويفهمه أنّ هذه الحالة أيضًا، وكذلك الدراسة والكتابة وأمثالها، لا يمكن أن تحصل للإنسان من ذاتها، بل يجب أن تكون بعناية الله حتّى ينال هذه الموهبة.

لهذا نقول: اللهمّ! امنحني كمال الانقطاع كهبةٍ منك، فكمال الانقطاع هو منتهى الانقطاع عن الخلق والاتّصال بالخالق، ورؤية التّأثير الإلهيّ وطلب كل الحاجات منه، وتساوي وجود وعدم الأسباب والأدوات.

وبحسب ما جاء في إحدى الرّوايات، المؤمن يرجو ما عند الله أكثر ممّا يرجو ما لديه، وذلك لأنّ المؤمن قد يمتلك المال، ولكن يحتمل أن يضيع منه، لكنّه يعلم أنّ ما عند الله لا يمكن أن يضيع. وفي هذا المجال، توجد عشرات ومئات القصص التي يمكن أن تُقال هنا، ونحن نذكر منها واحدةً فقط.

ذكرى من بهلول

كان بهلول بطل حادثة مسجد «غورهرشاد»، وقد أُبعد إلى أفغانستان مدّة ثلاثين سنة، وعاش عمرًا مديدًا (أكثر من مئة سنة)، وهو ينقل: «حين كنت طفلًا، أردت الانتقال مع أمي من إحدى القرى إلى إحدى مدن «خراسان». فاستأجرنا عربة وخرجنا من المدينة، ولكن أثناء الطريق التفتت أمي إلى أنّ وقت الصلاة قد حان، لهذا طلبت من سائق العربة أن يتوقّف حتى تصلّي. فقال لها السائق: «أنت لم تشترطي عليّ أن أتوقّف أثناء الطريق، وأنا على عجلةٍ من أمري يجب أن أكمل مسيري». فقالت له أمّي: «إذًا، أنزلنا هنا». فقال لها السائق: «كيف تجرئين على الوقوف وسط هذه الصّحراء لتصلّي؟». فقالت له أمّي: «الله كبيرٌ». فأنزلنا السائق وذهب. وهكذا وقفت أمّي من دون أيّ اضطرابٍ أو قلقٍ وسط الصحراء وصلّت وأنهت تعقيباتها. هناك عشت قلقًا، ماذا أفعل وسط الصحراء مع امرأةٍ

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ١٠.

وحيدةٍ؟ فجأةً رأيت أمّي ترفع يدَيها إلى السّماء وتناجي. لم يطل الأمر، وإذ بالصحراء وكأنّها انشقّت وخرجت منها عربةٌ وتحرّكت نحونا بسرعة وتوقّفت لنا. سألنا سائقها: «من أنتم؟ وإلى أين تذهبون؟» فعرّفت أمّي عن نفسها وأخبرته عن مقصدها. فقال لها السّائق: «تفضّلي». وهكذا وصلنا بسهولة إلى المنزل».

أجل، إنّ كل الأمور بيد الله، وها هي قد قامت بما عليها وأدّت صلاتها في أوّل الوقت والله تلطّف بهذا النحو.

هذه الحالة جميلةٌ جدًّا وتُظهر كيف أنّ الله يتلطّف بأوليائه لكي لا يقلقوا في جميع شؤونهم، ويعلموا أنّ الأمر بيد الله وحده. هذه هي حالة الانقطاع إلى الله.

وأمّا فهم معنى استنارة أبصار القلوب بنور النّظر إلى الله: «وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك»، فهو صعبٌ نوعًا ما. فنحن جميعًا نعلم أنّ للإنسان حالةً قلبيةً تُدعى الرؤية، والتي يُعبّر عنها بالمصطلح الفلسفيّ بالعلم الحضوريّ. فحين نخاف مثلًا، نشاهد خوفنا. وهذه الرؤية لا تكون بالعين الباصرة، بل بعين القلب التي هي أقوى بكثير، لأنّه لا يوجد فيها أيّ خطأ.

يسأل ذعلب اليماني أمير المؤمنين عليه السلام: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فيجيبه الإمام: «لَمْ أَعْبُدْ رَبًّا لَمْ أَرَهُ». لكنّه عليه السلام يضيف مباشرةً: «لا تَراهُ الْعُيُونُ بِمُشاهَدَةِ الْعِيانِ وَلكِنْ تَراهُ الْقُلُوبُ بِحَقائِقِ الْايمانِ». ويقول القرآن الكريم: ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1]. لهذا من الممكن أن يكون قلب الإنسان مبصرًا أو أعمًى.

في هذا المقطع من المناجاة، نطلب من الله أن ينوّر أبصار قلوبنا بضياء ذلك النور الناشئ من نظرنا إليه. فنسأله أن يجعل القلب بحيث يراه، وبهذه الرؤية يستنير. فالعين الظاهرية يجب أن تكون قبل أيّ شيءٍ مبصرةً لكي ترى الشيء، ولو كانت عمياء يُقال: إنّ نور العين قد ذهب. لكن عين القلب يجب أن تُصبح منوّرةً برؤية الله، ومن ثمّ تخرق الحجب. فقبل هذه الرؤية تكون هناك

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.

حجبٌ بين الإنسان وربّه، وإن كانت نورانيةً، لكنّها تكون مانعةً وحاجبةً من رؤية حضرة الحقّ. بناء عليه، فإنّنا نسأل الله مثل هذا النّور الذي يخرق حجب النّور فتصل العين (لا نورها) إلى معدن العظمة من وراء تلك الحجب.

ولا بأس أن نلتفت مرةً أخرى إلى التعبير المُستعمل. فعين القلب تخرق الحجب بواسطة النّور الذي أدركته وتعبرها، وتصل إلى ذات الله التي هي معدن العظمة، وفي النتيجة تُصبح أرواحنا معلّقةً بنور عزّته وعظمته. ولأنّ هذ المطلب بعيد عن الاستيناس، فإنّه يحتاج إلى مزيدٍ من التوضيح:

حين تصل أبصار القلوب إلى معدن العظمة من وراء حجب النّور، عن طريق خرق تلك الحجب، فإنّ روح الإنسان، التي يُعبّر عنها بالاصطلاح الفلسفيّ بالنفس، تُصبح معلقةً بعزّ القدس الإلهيّ وتتعلّق به. لأنّ ارتباط الإنسان بالله، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، يُشبه ارتباط أشعّة النور بمنبع النّور، سواء كانت هذه الإشعاعات حركاتٍ موجيّةً، أو حركة ذرّاتٍ كما هو في الأبحاث الفيزيائية[1]، مثل عمود النّور الذي يمتد من المصباح ويكون معلّقًا بذلك المنشأ المولّد للنّور (على فرض الإدراك). إنّ ارتباط جميع الموجودات بالله يُشبه هذه الرّابطة بين كموميات النّور بالمنشأ المولّد للنور.

لو كانت كل ذرّة من ذرّات هذا النّور مدركةً لوجود بعضها بعضًا ومدركةً لموقعيّتها؛ فسوف ترى نفسها مثل العمود المتّصل بمبدأ ما، وذاك المبدأ يولّد وينتج مليارات ملياراتٍ من هذه الذرّات، وتكون ذرات النور موجودةً إلى حيث الاتّصال بذلك المنبع، وحين تنقطع هذه الرابطة فإنّه يخمد. ونحن البشر نرى في الحالات العادية نورنا فقط، وحين نشتغل بالأمور المادية بواسطة العلوم التجريبيّة نشاهد الأنوار التي تكون إلى جانبنا، لكنّنا لا نفكّر بمبدأ وجودنا ومن أين أتينا، ذلك لأنّ أبصار قلوبنا لا ترى، ولو أنّ عين القلب

---

(١) نظرية الكمومية (الكوانتوم) تفيد بأنّ النور يتشّكل من ذراتٍ دقيقة وليس من خطٍّ ممتدّ، وإن كان فيه خاصيّة موجية وخاصيّة خطيّة أيضًا، وهذه الذرات الدقيقة جدًا من النور حين تكون إلى جنب بعضها بعضًا تشكّل عمود النور حتى تصل إلى المبدأ المولّد للنور. وهناك نظرية تفيد بأنّ كل الموجودات ذات شعور، فإذا كانت ذرات النور هذه شاعرةً مدركةً تُدرك نفسها فسوف ترى أنّها متصلة بمبدأ النور ومتعلقة به.

انفتحت لأدركنا من أين جئنا.

نحن نرى في الحالات العاديّة المياه والتراب والنّباتات وأمثالها بالعين الباصرة، والتي يُعدّ وجودها أدنى بمراتب من وجودنا، ونظن أنّها هي التي تحفظ حياتنا في حين أنّها أضعف منّا وأعجز. وقد نرى أشخاصًا آخرين يؤدّون أعمالنا ويحلّون مشاكلنا فنقول: «لو لم يكن هذا الشّخص لكنت ميتًا»، لكنّنا لا نرى خالقهم الذي منحهم الشّعور ليدركوا ويعرفوا ويشخّصوا مرضنا، مع أنّ كلّ هذا العالم في قبضة قدرته.

لهذا فإنّنا في هذا المقطع من المناجاة نقول: «اللهمّ إنّنا نسألك أن تفتح أبصار قلوبنا لكي نراك وتتنوّر أبصارنا برؤيتك وتتمكّن من خرق الحجب التي تفصلنا عنك، فتصل إلى مبدا النور ويتعلّق روحها بذلك المبدأ».

ومثل هذا الوجود يُعبَّر عنه في الفلسفة والعلوم العقليّة «بالوجود الربطيّ». فلجميع الموجودات مثل هذا التعلّق والارتباط بالله، لكن لا يمكن فهم كيفيّته وحقيقته بالاستدلال والبرهان، ولا يوجد سوى الله من يمكن أن يدلّ الإنسان على مثل هذه الحالة بواسطة نور المعرفة. وفي النتيجة يُدرك الإنسان أنّ هذه الوسائط النّورانيّة، من قبيل الملائكة في حرب بدر، ليس لها من الأمر شيءٌ وإنّما كانت وسائط، والفعل الأساسيّ وكلّ أحداث عالم الوجود هي فعل الله تعالى. حتّى تلك المصائب التي تقع في العالم من قبيل السّيول والزلازل ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ...﴾[2]، فكلّ شيءٍ يكون زمامه بيد الله، فإن أردتم ألّا يحدث فالجأوا إلى الله.

بناءً عليه، يدلّ الله أولياءه لا جميع النّاس على أنّ وجودهم وأرواحهم وشعاعهم معلّقةٌ ومرتبطةٌ به، فلو حصلت مثل هذه الحالة لأيّ شخصٍ لن يتعلّق قلبه بأيّ شيءٍ آخر.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٧٨.

(٢) سورة **الحديد**، الآية ٢٢.

إلهي وَاْجعَلْني مِمَّنْ نادَيْتَهُ فَأَجابَكَ، وَلاحَظْتَهُ فَصَعِقَ لِجَلالِكَ، فَناجَيْتَهُ سِرًّا وَعَمِلَ لَكَ جَهْرًا

هذا المقطع من المناجاة الشعبانيّة، كالمقطع السابق، يُعدّ من قمم المعارف التي طُرحت لحدّ الآن. فبعد طلب نورانيّة القلب بواسطة النّظر إلى الله وتوجّه القلب إليه نقول: «اللهمّ! اجعلني من أولئك الذين تخاطبهم وتناديهم وهم يقولون في المقابل لبّيك».

ولو اكتفينا بهذا القسم من الجملة لظنّنا أنّ هذا النداء هو أيضًا مثل النّداءات الموجودة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأنّ طلبنا هو أن نوفّق لإجابة هذا النّداء. إلّا أنّ الجمل اللاحقة تشهد أنّ هذا الكلام هو أعلى وأسمى بكثيرٍ ذلك لأنّنا نقول: «اجعلني في مقابل عظمتك وجلالك مصعوقًا».

وقد ورد «الصّعق» في القرآن الكريم في قصّة موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام في جبل طور. ويبدو أنّ ذلك حصل في ذلك المعاد الأربعينيّ، أي أنّ موسى عليه السلام كان قد سأل الله تعالى في ذلك الوقت: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾[1].

ويقول تعالى في موضعٍ آخر فيما يتعلّق بنفخ الصور: ﴿فَصَعِقَ

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٣.

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[١]. لا شكّ بأنّ الصّعق الذي حصل لموسى عليه السلام كان بمعنى فقدان الوعي المعروف عندنا؛ لأنّه قد قال بعد ذلك: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾[٢]، أمّا موجودات السموات وكائنات الأرض، فإنّها لا تفيق من نفخ الصّور إلى يوم البعث، وهنا نقول: «اللهم توجّه إليّ لأكون مثل أولئك الذين يُصعقون بمقابل جلالك وعظمتك، وحينها يناجونك ويخاطبونك بالسرّ والخفاء».

فالمناجاة هي الحديث القريب بصوتٍ منخفض، ومثل هذه الحالات تحصل لأولياء الله حيث يتمكّنون من سماع كلام الله وهم في حال الصّعق وبصورة المناجاة.

قد يخاطب الله أنبياءه عليهم السلام، وهذه الحقيقة ليست معلومةً لنا، ولا نتوقّع أن نفهمها وندركها، ذلك لأنّه لا يمكن إدراك حقيقة الشّيء الذي لم يُجرّب، وإنّما يمكن القول فقط إنّ الله يخاطب أنبياءه بصورةٍ مخفيّةٍ وسريّةٍ.

إلّا أنّ كلام الله مع أولئك الذين لم يكونوا من الأنبياء يحصل أيضًا، وهذا من أعظم المواهب والنّعم الإلهيّة التي تظهر يوم القيامة ويتمتّع بها المؤمنون مع اختلاف درجاتهم، ويبقى الكفّار في حسرةٍ يتحرّقون لسماعها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[٣]، أي أنّ الله لا ينظر إليهم بعين الرضا ولا يخاطبهم بخطاب اللطف والعطف وذلك لأنّ كل شيءٍ يكون في محضر الله ونظره.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَما بَرِحَ للهِ عَـزَّتْ آلاؤُهُ في الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ وَفي أَزْمانِ الْفَتَراتِ عِبادٌ ناجاهُمْ في فِكْرِهِمْ وَكَلَّمَهُمْ في ذاتِ عُقُولِهِمْ

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٦٨.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٣.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ٧٧.

وَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الْأَسْماعِ وَالْأَبْصارِ وَالْأَفْئِدَةِ يُذَكِّرُونَ بِأَيّامِ الله»[١]؛ أي أنّه كان لله عباد في مقاطع تاريخيّة وبصورةٍ متناوبة (لعلّها في تلك الأزمنة التي لم يكن فيها أنبياء)، يخاطبهم ويناجيهم في أفكارهم وعقولهم ويكلّمهم في أعماق قلوبهم وأذهانهم، فيسمعون ذلك ويدركونه ويشعرون بحالة اليقظة والوعي في أنفسهم، ويخرجون من حالة الغفلة فتستنير أبصار قلوبهم وأسماعها بنور اليقظة ولهذا ينهضون لإزالة غفلة الآخرين ويذكّرونهم بأيام الله.

ومثل هذا الكلام الإلهيّ ليس كوحي الأنبياء ﷺ، بل هو مخاطبةٌ باطنيّةٌ تحدث عن طريق الفكر والعقل[٢].

لقد جاء في حديث المعراج أيضًا: «يا أَحْمَدُ إنَّ فِي الْجَنَّةِ قَصْرًا مِنْ لُؤْلُؤٍ فَوْقَ لُؤْلُؤٍ وَدُرَّة فَوْقَ دُرَّة لَيْسَ فيها قَصْمٌ وَلا وَصْلٌ فيهَا الْخَواصُّ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ كُلَّ يَوْم سَبْعينَ مَرَّة وَأُكَلِّمُهُمْ كُلَّما نَظَرْتُ إلَيْهِمْ أَزيدُ في مُلْكِهِمْ سَبْعينَ ضِعْفًا تَزيدُ في مُلْكِهِمْ سَبْعينَ ضِعْفًا، تَلَذَّذَ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِالطَّعامِ وَالشَّرابِ وَتَلَذَّذَ أُولئِكَ بِذِكْري وَكَلامي وَحَديثي».

ليس الأمر أنّ أهل الجنّة وعباد الله الخواصّ يكونون لا مبالين بكلام الله ونظره، وأنّهم يكتفون بالحور والقصور والأشجار والأنهار، بل إنّ لذّاتهم الاستثنائية تكمن في رؤية وسماع كلام الله، والذي يُعدّ ألذّ وأعلى من كلّ مأكلٍ ومشربٍ، بحيث لو وقعت قطرةٌ واحدةٌ من شراب الجنّة على هذا العالم لعطّرته بأكمله.

وحينها يسأل النبيّ الأكرم ﷺ عن علامات هؤلاء فيُجيبه الله تعالى قائلًا: «أَفْتَحُ عَيْنَ قَلْبِهِ إلى جَلالي، فأناجيه في ظُلَم اللَّيْلِ وَنُورِ النَّهارِ حَتّى يَنْقَطِعَ حَديثُهُ مَعَ الْمَخْلُوقينَ وَمُجالَسَتُهُ مَعَهُمْ». فبالنسبة لهؤلاء لا فرق بين الليل والنهار، فهم يلتذّون بالمناجاة بحيث لا يعودون يرغبون بالحديث مع

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٢٢.

(٢) بالطبع قد يفعل الشيطان أيضًا مثل هذا، مع بعض الأشخاص وحتى عباد الله الخواصّ، ولا ينبغي أن نظن أنّ كل ما يرد إلى أذهاننا هو مناجاة إلهية.

الآخرين أو مجالستهم؛ فعلى الرغم من أنّهم يتحدّثون إلى الآخرين ويجيبون عن أسئلتهم، إلّا أنّ قلوبهم تكون في محلٍّ آخر.

أجل، إنّ هؤلاء يؤدّون واجبهم تجاه الآخرين فيخاطبونهم ويجالسونهم، لكنّ ذلك لا يكون من موقع الرّغبة، لأنّ قلوبهم قد تعلّقت بالمعشوق الحقيقيّ.

إذًا، نستنتج أنّ لله مثل هؤلاء العباد الذين يناجيهم في الليل والنهار. والملفت أنّه يقول في حديث المعراج: يفتح عين قلبه على جلاله، ونحن نقول في هذه المناجاة: «اللهمّ اجعلني من أولئك الذين تفتح أعينهم على جلالك وتصعقهم رؤية جلالك وعظمتك». فحين يقطع الإنسان مسافةً طويلةً غير متوقّعةٍ بالنسبة له، فإنّه سيُصعق، مثلما إذا أُخبر فجأةً أنّه حصل على جائزةٍ كبيرةٍ جدًّا لم يكن ينتظرها أو يتوقعها فإنّه يُصعق. والأمر كذلك في الأمور المعنويّة، فلو وصل الإنسان إلى شيءٍ لم يكن ينتظره أو يتوقّعه، فإنّه ينال فيه من اللذة ما يُفقده الطّاقة على التحمّل وتحصل له حالة الغشية.

وهنا نتذكّر ما ورد في حديث المعراج حيث قال: بعد أن أفتح عين قلبه على جلالي، أناجيه في ظلام الليل ونور النهار. فنقول هنا أيضًا: إنّه بعد حالة الصّعق، يناجيه الله سرًّا ويلقي عليه مسائلَ عذبةً لا يفهمها الآخرون.

يجب علينا أن نرفع من مستوى هممنا، ونكون في الحدّ الأدنى معتقدين بوجود مثل هذه الحقائق، وأنّ لله مثل هذه الروابط مع عباده. وقد يكون أمثال هؤلاء يعيشون بيننا ونحن نجهلهم. فكما جاء في الروايات، لا تنظر بعين الحقارة والاستخفاف إلى أحد، لأنّه قد يكون شخصًا عاديًّا أو حمّالًا، لكنّه في الواقع قد يكون من أولياء الله. فعلينا أن نرفع من مستوى هممنا وحين ندعو ونقوم في أسحار الليالي ونحجّ ونعبد، لا ينبغي أن نقنع بآمال الوصول إلى النعم الدنيوية، ولا ينبغي أن نحصر أدعيتنا بالبيت والزوج والدنيا، بل علينا أن نطلب تلك النعم الأبديّة الباقية، والأهمّ من ذلك كلّه سماع كلام الله ورؤية تجلّياته. ولو أنّ شخصًا ترك الذنوب والمعاصي وأدّى الواجبات واجتنب كثرة

الطّعام وكثرة الكلام و... فإنّه بالإضافة إلى التمتّع بالنّعم الجسمانيّة في الجنّة ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾[1]، فسوف يصبح من أولئك الخواصّ الذين يتمتّعون في قصورهم بمثل تلك اللذات اللامتناهية. إنّ الكثير من المباحات والأطعمة الحلال والسماع المباح، قد يكون سببًا لبعض الحرمان والكسل في أداء الواجبات، ويستتبع تلك الأمراض الجسمانيّة والروحيّة. ما أكثر تلك الأمراض التي تكون بسبب كثرة الطعام، فأولئك الذين هم من أهل البطنة لا يمكنهم أن يستفيدوا استفادةً صحيحةً من الفكر ومن القوى البدنية، ولا يطيقون القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يستطيعون أن يسمعوا الموعظة أو أن يعظوا الآخرين، حتى أنّهم لا يستطيعون أن يتعلّموا الأشياء جيّدًا أو أن يعلّموها للآخرين. فلو أراد الإنسان أن يستفيد من نعم الجنّة ويصل إلى تجلّيات الله، بحيث يُصعق من رؤيتها، يجب عليه أن يدفع ثمن ذلك.

وقد جاء في رواية أنّ الله تعالى يتجلّى لعباده بما يتناسب مع شأنهم وشخصيّتهم كل يوم سبعين مرّةً. وفي بعض الروايات كلّ ثلاثين سنة مرّةً، وفي بعضها كلّ ثلاثين ألف سنة مرةً واحدةً، وهم يصعقون، وقد يطول صعقهم هذا بحيث إنّ أزواجهم في الجنّة يشتكون لأنّهم نسوا كلّ شيءٍ بسبب التذاذهم بمشاهدة التجلّيات الإلهيّة.

---

(١) سورة **الواقعة**، الآيتان ٢١-٢٢.

إلهي وَأَلْحِقْني بِنُورِ عِزِّكَ الأَبْهَجِ، فَأَكُونَ لَكَ عارِفًا، وَعَنْ سِواكَ مُنْحَرِفًا، وَمِنْكَ خائِفًا مُراقِبًا، يا ذا الْجَلالِ وَالإِكْرامِ، وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّد رَسُولِهِ وَآلِهِ الطّاهِرينَ وَسَلَّمَ تَسْليمًا كَثيرًا

وصلنا إلى المقطع الأخير من المناجاة الشعبانيّة، وكما ذكرنا سابقًا، غالبًا ما نجد مضامين بعض الأدعية في أدعيةٍ ومناجاةً أخرى، إلّا أنّ مضمون هذه المناجاة قلّما نجده بهذه الصراحة والشفافية في الأدعية والمناجاة الأخرى. وفي العادة فإنّ الأدعية والمناجاة تركّز على التوجّه إلى المعاصي وطلب المغفرة وكذلك الرحمة الإلهية التي تغسل الذنوب، ولكن في بعض الأدعية والمناجاة هناك مطالب تختلف عمّا يتوجّه إليه عامّة الناس. إنّ غاية سعينا نحن الأشخاص العاديّين هو أن ننجو من العذاب الإلهيّ في الآخرة أو أن ننال ثواب الجنّة. ولكن نشعر أنّ في بعض المناجاة يتوجّه أولياء الله إلى أمورٍ أعلى من هذه، ومنها هذه المناجاة الشعبانيّة التي تتميّز عن سائر المناجاة بطرح قضايا عجيبة مثل: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك» أو «واجعلني ممّن ناديته فأجابك»، وكذلك هذا المقطع الأخير من المناجاة «وألحقني بنور عزّك الأبهج»، ونجد فيها هذا التألّق الخاصّ.

في هذا المقطع النهائيّ نتوجّه إلى الله ونقول بين يديه: اللهمّ ألحقني بنورك[1].

---

(١) إنّ عبارة الإلحاق تُشبه الإيصال. فيبدو أنّ الفارق بينهما دقيقٌ جدًا إلى الدرجة التي لا نشعر بوجود اختلافٍ ولعله يُستعمل أحدهما مكان الآخر أحيانًا.

إنّ الإنسان الغارق في الذنوب لو أراد أن يطلب اللحاق بنور الله والاتّصال به سيكون بالنسبة له نوعًا من الحلم. ولكن كان هناك أشخاصٌ وما زالوا يحملون مثل هذه الآمال وقد بلغوها، وإلّا لكانت قراءة هذه الأدعية بلا فائدة وفي حدود الأمل الذي لا يتحقّق.

بناءً عليه، الإنسان الذي هو عين الضعف والعجز وبتعبير القرآن: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1]، يمكنه أن يصل إلى مقام يصبح ملحقًا بنور الله. فانظر الفرق بين الثرى والثريّا. إنّ النور الإلهيّ هو أجمل وأعجب وأبهج الأنوار وله سرورٌ وبهجةٌ خاصّة، فلو أُلحق أحد بنور العزّة هذا، لن يمكنه بعدها إلّا أن يتحدّث بأسلوب الاستعارة، ذلك لأنّ هذه الألفاظ، ومنها كلمة النور، التي تُطلق على الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] هي استعارةٌ ومجاز، لأنّه حين يريد الله أن يبّين للبشر ارتباطه بالسماء والأرض، فلا يوجد عبارة ألطف من النور في عالم المادة. بناءً عليه، يعرّف نفسه ويصفها بالنور ذاته، ولكن في الوقت نفسه الذي هو نورٌ، فله أنوارٌ أخرى وهي ليست عين ذاته، بل لها مقامات أدنى ولهذا يقول: ﴿نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾[3]، حيث يُرجع النور في هذه الآية إلى الله ولهذا لم يقل «مثله»، وذلك لأجل أن يذكر ذاك النور.

يُعلم إذًا، أنّه بالإضافة إلى إنّ الله هو عين النور، فله نورٌ أخر هو الذي يعتبر نور مخلوقاته. بناءً عليه، فإنّ العبارات المستعملة في القرآن وفي الأدعية والأبحاث العلمية والعقلية والعرفانية هي ذات بُعدٍ مجازي ولا يمكننا أن ندرك كنهها.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٢٨.

(٢) سورة **النور**، الآية ٣٥.

(٣) سورة **النور**، الآية ٣٥.

كلام في نور العزّة الأبهج

يُحتمل وجود نقطتين في عبارة «نور عزّك الأبهج»، وهما مذكورتان مع هذين اللفظين:

١- إنّ ارتباط الله بمخلوقاته، مهما كانت عاليةً وشريفةً، هي رابطة العزّة والذلّة، ذلك لأنّ الله له كلّ شيء والمخلوق ليس له من ذاته شيءٌ. إنّ أعزّ وأشرف مخلوق لله ليس له من نفسه شيء، وكل ما لديه قد أخذه من الله.

٢- لأنّ الله هو العزّة المحضة، فلا يمكن أن يكون تحت تأثير أيّ عاملٍ، ذلك لأنّ العزّة تعني المنعة من أيّ تأثيرٍ؛ ولأجل ذلك يُقال للأرض التي لا أخدود فيها: «الأرض العزاز».

وفي دعاء عرفة نقول أيضًا: «إلهي تَقَدَّسَ رِضاكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ فَكَيْفَ يَكُونُ له عِلَّةٌ مِنّي»؛ أي أنّ رضا الله لا يكون معلولًا لعلّةٍ من ذات الله، فما بالك إن أردنا أن نقول نحن المخلوقات سبب لرضاه.

إنّ علاقة المخلوق بالخالق هي علاقة الذليل بالعزيز، كما نقول في دعاء عرفة: «إلهي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَفِي الذُّلِّ أَرْكَزْتَني». فإذا أراد المخلوق أن يتّصل بنور الخالق ويلتحق به، عليه أن يطلب من الله أن يخرجه من حال الذلّ والظّلمة وأن يلحقه بنور العزّة؛ ذلك لأنّه لا يملك العزّة من ذاته، ولا يوجد عزيز آخر لكي يلتحق بنوره[1].

وأمّا الأبهج فهو اسم تفضيلٍ من بهيج ومشتّق من كلمة البهجة، بمعنى الجمال المتلازم مع اللطافة والنّعومة. والقرآن الكريم يقول بشأن النّباتات الجميلة: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، حيث إنّ المُشاهد هنا يستغرق في اللذّة. إنّ النور الأبهج هو ألذّ نورٍ، فجماله هو في منتهى الكمال، ولا يمكن تصوّر ما هو أعلى من هذا الجمال والكمال.

---

(١) لا توجد عبارة أعلى من هذه في أيّ دعاء أو مناجاة أخرى حيث يُقال إنّ مقام الألوهية هو عين العزّة ومقام المخلوق هو عين الذلّة.

فطلب المناجي هنا هو في الواقع طلب النجاة من الظلمة والذلّة والوصول إلى العزّة المرتبطة بالله. إنّ النجاة من الحزن والغمّ والوصول إلى البهجة والسرور واللطافة والجمال مختصّةٌ بنور الله. حين يتخلّص الإنسان من كلّ قبحٍ ونقصٍ وعيب، ويصل إلى أفضل كمال وجمال، حين يدرك مثل هذا المقام، فإنّه يصبح عارفًا بالحقّ؛ أي ما لم يُسَق الإنسان إلى طرف ذلك النور لن يُدرك المعرفة الحقيقة. فالعارف الحقيقيّ هو الذي جذبه الله وألحقه بنوره فخلّصه من كل سفلٍ وذلّة، وأزال عنه كل ما لا يتناسب مع النّور. فمن ناحية، هناك النّور الإلهيّ ذو الإشعاعات التي تسطع على عباده اللائقين، كالملائكة المقرّبين والأولياء والعباد الصالحين، من ناحيةٍ أخرى هناك الظلمات والشياطين.

وبعبارةٍ أخرى، يمكن تقسيم ساحة الوجود وفق تصويرٍ ذوقيّ وفنيّ إلى ساحتَين: ففي الساحة الأولى هناك النور والجمال واللطف والبهجة، وفي الساحة الأخرى هناك الفقر والبلاء والظلمانيّة والقبح والسفل: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾[(١)].

إنّ أوج جمال أيّ ساحةٍ هو في إلحاقها بالنّور الإلهيّ، وإنّ سفال أيّ ساحةٍ هو بإلحاقها بأسفل سافلين ومقام إبليس اللعين والشيطان الرّجيم. وها هو الإنسان متردّدٌ متذبذبٌ بين هاتَين السّاحتَين؛ ولأجل ذلك، يطلب الإنسان من ربّه أن يلحقه بالنّور الإلهيّ، الذي هو محل السّرور والبهجة واللذّة المحضة، فحينها لن يبقى فيه أي ميلٍ للمعصية وارتكاب الأفعال الشيطانيّة؛ لأنّ الذي يستغرق في النور لن يتعلّق بالظلمة، فيبتعد عن كل ما هو مناقضٌ للنور والبهجة والعزّة ويكون في الجهة المقابلة.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٧.

نكتةٌ عرفانيةٌ لطيفةٌ

وهنا توجد نكتةٌ لطيفةٌ، لعلّ العرفاء أنفسهم لم يلتفتوا إليها في أبحاثهم العرفانية، وهي أنّ الإنسان حين يصل، يجب أن يلتفت مرةً أخرى إلى أنّ كلّ ما لديه وكلّ ما أدركه ليس مرتبطًا به، فهناك يُخاف من عدم استمرارية هذه النورانيّة وبقائها. فالعارف الواصل أيضًا ليس مصونًا من الخوف، وهو قلقٌ من أن يُسلب ما أُعطي، لأنّ كلّ ما لديه هو استعارةٌ، ولا يُعدّ أمرًا ذاتيًا. ولو ظنّ إنسانٌ أنّ نورانيّته ذاتيّةٌ، فإنّه سيخرّ على وجهه. بناء عليه، عليه أن يكون ملتفتًا دائمًا لئلّا يخسر هذه الكمالات المتحصلّة ولئلّا يغترّ، فيقول ها قد وصلت إلى مرحلة اليقين وتمّ الأمر وأنجزت المهمّة ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[١].

لو حصل هذا الأمر، فإنّه سيسقط من أعلى القمّة إلى أسفل جهنّم ويصبح كذاك الذي قصّ القرآن الكريم علينا حاله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾[٢].

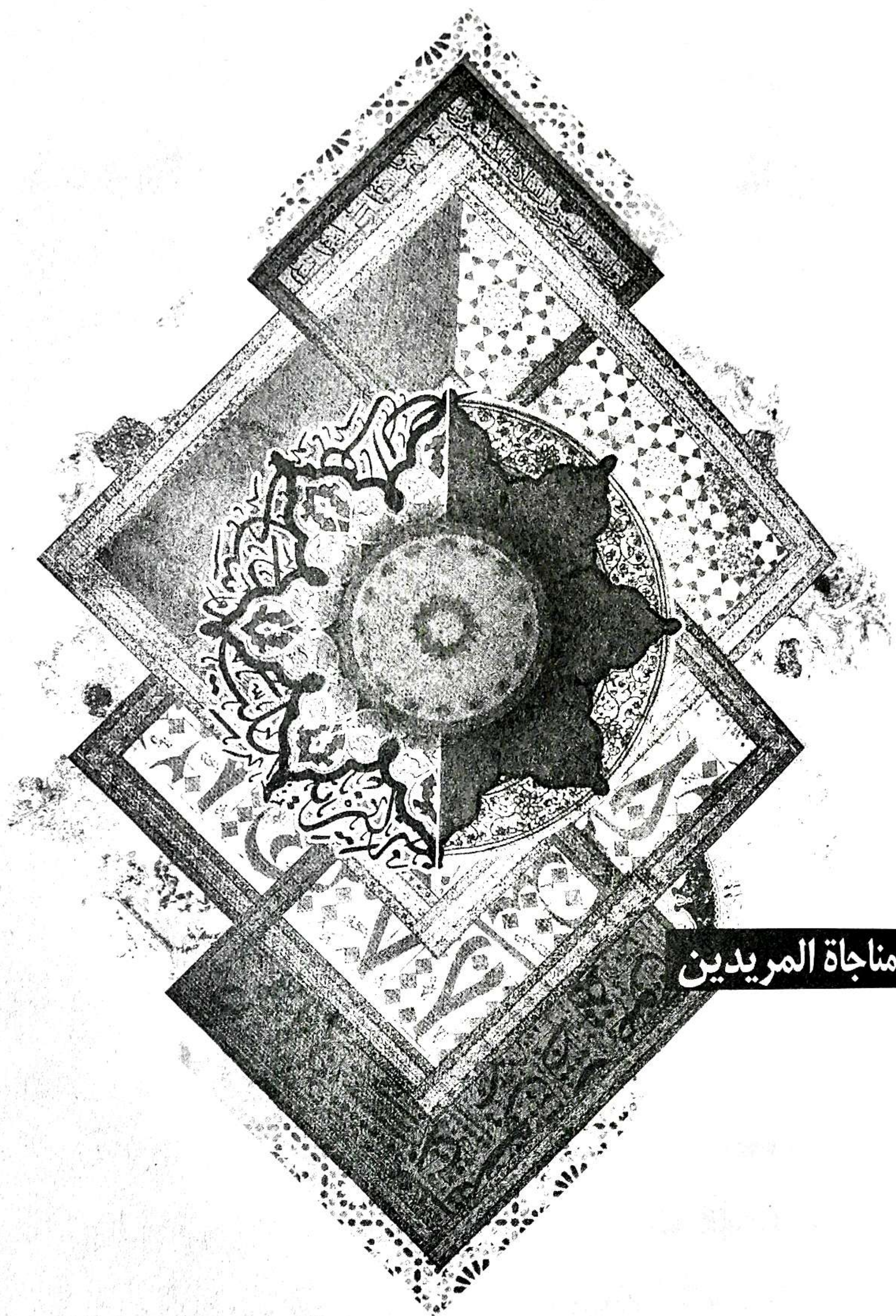
لهذا، فالعارف قلقٌ دائمًا من أن يُترك وحده ويُوكل لأمره ويخسر عناية الله لحظةً واحدةً فيسقط . بناءً عليه، هو يحتاج إلى أن يواظب على المراقبة لكي لا يزِلّ. لقد جاء في روايةٍ، إنّ أولياءنا يأخذون بحجزتنا يوم القيامة ونحن نأخذ بحُجزة النبيّ الأكرم ﷺ، حذرًا من الغفلة لحظةً واحدةً، لأنّ الغفلة تعني السقوط[٣].

---

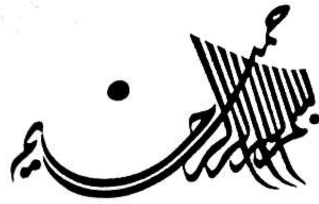
(١) سورة **الحجر**، الآية ٩٩.

(٢) سورة **الأعراف**، الآيتان ١٧٥-١٧٦.

(٣) عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «يجيء رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذًا بِحُجْزَةِ رَبِّهِ، وَنَحْنُ آخِذُونَ بِحُجْزَةِ نَبِيِّنَا، وَشِيعَتُنَا آخِذُونَ بِحُجْزَتِنَا». [**بحار الأنوار**، الجزء ٤، صفحة ٢٥].



مناجاة المريدين



سُبْحانَكَ ما أَضْيَقَ الطُّرُقَ على مَنْ لَمْ تَكُنْ دَليلَهُ، وَما أَوْضَحَ الْحَقَّ عِنْدَ مَنْ هَدَيْتَهُ سَبيلَهُ، إِلـهي فَاسْلُكْ بِنا سُبُلَ الْوُصولِ إِلَيْكَ، وَسَيِّرْنا في أَقْرَبِ الطُّرُقِ لِلْوُفودِ عَلَيْكَ، قَرِّبْ عَلَيْنَا الْبَعيدَ وَسَهِّلْ عَلَيْنَا الْعَسيرَ الشَّديدَ، وَأَلْحِقْنا بِعِبادِكَ الَّذينَ هُمْ بِالْبِدارِ إِلَيْكَ يُسارِعُونَ، وَبابَكَ عَلَى الدَّوامِ يَطْرُقُونَ، وَإِيّاكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ يَعْبُدُونَ، وَهُمْ مِنْ هَيْبَتِكَ مُشْفِقُونَ، الَّذينَ صَفَّيْتَ لَهُمُ الْمَشارِبَ وَبَلَّغْتَهُمُ الرَّغائِبَ، وَأَنْجَحْتَ لَهُمُ الْمَطالِبَ، وَقَضَيْتَ لَهُمْ مِنْ فَضْلِكَ الْمَآرِبَ، وَمَلَأْتَ لَهُمْ ضَمائِرَهُمْ مِنْ حُبِّكَ، وَرَوَّيْتَهُمْ مِنْ صافي شِرْبِكَ، فَبِكَ إِلى لَذيذِ مُناجاتِكَ وَصَلُوا، وَمِنْكَ أَقْصى مَقاصِدِهِمْ حَصَّلُوا، فَيا مَنْ هُوَ عَلَى الْمُقْبِلينَ عَلَيْهِ مُقْبِلٌ، وَبِالْعَطْفِ عَلَيْهِمْ عائِدٌ مُفْضِلٌ، وَبِالْغافِلينَ عَنْ ذِكْرِهِ رَحيمٌ رَؤوفٌ وَبِجَذْبِهِمْ إِلى بابِهِ وَدُودٌ عَطُوفٌ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَني مِنْ أَوْفَرِهِمْ مِنْكَ حَظًّا، وَأَعْلاهُمْ عِنْدَكَ مَنْزِلًا، وَأَجْزَلِهِمْ مِنْ وُدِّكَ قِسْمًا، وَأَفْضَلِهِمْ في مَعْرِفَتِكَ نَصيبًا، فَقَدِ انْقَطَعَتْ إِلَيْكَ هِمَّتي، وَانْصَرَفَتْ نَحْوَكَ رَغْبَتي، فَأَنْتَ لا غَيْرُكَ مُرادي، وَلَكَ لا لِسِواكَ سَهَري وَسُهادي، وَلِقاؤُكَ قُرَّةُ عَيْني، وَوَصْلُكَ مُنى نَفْسي، وَإِلَيْكَ شَوْقي، وَفي مَحَبَّتِكَ وَلَهي، وَإِلى هَواكَ صَبابَتي، وَرِضاكَ بُغْيَتي، وَرُؤْيَتُكَ حاجَتي، وَجِوارُكَ طَلَبي، وَقُرْبُكَ غايَةُ سُؤْلي، وَفي مُناجاتِكَ رَوْحي وَراحَتي،